وزارة الثقافة

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك

خير الدين التونسي

خير الدين التونسي

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك

المقدمة وتقاريظ المعاصرين

تحليل النص وتحقيقه مع جداول وملحقات وفهارس

للمنصف الشنّوفي

مبرز ودكتور دولة في الآداب

تنفيذ:

الدار العربية للكتاب

التنفيذ:

الدار العربية للكتاب



خير الدين التونسي

«والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروبية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية أن نتخيّر ما يكون بحالنا لائقا ولنصوص شريعتنا مساعداً ومُوافقاً»

«خير الدين»

أقوم المسالك

ص: 85

هـذه الطبعـة ...

عمدنا في هذه الطبعة إلى:

أ ـ دراسة تحليلية عن خير الدين:

1 ـ جدول زمني جامع لترجمة خير الدين منزلة في عصره وجدول ثان ينزل أثر خير الدين في تطور النثر السياسي في القرن 19.

2 ـ تقديم تحليلي لمقدمة أقوم المسالك.

3 ـ بيبلغرافيا منتقاة باللغة العربية واللغات الأجنبية تناولت ترجمة خير الدين ومذهبه الإصلاحي.

ب ـ تحقيق نص المقدمة:

1 ـ حافظنا على الترقيم الأصلي للطبعة الأولى وهو مثبت بالطرة بين معقفين حتى يسهل على الباحث استغلال الاحالات المنطبقة على الطبعة الأولى.

2 ـ أدخلنا أشباه عناوين جديدة وقسمنا النص إلى فقرات تواكب تسلسل الأفكار المطروقة معرضين في الغالب عن الفهرس الأصلي إذ هو عام وطويل العبارة.

3 ـ حققنا الاعلام والعبارات الغامضة وأثبتنا تعاليق على كل ما رأينا أنه جدير بالتوضيح، ورقمنا كل ذلك ترقيما تصاعديا.

4 ـ أثبتنا في آخر هذه الطبعة فهارس للآيات والأحاديث والاعلام والأشعار والأماكن والكتب الوارد ذكرها والمصطلحات والمداخيل مع جدول في ترداد الألفاظ في معنى اصطلاحي.

ج ـ تحقيق التقاريظ:

1ـ اتبعنا المقدمة بالتقاريظ اعتقادا منا أنهما قسمان متكاملان بصريح قول خير الدين: «وبعد فلما نشر سابقا بعض هذا الكتاب ﴿المقدمة﴾ بعث لحضرة المؤلف بعض السادة الأعيان من ذوي الخطط وأرباب المراتب الدينية والسياسية بالحاضرة تقاريظ نفيسة»[1].

2ـ اتّبعنا نفس الطريقة التي اعتمدناها في تحقيق نص المقدمة وحرصنا على أن يكون كل تقريظ مستقلا عن الآخر من حيث التقديم المادي.

لم نر فائدة في فهرسة هذه التقاريظ فهرسة علمية إذ علاوة على قصرها فأصحابها مختلفو المشارب.

أ. د. المنصف الشنّوفي
تونس 1998

(1) انظر: التقاريظ، طبعتنا 231.

الحمد لله الواصل للحضرة العلية ادام الله
بالتلغراف ورد من وزير الحرب مضمونه انه قابل
السلطان والوزير وانه عازم على الرجوع
والسلام من اخيكم خير الدين الوزير الاكبر
١٧ رجب ١٢٩٣

Khérédine

محمد خير الدين

أقوم المسالك لخير الدين وتطور فن الرحلة إلى أوربا في القرن (XIX)

بالمشرق العربي

التاريخ	المؤلف	العنوان	مكان الطبع
1834	رفاعه الطهطاوى	تخليص الابريز الى تخليص باريز	القاهرة
1855	أحمد فارس الشدياق	الساق على الساق فى ما هو الفارياق	باريس
1856	سليم بطرس	النزهة الشهية فى الرحلة السليمية	بيروت
1866	أحمد فارس الشدياق	كشف المخبا عن فنون اوروبا الواسطة فى أحوال مالطة	تونس
1867	فرنسيس مراش	رحلة الى اوربا	بيروت
1874	لويس صابونجى	الرحلة النحلية	الآستانة
1876	نخلة صالح	الكنز المخبا للسياحة فى اوروبا	
1888	محمد شريف سالم	رحلة الى أوربا	القاهرة
1891	دمترى خيلاط	سفر السفر الى معرض الحضر	القاهرة
	حسن توفيق	رسائل البشرى فى السياحة بالمانيا وسويسرا	القاهرة
1892	أمين فكرى	ارشاد الالبا الى محاسن اوروبا	القاهرة
1893	أحمد زكى	السفر الى المؤتمر	القاهرة
1900	على أبو الفتوح	سياحة مصرى فى اوروبا	القاهرة
	أحمد زكى	الدنيا فى باريس	القاهرة

أقوم المسالك لخير الدين وتطور فن الرحلة
الى أوروبا فى القرن (XIX)

التاريخ	المؤلف	العنوان	مكان الطبع
1846	ابن أبى الضياف	الرحلة الى فرنسا (الاتحاف)	تونس
1867	خير الدين التونسى	أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك	تونس
1867	سليمان الحرائرى	عرض البضائع العام (بمناسبة المعرض العالمى بباريس سنة 1866)	باريس
1883	محمد السنوسى	الرحلة الحجازية	مخطوط
1884	بيرم الخامس	صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار	القاهرة
1888	على الوردانى	الرحلة الأندلسية	تونس
1891	محمد السنوسى	الاستطلاعات الباريسية	تونس
1900	محمد بلخوجة	سلوك الابريز فى مسالك باريز	تونس

خير الدين وعصره

احداث تاريخية	حياة خير الدين واعماله
★ عهد حسين باى ، الباى الثامن (1824 ـ 1835) 1824 : ـ القضاء بايعاز من أوروبا على القرصنة ورق النصارى . ـ معاهدة سلم بين تونس والجزائر . 1827 : ـ انهزام الجيش العثمانى والتونسى بواقعة نافزين من قبل اليونان . 1830 : ـ احتلال فرنسا للجزائر . **★ عهد مصطفى باى ، الباى التاسع (1835 ـ 1837)**	**★ من ولادته الى اصدار كتابه :** 1822 : ـ ولادة خير الدين (من قبيلة اباظة) ببلاد الشركس ـ بالجنوب الشرقى من جبال القوقاز ، وفاة والده فى احدى الوقائع العثمانية ضد روسيا وتولى تحسين بك تنشئة خير الدين بالقسطنطنية بعد ان اشتراه بسوق الرقيق .

احـداث تـاريخيـة	حيـاة خيـر الـديـن واعمـالـه
★ **عهد أحمد باى ، الباى العاشر** (1837 ـ 1855)	
1838 : ـ انشاء المكتب الحربى بباردو · ـ مراسلة أحمد باى للدولة العثمانية باللغة العربية لاول مرة ·	
1839 : ـ التنظيمات بتركيا (خط شريف كلخانة) ·	1839 : ـ قدوم خير الدين الى تونس وقد اشتراه مبعوث أحمد باى ثانية · سنه آنذاك 17 سنة · تربيته بقصر الباى ·
1840 : ـ رفض أحمد باى التنظيمات وتحصله على لقب « مشير » ·	1840 : ـ توليه خطة بنباشى (قائد) الخيالة فى الجيش ·
1842 : ـ توجه أحمد ابن أبى الضياف الى الآستانة لابلاغ الدولة العثمانية رفض تونس للتنظيمات ·	1842 : ـ ترقيه الى رتبة آلاى أمين (قائد أول) ·
1846 : ـ عتق المماليك السودان · ـ قدوم أبناء ملك فرنسا الى تونس · ـ رحلة أحمد باى الى فرنسا · ـ اصلاح الاداءات (انشاء اللزمات والمحصولات وقانون الزيتون) ·	1846 : ـ رحلته صحبة الباى الى فرنسا ·

احداث تاريخيـــة	حيـاة خيـر الـديـن واعمـالـه
1847 : ـ انشاء دار المال وطبع الاوراق المـالية (بداية الازمة الاقتصادية) •	
	1848 : ـ ترقيه الى رتبة أمير آلاى (كلنيل) •
1852 : ـ هروب محمود بن عياد قابض المال الى فرنسا •	1852 : ـ ترقيه الى رتبـة أميـر لـواء الخيـالة (جنرال) •
	1853 ـ 1856 : ـ اقـامته ببـاريس قصـد فض قضيـة ابن عيـاد وبيع مجوهـرات لتجهيز عساكر تـونسية تسـاهم فى حرب القرم •
1854 : ـ اعانة حربية (14٠000 جندى) تقدمهـا تونس مساهمة فى حرب القرم •	
* **عهد محمد باى ، الباى الحادى عشر** (1855 ـ 1859)	
1855 : ـ قـدوم ليـون روش قنصـل فـرنسا وريشارد وود قنصل بريطانيا •	
1856 : ـ احـداث اداء جـديد : **المجبـى** « 36 ريـالا » •	
ـ التنظيمات بتركيا (خط همايون) •	
1857 : ـ قانون **عهد الامان** (تمهيدا للدستور)•	1857 : ـ تعيينه وزيرا للبحر •

احداث تاريخية	حياة خير الدين واعماله
	ـ مشاركته فى لجنة شرح قواعد عهد الأمان •
1858 : ـ انشاء المجلس البلدى بتونس العاصمة •	
★ **عهد الصادق باى ، الباى الثانى عشر** (1859 ـ 1882)	
1859 : ـ التلغراف بين تونس والجزائر •	1859 : ـ توجهه الى الآستانة لطلب فرمان التولية باسم الصادق باى •
1860 : ـ انشاء المطبعة الرسمية وجريدة «الرائد الرسمى » • ـ تنظيم الوزارات والادارات • ـ رحلة الصادق باى الى الجزائر لمقابلة نابليون الثالث •	1860 : ـ تسميته كاهية المجلس الاكبر (البرلمان) •
1861 : ـ الاعلان عن **الدستور** وتكوين المجالس •	1861 : ـ رئاسة هذا المجلس عند وفاة مصطفى صاحب الطابع • ـ رحلته الى أوروبا لشكر ملوكها على استحسانهم للدستور التونسى •

احداث تاريخية	حياة خير الدين واعماله
	1862 : ـ زواجه بجنينة (للاكبيرة) بنت الوزير الأكبر مصطفى خزندار ٠ ـ استعفاؤه من وزارة البحر ورئاسة المجلس الأكبر لمعارضته الشديدة لمبدأ الاقتراض من أوروبا ٠
1863 : ـ انشاء الباى « للمجلس الخاص » الاستشارى ٠ ـ معاهدة مع بريطانيا تخول رعاياها بتونس من الملكية العقارية فى تونس٠ ـ تعويض قنصل فرنسا ليون روش بدى بوفال ٠ ـ اقتراض أول من أوروبا (ارلنجى بباريس) 35 مليونا فرنكا تقريبا ٠	1863 ـ 1867 : ـ رحلاته فى مهمات ديبلوماسية رسمية من بين مقاصدها شكر الدول الاوروبية على استحسان الدستور ٠
1864 : ـ تضعيف المجبى من 36 الى 72 ريالا لسد قائض الديون ٠ ـ ثورة على بن غذاهم ٠ ـ هروب نسيم شمامة قابض المال ٠ ـ ابطال الدستور والمجالس ٠	1862 ـ 1864 : ـ دعوته الى المشاركة فى المجلس الخاص للباى للاستشارة ٠ 1864 : ـ سفارته لدى الدولة العثمانية لشكرها على المشاركة فى اخماد ثورة ابن غذاهم ٠

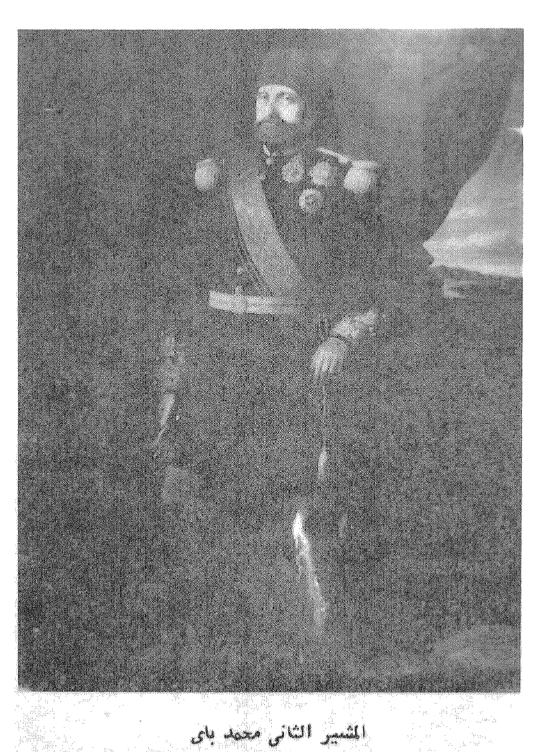
احداث تاريخيـــة	حيـاة خيـر الـديـن وأعمـالـه
1865 : ـ اقتراض ثان من اوروبا : 25 مليونـا من الفرنكات .	1865 : ـ رحلته فى مهمة الى باريس . ـ اعتذاره عن تولى وزارة الحرب .
1866 : ـ القـاء القبض عـلى على بن غـذاهم وسجنه .	
1867 : ـ فشل الباى فى امضاء اقتراض ثالث. ـ ثورة العادل باى ، أخى الصادق باى وسجنه وقتله .	1867 : ـ اصدار كتابه « **اقوم المسالك** » .
	★ **من اصدار كتابه الى وفاته :**
1869 : ـ انتصاب الكوميسيون المالى (فرنسا ـ بريطانيا ـ ايطاليا) لتصفية الديون التونسية (160 مليونا من الفرنكات) . ـ تدشين فتح قنال السويس .	1869 : ـ تعيينه رئيسا للكوميسيون المالى .
1870 : ـ ابطال المكتب الحربى بباردو . ـ تخفيض عدد الجيش وميزانية وزارة البحرية . ـ تخفيض الكوميسيون للديون من 160 الى 56 مليونا من الفرنكات .	1870 : ـ تعيينه وزيرا مباشرا الى جانب الوزير الأكبر . ـ وفاة زوجته بنت خزندار . ـ وزواجه بجاريتين تركيتين بدرجهان وحسن الملك .

احداث تاريخية	حياة خير الدين وأعماله
	1871 : ـ سفارته لدى الدولة العثمانية وتحصله على فرمان يوطد العلائق بين البلدين. ـ مجازاة الباى له بضيعة النفيضة (100.000 هكتار) .
1872 : ـ مد سكة الحديد تونس ـ حلق الوادى ـ المرسى (شركة انجليزية) .	
1873 : ـ عزل خزندار . ـ انشاء بنك انجليزى ـ تونسى ومصنع للغاز (شركتان انجليزيتان).	1873 : ـ تعيينه وزيرا أكبر خلفا لخزندار الى جانب رئاسته للكوميسيون . ـ طلاقه لزوجتيه الجاريتين وزواجه الرابع بجاريته : قمر .
	1873 ـ 1877 : ـ أهم أعماله مدة الوزارة الكبرى . ـ تنظيم الوزارات والادارات . ـ تنظيم القضاء . ـ تنظيم الفلاحة والتجارة والاقتصاد . ـ تنظيم الاداءات . ـ تنظيم الاحباس . ـ تنظيم التعليم .
	1875 : ـ ولادة ابنه الطاهر خير الدين .

احداث تاريخية	حياة خير الدين وأعماله
1876 : ـ التنظيمات بتركيا (قانون أساسى) .	
1877 : ـ الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا . ـ تولى محمد خزندار للوزارة الكبرى .	1877 : ـ عزله عن الوزارة الكبرى ورئاسة الكوميسيون .
	★ **حضوره بالآستانة :**
1878 : ـ وفاة مصطفى خزندار . ـ ابطال الدستور بالدول العثمانية . ـ مؤتمر برلين واقتسام الخلافة العثمانية من قبل الغرب .	1878 : ـ بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني وتعيينه رئيسا للجنة اقتصادية ومالية (بعد رفضه لوزارة العدل) .
1878 ـ 1881 : ـ تولى مصطفى ابن اسماعيل الوزارة الكبرى .	1878 ـ 1879 : ـ تعيينه صدرا أعظم للخلافة العثمانية .
	1880 : ـ بيعه املاكه ومن بينها ضيعة النفيضة لشركة مرسيليا الفرنسية .
1881 : ـ احتلال فرنسا لتونس وانتصاب الحماية .	
1881 ـ 1883 : ـ تولى محمد خزندار الوزارة الكبرى .	
★ **عهد على باى ، الباى الثالث عشر** (1882 ـ 1902)	
	1889 : ـ وفاته بالآستانة (سنه 77 سنة) .



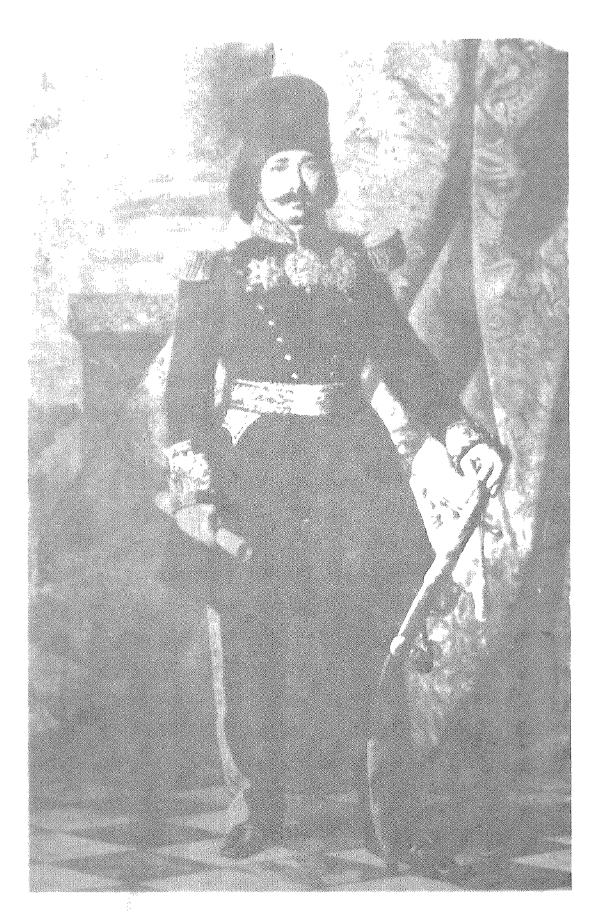
المشير الأول أحمد باي



المشير الثانى محمد باى



المشير الثالث محمد الصادق باي



الوزير مصطفى خزنه دار

التقديم

أهمية مقدمة أقوم المسالك

الأسباب الداعية للتأليف

تحليل مقدمة أقوم المسالك

الخاتمة

التقـــديم

أهمّية مقدمة أقوم المسالك

يعد **اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك** للوزير الجنـرال خير الديـن التونسي من ابرز الكتب التي حررت في القرن التاسع عشر وهـو في بـاب التحرير السياسي ادخل وان حشره مؤرخو الآداب في باب الرحلة اغتـرارا بعنوانه وتهاونا **بمقدمته** التي حوت من الآراء الجوهرية الخطيرة ما يجعل منها مرحلة حاسمة من مراحل التفكير السياسي في العالم العربي الاسلامي الحديث.

ظهر هذا الكتاب سنة 1867 وهو يشمل مقدمة طويلة يحلل فيها المؤلف وضع البلدان العربية الاسلامية المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية وما يرتئيـه من حلول للمعضلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية القـائمة في عصره ثم وصفا لعشرين بلدا اوربيا من بينها الدولة العثمانية زارها المؤلف ما بين 1853 و 1867 في مهمات ديبلوماسية مختلفة ويشمل اخيرا تقاريظ المعاصرين من التونسيين لمقدمة الكتاب وينتمي هؤلاء المقرظون الى طبقـة العلماء ورجـال السياسة.

ولعل الاهم في هذا الكتاب **مقدمته** اذ كانت برنامجا اصلاحيـا لا لوضـع تونس فقط، تلك البلاد التي كانت في منتصف القرن التاسع عشر على حـد تعبير ابن أبي الضياف في **اتحافه** « فقيرة حسا ومعنى » بل لكامل الامبراطورية العثمانية « ذلك الرجل المريض » على حد تعبير اوربا المستعمرة آنذاك والتي كانت مترددة في شانه بين عقيدتين سياسيتين : اما الحفاظ على كيانه لحين مع توفير بعض « **التنظيمات** » اذ كان يحمي الطريق الموصلـة الى مستعمرات الهند ويضمن سوقا تجارية ممتازة، واما التعجيل باقتسام اشلائه باثارة الحمية القومية لعدد كبير من الشعوب النصرانية المنضوية تحت لوائه (1).

---

(1) حرب اليونان وواقعة نافرين 1827 ـ حرب الموسكو : 1854 ـ 1856 .

فظهور هذه المقدمة فى تلك السنة بالذات ، 1867 يضفى عليها اذن اهمية بالغة • فهى ـ ان نظرنا اليها من زاوية البلاد التونسية ـ تعتبر نتاج تجربة تونسية بحتة ـ من قبل مسؤول سياسى تونسى ـ فى بلاد متأزمة جربت النظام الدستورى سنة 1857 باعلان **عهد الامان** وسنة 1861 باعلان **الدستور** واضربت عنه عند اندلاع ثورة شعبية فلاحية عارمة سنة 1864 وهى ثورة علي ابن غذاهم ، مما جعل هذا المفكر الاصلاحى ـ وهو فى عنفوان النشاط والنضج اذ كان في الخامسة والاربعين من عمره عند تحريره هذه المقدمة ـ يستخلص العبر ويتحفز لتصميم برنامج اصلاحى واقعى ستمكنه الظروف من انجاز قسط وافر منه لما يتقلد الحكم من جديد ابتداء من 1869 الى 1877 باعتباره رئيسا للكومسيون المالى ثم وزيرا مباشرا واخيرا وزيرا اكبر •

وان نحن نظرنا الى هذه المقدمة من زاوية الخلافة العثمانية وصلتها باوربا وجدنا ان هذا الاثر يعتبر معلما هاما فى تاريخ المسالة الشرقية التى بلغت اوج التأزم مع خصومة محمد على المصرى مع توركيا واعلان التنظيمات الخيرية سنة 1839 ثم مع ظهور حركة العثمانيين الجدد سنة 1865 •

وسوف تفض هذه المسالة الشرقية فى مرحلة اولى فى مؤتمر برلين سنة 1878 اذ بسط نظام الحماية على تونس ومصر وفى مرحلة نهائية عند اندلاع الحرب العالمية الاولى وظهور الحركة الكمالية التى اعلنت الجمهورية سنة 1923 والغت الخلافة فى السنة الموالية •

فنحن نعتقد اذن ان منطلق التفكير الاصلاحى عند خير الدين تونسى بحت وهو وضع البلاد التونسية فى منتصف القرن التاسع عشر ـ الا انه يتنزل فى محيط عثمانى باعتبار ان تونس جزء لا يتجزأ من الخلافة العثمانية ولقد ركز اصلاحه على قضية جوهرية وهى ضرورة الاقتباس من الغرب المتحضر لا المستعمر ـ وتبرير ذلك شرعيا : فلئن بات عنده من الثابت ان تحدى الغرب الاقتصادى اصبح امرا تفاقم خطره فانه مازال يعتقد ـ وهذا هو برنامجه ـ ان العالم العربى ـ الاسلامى غير مستعد لان يسمح ادماجا وان يغزى عقائديا ، لذلك سيطرت على تفكيره مشكلة الاصلاح من الباطن لا من الخارج واحياء القيم الاسلامية السرمدية **كالشورى والحرية والعدل** ، ونظام

الحكم الذى حاد عن الشريعة الاسلامية وانقلب الى حكم مطلق استبدادى ادى الى الخراب والتأزم المجحف فكان نداؤه موجها اولا وبالذات الى زعماء الشعوب العربية الاسلامية خاصة منهم رجال الدين الذين تواطؤوا مع رجال السياسة على اقرار نظام الحكم المطلق وهذا ما يفسر حرصه على ترجمة كتابه باللغة التركية .

وكان نداؤه موجها ثانيا الى اوربا المتشككة فى حسن استعداد المصلحين للوثوب والنهضة فكان كتابه ردا واحتجاجا وذلك ما يفسر حرصه على ترجمة هذه المقدمة الى الفرنسية والانكليزية (1) .

فاذا كان هذا الاثر نتاج تجربة تونسية منزلة فى محيط عثمانى امكن لنا ان نتساءل عن الاسباب البعيدة والقريبة المهيجة له ثم من خلال تحليلنا له عن مواقف خير الدين من نظام الحكم القائم فى تونس خاصة والخلافة العثمانية عامة ، باعتبار ان نظام الحكم هو المفتاح لحل قضية القضايا وهى الاقتباس من الغرب فى نطاق الحفاظ على الاصالة والقومية العربية الاسلامية ؟



---

(1) لم يكن خير الدين التونسى ناثرا من الطبقة الاولى ولا شاعرا مفلقا ، لذلك عهد بتحرير افكاره فى **اقوم المسالك** الى أحد العلماء التونسيين ، والمشهور أنه الشيخ سالم بوحاجب ، بصريح قوله : « مستعينين فى تهذيب ألفاظه ببعض أبناء الوطن » (**اقوم المسالك** ، ط . 1 ، 461) كما عهد بترجمة كتابه الى اللغات المذكورة أعلاه الى عدد من المترجمين كما نبين ذلك فى **اطروحتنا** .

الأسباب الداعية للتأليف

أ) الاسبـــاب البعيـــدة

تعتبر السنة التى ظهر فيها **اقوم المسالك** وهى سنة 1867 من اشد السنوات تازما بتونس ، فهى السنة الشهباء على حد تعبير ابن ابى الضياف (1) – عم فيها الجدب واستاصل المرض الوبائى المعروف بالكوليرة اهل الايالة وخاصة اهل باجة حتى سمت العامة هذه السنة عام « بو براك » ٠

يقول ابن ابى ابى الضياف « وقال لى بعض عقلاء العرب من اهل الخبرة : « مات الثلثان » وبقى الثلث ويشهد له المال من الجباية حتى عجزوا عن الحفر لموارات الموتى ، فصاروا يجعلونهم فى مطامير خزن الحبوب لفراغها ، دون ما تاكله الوحش والكلاب » (2) ٠

وبلغ السيل الزبى بتزعم محمد العادل باى ، اصغر اخوة الصادق باى ملك تونس آنذاك ، ثورة شعبية اندلعت بجبل باجة عند عروش خمير (3) ٠

والحقيقة ان اصول هذه الازمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ترجع الى سنة 1860 حيث اختلت ميزانية البلاد وانعدم المال مما اضطرالدولةالتونسية الى الاقتراض من اوروبا سنة 1863 وتضعيف الجباية سنة 1864 فكانت ثورة على ابن غذاهم الفلاحية الهائلة فى نفس السنة وتبعها اقتراض ثان سنة1865وظهور سكة النحاس وتفاقم الضرائب ٠ وحيث ان **اقوم المسالك** هو كتاب نابع فى اعتقادنا عن تجربة تونسية بحتة حق لنا ان نتساءل عن الاصول البعيدة لهذه الكـوارث ؟

1) تـونـس المحروسـة

ان المطالع للجزء الثالث من **اتحاف** ابن ابى الضيـاف يلمس ان المجتمـع

---

(1) **اتحاف** ، VI ، 90 .
(2) **اتحاف** ، VI ، 105 .
(3) **اتحاف** ، VI ، 96 – 103 .

التونسي قبل القرن التاسع عشر كان مجتمعا مستقرا متوازنا في كنف ضرب من القرار اساسه تقادم الهياكل والاكتفاء الذاتي ، فكان الاقتصاد فلاحيا يفي بحاجات السكان ومقتصرا على الاستهلاك واما المجتمع فكان لا يتجاوز عدده مليون نسمة خمسهم في العاصمة والمدن واربعة اخماسهم في القرى والارياف٠ فكان يوجد في العاصمة الى جانب التونسيين ولادة الاتراك والمهاجرون الاندلسيون واليهود والنصارى ولم يتجاوز عدد النصارى الخمس عشرة الف نسمة وكان مجتمع القرى والارياف مكونا من عرب تونسيين وهم الاغلبية الساحقة وبعض الآف من البربر موزعين في الجنوب التونسي ٠

وعلى هذا الاساس ، فلا مناص ، ان نحن اردنا ان ندرس هذا المجتمع الدراسة الصحيحة ، من الالتفات الى الاغلبية الساحقة المكونة له والمسماة بالعروش او القبائل : كانت هذه العروش مرتكزة على اصول ثلاثة : العائلة والارض والدين ٠ فالفرد ينتمي الى العرش عن طريق العائلة الصغيرة بواسطة الطريقة الصوفية التي بسطت التعاليم الاسلامية الى حد الخرافات والاباطيل احيانا ولكن الرابط الاول والحقيقي بين الفرد والعرش يبقى الارض فكان العرش يمتلك الاراضي الشاسعة التي يعمل فيها صغار الفلاحين من ابناء العرش وكان الاقتصاد قائما على الفلاحة والملكية الصغيرة للعائلة وتربية الماشية والتجارة البسيطة المتمثلة في تبادل العروش بضائع مكملة لاقتصاد فلاحي يفي بحاجيات الجميع ولم يكن لها من اتصال بالدولة الا عند دفع الضرائب التي اخذ قدرها يتزايد ، رغم ضعف المستوى التقني لهذا الاقتصاد الفلاحي ٠

كذلك كان الشأن او يكاد بالنسبة للعاصمة والمدن الساحلية التونسية ، فعلاوة على المهن التقليدية وخاصة صناعة الشاشية التي بلغت من الاتقان والازدهار ما جعلها تغزو الاسواق الاجنبية في الشرق واوروبا ، كانت التجارة المحلية قوام اقتصاد السكان الذين كانوا مثل سكان العروش منضوين تحت راية العائلة الصغيرة والطرق الصوفية ويمتلكون بعض الاراضي الشاسعة التي كان يستغلها اهل العروش على اساس الكراء ٠

وكان موقع العاصمة والمدن الساحلية حافزا لاقامة تبادل تجاري هام في حوض البحر الابيض المتوسط ولكن القرصنة النصرانية اجتهدت في الا يكون

للتونسيين اسطول تجاري ومبادلات تجارية مع بلاد النصارى فكان تبعا لذلك نشاط القرصنة التونسية نشاطا هامشيا بالغ التكاليف وان كان له ان يزدهر فذلك في عهد الباى حمودة باشا (1782 ـ 1814) وقت حروب نابليون .

ويمكن ان يعتبر عهد حمودة باشا نقطة تحول فى تاريخ البلاد : فرغم عوادى المناخ من جدب ادى احيانا الى المجاعة ورغم عوادى الاوبئة كالطاعون والكوليرة فان هذا المجتمع الفقير الى السواعد تخدم ارضه والى مستوى تقنى رفيع يمكن من اثرائها كان مجتمعا متوازنا رغم استقراره وعدم حركيته .

وبذلك تفهم تسمية العلماء لعاصمتهم **بتونس المحروسة** من غائلة النصارى الذين كانوا يحاولون عن طريق القرصنة السيطرة على تجارتها وبالتالى على اقتصادها .

2) تونس « الفقيرة حسا ومعنى » (1)

اما اذا كان فجر القرن التاسع عشر فان هذا التوازن سيختل اختلالا كليا : ذلك ان اوروبا التى دخلت فى عصر الثورة الصناعية منذ منتصف القرن الثامن عشر غنمت امرين هامين هما التزايد فى النسل وتضخم التجارة فكان لزاما عليها ان تخلص السواحل النصرانية للبحر الابيض المتوسط من آفة القرصنة لتفتح لتجارتها ولتجارها حقلا جديدا من النشاط . فكان مؤتمر فينا (Vienne) سنة 1815 الذى الغى القرصنة واسترقاق النصارى وكانت زيارة اللورد اكسموث (Lord Exmouth) لتونس فى عهد محمود باى فى السنة الموالية لحمله على الاعتراف بمعاهدة فينا .

ومنذ ذلك التاريخ فتح باب تونس على مصراعيه للتجارة الاوروبية واستحوذ التجار الاجانب على السوق التونسية بتوريدهم البضائع المصنوعة وتصديرهم منتوجات البلاد التونسية من زيت وقموح وصوف وجلد وتقاسموا هذه السوق على الصفة التالية :

---

(1) عبارة طالما تتردد فى الاتحاف .

الفرنسيون ويصدرون الى مرسيليا ، الايطاليون واليهود ويصدرون الى ﻗﺮﻧﺔ (Livourne) واليهود وبعض التونسيون المسلمين ويصدرون الى المشرق ٠ واعان على هذا الغزو التجارى الامتيازات القنصلية فكان الفرنسيون مثلا لا يدفعون للبلاد الا 5 فى المائة عما يستوردونه وما بين 3 فى المائة و 8 فى المائة عما يصدرونه ٠

ونتج عن هذا الغزو التجارى ثلاثة امور ستودى بالبلاد وتخرب اقتصادها وتجعلها فى قبضة الاقتصاد الاوروبى :

1) مزاحمة التجارة الاوروبية للصنائع التقليدية المحلية مما يسنتج عنه اضمحلال هذه الصنائع ٠

2) نزيف العملة التونسية الى الخارج عن طريق ارباح التجار الاجانب من جهة وعن طريق تهريب الذهب من قبل هؤلاء التجار من جهة أخرى مما سيجعل هذه الارباح تصلح لتمويل مشاريع خارج تونس بينما كان من الاولى ان تبقى بالوطن ٠

3) هيمنة الفرنسيين على هذه التجارة الاوروبية وبالتالى على الاقتصاد التونسى فالتجار اصبحوا ــ بحكم الامتيازات التى يرجع اصلها الى سنة 1605 وبحكم معاهدة 1802 التى تمنح فرنسا حظوة اكبر من غيرها فى التجارة مع تونس ــ منظمين فى نطاق « امة فرنسية » يحميها القنصل (1) ويشترون من من الباى غلة الزيت المخصصة للتصدير ، نعم ٠ احتكر الباى ــ منذ الغاء القرصنة ــ هذه التجارة واصبح يبيعهم بضعف السعر ما يشتريه من الاهالى مع الملاحظة انه اسقط عن هؤلاء التجار اداء التصدير ٠

ثم ان الباى لم يقتصر على هذه الارباح بـ 100 فى المائة بل عمد الى طريقة « السلم » وهى بيع الصابة مسبقا باسعار منخفضة معرضا بنفسه وبالخزينة

(1) عينت فرنسا اول قنصل لها بتونس سنة 1577 ثلاث سنوات بعد الاحتلال التركى ويذكر ابن خلدون ان الحرب الصليبية السادسة فى عهد لويس التاسع كان سببها حماية مصالح التجار الفرنسيين بتونس من القرصنة التونسية .

الى خطر فادح وهو ارجاع مال التجار والاجانب ما لم تكن صابة بفائض باهظ جدا ، وفي حال انعدام الصابة واسترجاع هؤلاء التجار اموالهم من الباى فانهم يعمدون الى قرض الاهالى بفائض باهظ جدا فاستفحل امر الربا فى الايالة ·

ولم يكف الباى استخلاص اداء العشر من الزيتون والزيت واحتكار المتاجرة بالصابة مع التجار الاجانب بل عمد الى « السلم » مع الفلاحين انفسهم باسعار منخفضة جدا مما جعل هؤلاء يتورطون فى الربا مع التجار الاجانب وفى بيـع الصابات الموالية عن طريق « السلم » والمناجزة ·

فلما كان احتلال الجزائر سنة 1830 عقدت فرنسا معاهدة بينها وبين تونس تقضى بالغاء احتكار الباى للمتاجرة مع الاجانب وتمكينها بالتمتع بمنزلـــة « الوطن الاكثر امتيازا » ، مما جعل الفلاح التونسى يقع فى قبضة التجـــارة الاجنبية مباشرة ومن هنا تبدا الكوارث التى ستتوالى على البلاد الى سنة 1867 ـ سنة ظهور **اقوم المسالك** (1) ·

3) سراب التنظيمات فى كنف الازمة الماليـــة

فاصبحت تونس منطقة نفوذ فرنسى باعتبارها متاخمة للجزائر واشتـد التنافس بين دول ثلاث : فرنسا وانجلترا وايطاليا نظرا الى موقـع تونـس الاستراتيجى فى حوض البحر الابيض المتوسط ·

والملاحظ هو ان التوغل الاقتصادى الاوروبى بالايالة وجد مجالا فسيـــحا ابتداء من عهد المشير الاول احمد باى (1837 ـ 1855) الذى ذهب فى حكـم الاطلاق ومذاهب السرف شوطا بعيدا جعل البلاد بعد وفاته بست سنوات على شفا انهيار اقتصادى تام دفعها بايعاز من الوزير الاكبر مصطـفى خزنـة دار (1837 ـ 1873) الى التفكير فى الاقتراض من اوروبا فى نهاية سنة 1862 وهى السنة الحاسمة التى تخلى فيها مؤلف **اقوم المسالك** عن الوزارة وبقية مناصبه وتفرغ فيها للتامل وجمع عناصر كتابــه ·

---

(1) **اتحـاف** ، VI ، 110 .

ويمتاز عهد المشير الاول بانه اضاف الى عوادى المناخ والاوبئة والغزو التجارى الاوروبى كارثة جديدة وهى الاجحاف فى الضرائب على الاهالى وخاصة على المجتمع الريفى الذى يكون أربعة اخماس الايالة : فاحدث ثلاث بدع جبائية ارهقت الشعب ارهاقا وهى :

1) قانون الزيتون .

2) اداء المحصولات وهى ضريبة على مواد الاستهلاك .

3) واللزمات وهو احتكار الباى فروعا من الانتاج كصناعة الصابون والجبس والملح والبارود وزراعة التبغ وبيعه الخ ...

واوكل امر استخلاصها الى الوزير مصطفى خزنة دار وقابض المال محمود ابن عياد (1) والعمال مستعينين فى استخلاصها بما عده بعضهم اصلاحا وهو فى الحقيقة دعامة الحكم القهرى ـ الجيش ـ الذى رتب له مكتبا حربيا سنة 1840 والذى ابتلع ثلثى مداخيل الدولة . وبذلك استتب له الامر لتخريب الاقتصاد تخريبا ولارضاء شهواته فى شتى مذاهب السرف من بناء القصور كقصر المحمدية واشتراء اسطول. (6 بواخر) وتجهيزه واقتناء البضائع الكمالية من اوربا لتجهيز قصوره وقصور كبراء الدولة الى جانب اقتناء الخمور والحرير وفاخر اللباس .

والمطالع للباب السادس من **الاتحاف** لابن ابى الضياف يجد تفصيلا لهذا الاسراف (2) .

ولئن كان ابن ابى الضياف يحمل تبعية هذا الانهيار وهذه الازمة المالية على المشير الاول احمد باى فانا نذهب الى ان الحائك لخيوط هذه المأساة انما هو الوزير مصطفى خزنة دار الذى كان اثرى اثراء فاحشا هو وعصابته من كبراء الدولة بحمل البايات على انتهاج سياسة الاسراف .

---

(1) محمود بن عياد (1810 ـ 1880) هرب سنة 1852 الى فرنسا حاملا معه 60 مليونا فرنكا باعتبار ان ميزانية الايالة آنذاك عشرة ملايين فرنكا تقريبا !

(2) **اتحاف** ، VI ، 111 ـ 112 ، ثانياج : **اصول نشأة الحماية** ، 177 ـ 185 .

يظهر ذلك جليا عند تولى المشير الثانى محمد باى (1855 ـ 1859) فقد امتاز عهده بانشاء بدعة جبائية اخرى سنة 1856 ، ضريبة « المجبى » وقدرها 36 ريالا (1) وهى ضرب من الجزية يدفعها كل تونسى بلغ سن الرشد .

فى هذا المحيط المتأزم تنزلت قضية التنظيمات بتونس فى مرحلتها الاولى وهى الاعلان عن **عهد الامان** سنة 1857 (2) ومرحلتها الثانية وهى الاعلان عن **الدستور** سنة 1861 ـ ولاشك ان المصلحين التونسيين استبشروا بها وعملوا بقسط وافر على بعثها .

لكننا نعتقد ـ والوضع ما بينا ـ انها كانت مسرحية شيطانية حاك خيوطها الوزير الاكبر بالتعاون مع قنصل فرنسا ليون روش (3) وقنصل انكلترا ، ريشارد وود (4) وكلاهما يرمى من ورائها الى توطيد نفوذ بلاده الاقتصادى ، الاول بحمل الباى على سياسة استقلالية عن الخلافة العثمانية والثانى بحمل خزنة دار على الابتعاد عن فرنسا وآلت التنظيمات فى الحقيقة الى جعل سلطة خزنة دار سلطة مطلقة وظهور الباى بمظهر الملك الذى ليس له من الملك والسيادة الا اللقب .

فاما **عهد الامان** المحتوى على 11 قاعدة فانه بقواعده التاسعة والعاشرة والحادية عشرة فتح باب البلاد على مصراعيه للهيمنة الاقتصادية الاجنبية :

[القاعدة] **التاسعة** : تسريح المتجر من اختصاص احد به ، بل يكون مباحا لكل احد ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها وتكون العناية باعانة عموم المتجر ومنع اسباب تعطيله .

---

(1) يساوى الريال انذاك : 6،0 فرنكا .

(2) وهو يكاد يكون نسخة طبق الاصل لخط شريف كلخانة الذى اعلنت عنه الخلافة العثمانية سنة 1839 .

(3) Roches (Léon) : قنصل فرنسا بتونس من 1855 الى 1863 واختص بالباى واصبح الصق به من ظله .

(4) Wood (Richard) : قنصل انكلترا بتونس من 1855 الى 1879 واختص بالوزير خزنة دار الذى كان ينتصح باشاراته .

العاشرة : ان الوافدين على ايالتنا لهم ان يحترفوا سائر الصنائع والخدم بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتى يمكن ان تترتب ، مثل سائر اهل البلاد ، لافضل لاحدهم على الآخر بعد انفصالنا مع دولهم فى كيفية دخولهم تحت ذلك كما ياتى بيانه ٠

الحادية عشرة : ان الوافدين على ايالتنا من سائر اتباع الدول لهم ان يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنة والارضين مثل سائر اهل البلاد بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتى تترتب من غير امتناع ولا فرق فى ادنى شىء من قوانين البلاد ونبين بعد هذا كيفية السكنى بحيث أن المالك يكون عالما بذلك داخلا على اعتباره بعد الاتفاق مع احبابنا الدول » (I) ٠

فاذا ذكرنا بان **القاعدة الاولى** فى عهد الامان تؤكد الامان لسائر سكان الايالة على اختلاف الاديان **والثالثة** تسوى بين المسلم وغيره فى استحقاق الانصاف **والرابعة** توصى بان لا يجبر الذمى على تبديل دينه ولا يمنع من اجراء ما يلزم ديانته ، علمنا ان **عهد الامان** اقر وضعا توفر للتجارة النصارى واليهود منذ اوائل القرن التاسع عشر واقتصر على اعطائه صبغة قانونية ٠

ولئن حرموا من حرية الملكية حتى I857 فان هذا التحريم كان يجد لديهم مخرجا بارتهان العقار والدور والزياتين لسنوات عديدة من صغار الفلاحين المرهقين بالضرائب ٠

اما **الدستور** المنبثق عن **عهد الامان** والمعلن عنه سنة I86I فانه فى ابوابه الثلاثة عشر وفصوله المائة واربعة عشر يقيم توزيع الحكم بين الباى ووزرائه **ومجلس اكبر** له من سعة النفوذ ما لا يقدر وهو مجلس او **برلمان** مركب من ستين عضوا : 40 من المماليك عدا ابن أبى الضياف و 20 من اعيان الحاضرة وحقيقة الدستور هى ازاحة الباى عن السيادة وجعل حقيقة السلطان بيد الوزير الاكبر الذى كان له الدور الاول فى انتداب اعضاء المجلس الاكبر وما انبثق عن الدستور من مجالس كمجلس الضبطية والمحكمة الابتدائية الاولى ومجلس

(I) **اتحاف** ، ١٧ ، 243 .

الجنايات ... الخ بل انه كان من مشمولات المجلس الاكبر اقالة الباى عندما تثبت ادانته .

ولئن كان الفصل المائة والثالث عشر غامضا بعض الغموض فى خصوص الترخيص للاجانب بالملكية العقارية ، حيث يتحدث عن « ملك ما لا ينقل » فان المعاهدة ــ او الشروط على حد تعبير ابن أبى الضياف ــ التى أبرمها الصادق باى مع دولة بريطانيا سنة 1863 كانت واضحة اللفظ والعبارة و « بمقتضاها سرحهم لملك الربع والعقار فى المملكة ، وذلك بموافقة المجلس الاكبر » (1).

« ــ الشرط الاول : لرعايا الانقليز من الآن فصاعدا ، حق ثابت لانزاع فيه **بان يشتروا ويملكوا ما لا ينقل على اختلاف انواعه بالمملكة التونسية ...**

ــ الشرط الرابع : كل منازعة تقع بين رعايا الانقليز ورعايا تونس فى شان ما لا ينقل سواء كانت متعلقة بملك أو بسكنى فى ديار او اراضى وغيرها مما لا ينقل تنشر بمجالس الاحكام المنتصبين لفصل امثالها » (2) .

ولم يفتأ الصادق باى ان عمم هذه المعاهدة على بقية الدول الاوربية الاخرى الممثلة بتونس .

فواضح جلى اذن ان **الدستور** كان سرابا ولم يكن له من دور الا اقرار وضع ثان ــ بعد **عهد الامان** الذى اقر الغزو التجارى والاقتصادى الاوروبى ــ اتسم به عهد المشيرين الثلاثة وهو سيطرة الوزير الاكبر السيطرة المطلقة على مقاليد الحكم وتمكينه ــ فى مأمن من يد العدالة ــ من الاثراء الفاحش ــ هو وصنائعه ــ فى كنف هذه الازمة المالية التى حرص على حبك حبائلها (3) .

---

(1) **اتحــاف** ، V ، 100 .

(2) **اتحــاف** ، V ، 101 و **خير الدين ، رجل دولة ، مذكرات** ، ص . 46 .

(3) انظر عن هذا الدستور : **اتحــاف** ، V ، 32 ــ 38 ــ 42 ــ 62 .

ڤانياج : **اصول نشأة الحماية** ، 76 ــ 88 .

فيتوسى : **الدولة التونسية** ، 68 ــ 86 .

ب) الاسباب القريبة

1) الاقتراض من اوروبا ورفض خير الدين ذلك

ومن هنا يبدا الفصل الثانى من هذه الماساة المتمثل فى محاولة الاجانب تصنيع البلاد بعد ان غزوها تجاريا . فبعد ان اثقل الوزير خزنة دار كاهل البلاد بالضرائب مما جعل بعض المواطنين يحرقون زياتينهم حتى لا يرغموا على دفع الضرائب المجحفة التى ليس لهم قدرة على تسديدها (1) فتح الباب على مصراعيه للدول الاوروبية بمنح رعاياها شتى الرخص والامتيازات المتعلقة بالمشاريع الاقتصادية كاستغلال مناجم الرخام والحديد والرصاص واقامة طرق المواصلات وسكك الحديد واحتكار صيد المرجان وفتح البنوك واستجلاب ماء زغوان (2) ...

ورغم ما استطاع ان يهرب من مال ـ هو وصنائعه ـ الى اوروبا فان ديون البلاد التونسية سنة 1860 بلغت تسع عشرة مليونا ريالا : احد عشر مليونا فرنكا اى ما يساوى دخل سنة عادية من الميزانية التونسية وامكن له ان يسدد جل هذا الدين بما اغتصبه من مجوهرات عائلة محمد باى المتوفى سنة 1859 .

لكن اعتلاء الصادق باى العرش مكن الوزير خزنة دار من ان يستحوذ على عقله فبعث الجيش والاسطول من جديد على غرار ماكانا عليه فى عهد احمد باى وبعث هدية الى الاستانة قدرها 3 ملايين فرنكا بمناسبة اعتلاء الصادق باى العرش وبنى قصورا لقنصلى فرنسا وانكلترا بما قدره مليونان فرنكا وشرع

---

(1) فى آخر عهد احمد باى اصبحت المساحات المزروعة 150 000 هكتارا بعد ان كانت تقارب المليون فى اوائل عهده ..

اتحاف ، IV ، 146 .

« وازداد بذلك نقصان الفلاحة حتى كادت ان تنقطع وبقيت الهناشر مرعى السوائم ومبيت الوحوش ، وتفاقم الامر ، وعيل الصبر وضعفت الطاقة وصارت ازمة الاعشار تأتى فى البلدان واكثر الهناشر مكتوب اسمه مقرونا بلفظ « ابيض » كناية عن عدم البذر ... وتذكر الناس بهذا الحال حديث خرافة ، وهو ان الفلاح فى آخر الزمان يمر بالمحراث فيضربه برجله ويقول له : « يا سبب فقرى » .

(2) قانياج ، **اصول نشاة الحماية** ، 61 ـ 68 .

فى استجلاب ماء زغوان بما كلف الميزانية 12 مليونا فرنكا فلما كانت سنة 1862 بلغ الدين 28 مليونا فرنكا ٠

آنذاك فكر خزنة دار فى الاقتراض من اوروبا (1) شانه فى ذلك شان الخلافة العثمانية ومصر اللتين توغلتا فى الاقتراض مما جعل الاوروبيين يسمون عمليات الاقتراض مال العمائم (2) ٠

وكاد الوزير خزنة دار ان يتمم الصفقة مع بنك انجيزى على اساس فائض بـ 12 فى المائة لولا معارضة قابض المال آنذاك نسيم شمامة (3) الذى خلف محمود بن عياد واصبح له ولصنائعه من التجار اليهود والافرنج ما يستطيع به اقراض الدولة التونسية فاقترح عليها 6 ملايين من الفرنكات بفائض 12 فى المائة ٠

وهنا ياتى دور خير الدين التونسى : فمانع من الاقتراض من اوروبا وحمل الباى وخزنة دار على ارجاء ما بيتاه وعلى الاقتراض المحلى من نسيم ٠

يقول خير الدين : « الافضل ان ندفع غاليا ثمن اقتراض نقترضه فى بلدنا ونحافظ بذلك على حريتنا من ان نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا » (4) ٠

وكان الوزير خزنة دار بالمرصاد فقبل على مضض وفى آخر تلك السنة 1862 تخلص من خير الدين واعضاده عن طريق تحوير وزارى استقال فيه خير الدين من وزارة البحر ورئاسة المجلس الاكبر وبقية مناصبه السياسية

---

(1) قانياج : **اصول نشاة الحماية** 190 ـ 159 . يلاحظ ان تركيا ومصر آنذاك كانتا تتخبطان فى ازمة مالية مماثلة مما ادى بهما الى الاقتراض من انكلترا بفائض 7 فى المائة .

(2) valeurs à turbans اقترض العثمانيون ما بين 1854 و 1863 اكثر من 750 مليونا فرنكا.

(3) نسيم شمامة : (1805 ـ 1873) يهودى تونسى صار كبير احبار اليهود وقابض المال من 1852 الى 1864 وفر من تونس عند اندلاع ثورة 1864 واستقر بفرنة حيث توفى وقد سرق 20 مليونا فرنكا من اموال الخزينة وقد كلفت الحكومة التونسية الجنرال حسين بقض نازلة وراثتـه .

(4) **اتحـاف** ،

والشرفية واستطاع خزنة دار فى السنة الموالية 1863 ان يقترض من اوروبا وبلغت آنذاك الكوارث الاوج ٠

يقول ابن أبي الضياف : « وفي شـوال من السنـة 1279/مـارس افـريل 1863 ، ظهر للباى فى مجلسه الخاص بموافقة اكثـره ان يبـدل الاقتـراض السابق الذى اصيبت به البلاد لاجل جلب الماء وطاعة الهوى ٠

وقد كان هذا الاقتراض من تجار يهود وغيرهم من سكان البلاد **بحيث ان فائدة الاقتراض لا تخرج من البلاد** فحوله الى تاجر فرنسى بباريـــس » (1) ويزيد المؤرخ التونسى توضيحـا :

« وكانت عقدة الاتفاق النحس فى الثامن عشر من ذى العقدة فى السنـة 1279/الخميس 7 ماى 1863 . ومجموع المال المستقرض يومئذ خمسـة وثلاثـون مليونا من الفرنكات والمقبوض منها على اقساط تسعة عشر وعشرون مليونـا وخمسة وعشرون الفا والبقية طارت بها العنقاء » (2) ٠

والحقيقة ان هذا الدين اصبح 39 مليونا فرنكا بدده خزنة دار فى اقل من سنة مما اضطره الى اثقال كاهل الشعب بالضرائب فضعف فى المجبى من 36 ريالا الى 72 ريالا واندلعت ثورة على بن غذاهم ولكن ذلك لم يثنه عن اقتراض ثان سنة 1865 قدره 27 مليونا فرنكا لم يقبض منها خزنة دار الا عشرة ملايين واقدم اخيرا سنة 1867 على اقتراض ثالث بمائة مليون فرنكا لكن البنـــوك الاوروبية رفضت التورط فى هذا القرض ٠

وعلى كل فان خير الدين يزعم ان خزنة دار بدد ما بين 1862 و 1869 مـــا قدره ثلاثمائة مليون فرنكا وان الاراضى المزروعة اصبحت لا تتجـاوز ستين الف هكتار بعد ان كانت 000 150 سـنة 1862 ومليونا فى اول عهد المشير الاول(3)

---

(1) **اتحـاف** ، V ، 96 .

(2) **اتحـاف** ، V ، 97 .

(3) **خير الدين ، رجل دولة ، مذكرات** ، 163 ـ 177 و 254 ـ 278 . والملاحظ ان الكوميسيون المالى وحد هذا الدين وبفضل خير الدين لم يعترف الا بـ 160 مليونا اى بالنصف . انظر ثانياج : **اصول نشأة الحماية** ، ص 383 .

ومواقف خير الدين من الوضع المالي والاقتصادي للبلاد التونسية ترجع الى ما ابعد من 1862 ، سنة تخليه عن الحكم بل الى قضية محمود ابن عياد سنة 1852 عندما هرب هذا الاخير بصفته قابض المال للدولة بما قدره 60 مليونا فرنكا وكلف الباي خير الدين بتمثيله بباريس في هذه القضية ، ذلك ان ابن عياد تجنس عند هروبه بالجنسية الفرنسية وبقي خير الدين ثلاث سنوات بباريس ومثل تونس في اللجنة التحكيمية التي اشرف عليها نابليون الثالث وحيث ان خزنة دار كان مورطا مع ابن عياد فلم يستطع خير الدين التمكن من كل الوثائق الضرورية ولم يتمكن الا من استرجاع 24 مليونا فرنكا (1) وقد نشر في هذه النازلة 18 مذكرة باللغة الفرنسية (2) .

كذلك كان موقفه وهو بباريس من شان الاقتراض من فرنسا قصد توفير الاعانة العسكرية التونسية للخلافة العثمانية مدة حرب القرم (Crimée) فانه ماطل ورفض عقد الاقتراض لما يراه — على حد تعبير بيرم الخامس — من المضرة على القطر (3) .

يقول ابن ابي الضياف : « وهو [احمد باي] ينتظر خبر الغرض الذي وجه له امير اللواء خير الدين وتناقل خير الدين في ذلك لما راى فيه من الضرر الفادح في الحال والمآل والباي يحرضه ويغلظ له القول وهو مع ذلك يتثاقل اعتمادا على عقل سيده » (4) .

فنرى اذن ان الداعي القريب الاول لتأليف **أقوم المسالك** والتخلي عن الحكم هو معارضة خير الدين للباي ولخزنة دار في تطبيق السياسةالاقتصادية

---

(1) المصدر المذكور ، ص 22 .

(2) المصدر نفسه ، ص 21 .

(3) بيرم الخامس : **صفوة الاعتبار** ، II 49 — 50 ، **اتحاف** ، IV 156 : « وهو [احمد باي] يرى ان خير الدين يتساهل في الاقتراض » . و 187 « وكاتبه أبو محمد خير الدين من باريس في شان اقتراض المال المأذون فيه من ابن عمه [أحمد باي والضمير يعود على المشير الثاني محمد] له بان لا يفعل وقال لي : اكتب له « صبرنا على انفسنا خير من صبر الناس علينا » بهذا اللفظ وشكر خير الدين في عدم الاستعجال ، والعجلة والندامة فرسا رهان وانقذ بها البلاد من هاوية » .

(4) **اتحاف** ، IV 165 .

التى ادب الى هذه الازمة المالية الممهدة لاحتلال فرنسى اصبح شبحه يخيم على البلاد بتقدم الايام ·

ولقد احسن بيرم الخامس تصويرها باسلوبه الادبى قائلا : « فلو رايت ما عليه القرار للثت رعبا ولوليت منه الفرار من ذئاب تغتال وثعالب تحتال مجتهدة فى قلب الرحال وتشتيت الرجال وثعبان ثاغر فاه لابتلاع الاموال فياليها من حال يرثى لها من رام النزال » (1) ·

2) رحلات خير الدين الى اوربا

اذن استعفى خير الدين من كل مناصبه وسنه 40 سنة ·

يقول ابن ابى الضياف « واستعفى ابو محمد خير الدين من وزارة البحر ومن رئاسة المجلس الاكبر وأثر استعفاؤه فى العقلاء من اهل الايالة لانه لم يكن من سبب ظاهر فى السن ولا فى البدن اذ هو فى اطيب اوقات الشباب » (2) ·

واعتكف خير الدين بقصره مدة خمس سنوات الى تاريخ صدور **اقوم المسالك** يستخلص العبر من تجربته للحكم فى اطار نظام أساسه الحكم المطلق القهرى·

وحيث لم يكن ابعاده عن الحكم الا لامتناعه من الاقتراض من اوروبا فان الباى وخزنة دار لم يبعداه تماما عن الحياة السياسية (3) فكان يستشيراه فى نطاق المجلس الخاص للباى فى كبرى القضايا ومنذ اعلان **الدستور** سنة 1861 بعثه الباى فى مهمات ديبلوماسية وهى تسليم الاوسمة لرؤساء الدول الاوروبية الذين هنأوا الحكومة التونسية باعلان الدستور وواصل تكليفه بهذه المهمات بعد ابعاده عن الحكم ·

---

(1) بيرم الخامس ، **صفوة الاعتبار** ، II ، 36 .

(2) **اتحاف** ، V ، 96 . انظر ايضا **خير الدين رجل دولة** ، **مذكرات** ، 23 .

(3) بل ان الصادق باى عرض عليه وزارة الحرب سنة 1865 . « وقد كان الباى عرض وزارة الحرب على الوزير خير الدين فاعتذر واختار التخلى عن المباشرة وقبل اعتذاره . **اتحاف** ، VI ، 54 .

لهذا السبب كانت رحلاته الى العشرين بلدا التى تحـدث عنها فى **اقـوم المسالك** (1) مع الملاحظة انه زار قبل ذلك بلدين من هذه البلدان اكثر من مرة وهما تركيا وخاصة فرنسا التى زارها منذ 1846 صحبة المشير الاول احمد باى بصفته مباشرا لمصرف الدراهم ــ على حد تعبير ابن أبى الضياف ــ (2) واقام بها ثلاث سنوات من 1853 الى 1856 فى فضية محمود بن عياد .

والمطالع لكتاب **اقوم المسالك** يلمس صدى تعلق المؤلف بوصف المؤسسات السياسية والاقتصادية الاوروبية وحرصه على تقييد دخل ميزانياتها وخرجها فهو التونسى المبهر بالتوازن الاقتصادى الغربى والملتاع مما تردت فيه بلاده وغيرها من البلدان العربية الاسلامية من ازمات مالية اقتصادية .

وأدته تجربته التونسية البحتـة الى اليقيـن ــ شانه فى ذلك شان بقيـة المصلحين التونسيين فى منتصف القرن التاسع عشر ــ الى ان راس الداء كامن لا فى عوادى المناخ والاوبئة وانما فى نظام الحكم المطلق المسلط على البـــلاد ذلك النظام الذى فتح باب البلاء على مصراعيه للتسرب الاقتصادى الاجنبى ارضاء للشهوات وتشبها بالعظماء وميلا الى الاسراف .

لذلك تنزلت **المقدمة** التى عقدها لا **قوم المسالك** فى اطار عثمانى عام علما منه ان تونس هى صورة مصغرة للخلافة التى تربطها بها اواصر عدة وحامت حول ضرورة معالجة هذا الداء وهو حكم الاطلاق المتازم . فما هو محتوى هذه المقدمـــــة ؟

* * *

---

(1) انظر عن هذه الرحلات ، **المقدمة** ، طبعتنا ، تعليق (12) . و **خير الدين ، رجل دولة** ، ص . 23 ــ 24 .

(2) **اتحـاف** ، IV ، 97 .

تحليل مقدمة أقوم المسالك

أول ما يلفت انتباه المطالع لهذه المقدمة هو انها تحليل ذاتي للحضارة الاسلامية . فخير الدين في حديثه عن الحضارة العربية الاسلامية وفي احالاته على الحضارة اليونانية والرومانية والاوربية يعتقد اعتقادا راسخا ان الرابط الذي يربط بين كل هذه الحضارات انما هو التمدن : في هذا المحيط تنزلت لديه قضية اصلاح نظام الحكم بالبلدان العربية الاسلامية وقضية الاقتباس من الغرب في القرن التاسع عشر ، بالنسبة لمجتمع اقر اهله وغير اهله بما هيمن عليه من تراجع وانحطاط .

ومنذ الصفحات الاولى من المقدمة يبسط خير الدين هاتين المشكلتين :

« ان الباعث الاصلي على ذلك (يعنى تأليف كتابه) امران آيلان الى مقصد واحد :

احدهما اغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الأمة الاسلامية وتنمية اسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمهيد طرق اسباب البطالة واساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الامن المتولد منه الامل المتولد منه اتقان العمل المشاهد في الممالك الاوروبية بالعيان وليس بعده عيان .

ثانيهما تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى ان يهجر وتآليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر ... » (1) .

---

(1) المقدمة ، طبعتنا ، 89 ـ 90 .

فقد حدد منذ البداية برنامجه وهو حسن الامارة وضرورة الاقتباس من الغرب في حدود الشريعة الاسلامية كما نص منذ البداية على من سيضطلع بانجاز هذا البرنامج من المسلمين سواء أكانوا من رجال السياسة أم من رجال الدين داعيا في الآن نفسه الاوربيين الى ان يكفوا عن تشككهم في حسن استعداد المسلمين للنهضة والاصلاح ٠

ولئن كانت تجربته تونسية بحتة ولئن كان قوى الشعور بالانتماء الى وطن وهو تونس فانه من اجل ذلك ورغم ذلك ما انفك يعالج القضايا التى أثارها في مقدمة كتابه في اطار الامة الاسلامية المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية، ذلك انه يعتقد ـ شانه في هذا شان كافة المصلحين التونسيين في عصره ـ ان الايالة التونسية جزء لا يتجزأ من الخلافة العثمانية من صالحها ان تحرض على توطيد الاتصال بها والا ـ وهي على ما تردت فيه من تراجع ـ كانت فريسة للغرب القوى المتحفز للاستعمار ٠

ـ فما هو أولا موقفه من الخلافة العثمانية ؟

أ) خير الدين والخلافة العثمانية

1) وطنية خير الدين التونسي

قبل ان نحدد موقفه من هذه الخلافة وما يرتئيه لها من اصلاح ، يجدر بنا ان نرفع التباسا تورط فيه بعض المؤرخين ٠

فقد زعم بعضهم ان خير الدين مملوك عثمانى خدم البايات التونسيين ثم انفصل عنهم ليخدم السلطان عبد الحميد الثانى شانه في ذلك شان الربان كان يقود سفينة تونسية ثم اصبح ـ بحكم الارتزاق ـ يقود سفينة عثمانية (1) ٠

ويرى بعضهم ان خير الدين كان « عثمانيا قلبا ولحما ودما » (2) اذ كان يعتقد ان المسألة التونسية جزء لا يتجزأ من المسألة الشرقية وان لا نجاة لتونس الا في ظل الخلافة العثمانية ٠

---

(1) انظر : C. Brown, the Surest Path, p. 35

(2) (نص مرقون) A. Bouhdiba : A la recherche des normes perdues, Tunis 1969· p, 9. ''Il était ottoman jusqu'à la moelle.''

ويكفي ان نرد على الزعم الثانى بان نذكر قائله بان هذه التهمة ان صحت ينبغي اذن ان تلصق بكل المصلحين التونسيين الذين كانوا يعتقدون نفس الاعتقاد فابن أبى الضياف وبيرم الخامس ومحمد السنوسى وسالم بوحاجب الخ ... عقدوا فصولا فى كتبهم للدعـوة الى هذا المـوقف وهـو ضـرورة الارتباط بالخلافة العثمانية لرد غائلة الاستعمـار الاوربى (1) . وما الجامعـة الاسلامية التى اراد بعثها جمال الدين الافغانى فى الربع الاخير من القـرن التاسع عشر الا تدعيم لهذه الدعوة .

واتهمت فئة ثالثة خير الدين بانه عندما باع املاكه العقارية وخاصة هنشيـر النفيضـة (100.000 هكتـار) (2) للشركـة الفرنسيـة بمرسيليا سنـة 1880 وعندما منح شركة فرنسية رخصة اقامة سكة حديدية تـربط بين تـونس والجزائر قد مهد للاحتلال الفرنسي .

ولقد رد خير الدين نفسه على ادعاء خصومه مبينا ان منحه رخصة سكـة الحديد الرابطة بين تونس والجزائر لم يوافق عليها الا بعد ان عجزت الشركات الانقليزية والايطالية عن الايفاء بعهودها مع الملاحظة انه اشترط على كل هذه الشركات ان لا تتجاوز فى بسط هذه السكة الحدود التونسية ولا يمكن بحال الترخيص لها بتجاوزها الا بعد اذن السلطان العثمانى ثم انه تخلى عن الحكم سنة 1877 دون ان يبت فى القضية والذى منـح الـرخصة دون استشـارة السلطان انما هو خلفه مصطفى ابن اسماعيل (3) .

ويعلق خير الدين قائلا :

« وبعد ، فليس مد سكة حديد اخرى او عدم مدها هو الذى كان ليقـرر نهاية الصراع ، ذلك ان الفرنسيين تم لهم احتلال تـونس فى ايـام قـلائل بانزال جيوشهم بطبرقة وبنزرت وباجتياز الحدود من جهـة جبـال خميـر

---

(1) **اتحاف** ، VI ، 13 ـ 30 . [علاقة تونس بالدولة العثمانية] .

(2) ضيعة كان يملكها عرش اولاد سعيد بالساحل واغتصبها منهم أحمد باى سنتى 1840 و 1850 وأهداها الصادق باى لخيرالدين سنة 1871 مكافأة له على الرجوع بالفرمان القاضى بجعل الحكم وراثيا فى العائلة الحسينية .

(3) **خير الدين رجل دولة ، مذكرات** ، 43 ـ 50 .

وسهول تبسة دون ان تعير اهتماما بسكة الحديد التي ما زالت آنذاك بصدد البنـــاء » (1) ·

واما في خصوص بيع املاكه للشركة الفرنسية (ثلاثة قصور بتونس ودار بحمام الانف وغابات زيتون وهنشير النفيضة) فانه لم يبعها الا بعد ان كان عرضها على التونسيين بخصم 10 في المائة من الثمن الذى يقترحه الاوروباويون ولكن مصطفى ابن اسماعيل كان حريصا على اغتصاب كل املاك خير الـدين لحسابه الخاص دون ان يدفع درهما واحدا (2) ·

وهناك فئة رابعـة واخيـرة من المـؤرخين ـ وان كانت احسنت تنزيـل اصلاحات خير الدين فى اطارها التاريخي الاقتصادى الصحيح ـ فانها ذهبت الى الاعتقاد ان خير الدين بترجمته **مقدمة أقوم المسالك** الى الفرنسية لم يكن له من هم « الا ان يهيىء المجتمع التونسى لان يهضم النظام الراسمالى وبالتالى ان يسهل عمل الجالية الاجنبية » (3) ·

ولئن كنا نوافق اصحاب هذا الراى على تحليلهم للوضع الاقتصادى الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر بالمغرب فانا نعتقد ان خير الدين التونسى كان حريصا على اتباع سياسة اساسها التسوية والتعادل فـى منح الامتيازات للاجانب بتونس سواء أكانوا انقليزيين أم فرنسيين أم ايطاليين بل ان اصل تخليه عن الوزارة الكبرى يرجع الى رفضه ان تكون الافضلية للفرنسيين فى التمتع بالامتيازات والرخص التى تمنحها الحكومة التونسية (4) ·

ومهما يكن من امر فان خطة الاحتـلال الفـرنسي لتـونس لم تسطر بين عشية وضحاها وقبل سنة او سنتين بل ترجع اصولهـا ـ كمـا بينـا ـ الى اوائل القرن التاسع عشر ·

---

(1) نفس المرجـع 45 ـ 46 .

(2) نفس المرجـع 47 .

(3) عبد الله العروى ، **تاريخ المغرب** [الكبير] 293 .

(4) الرئيس الحبيب بورقيبـة : خطاب عـن خير الدين بمناسبة ارجاع رفاته الى تونس فى ذكرى يوم الشهداء **جريدة العمل** 10 ـ 4 ـ 1968 (خطاب يبرز فيه الرئيس موقف خير الدين ويدافع عن وطنيته التونسية) .

واخيرا نسوق حجة لغوية شكلية فخير الدين لم يفتنا في مذكراته يتحدث عن تونس باعتبارها « وطنه المتبني » .

اما معاصروه من التونسيين وعلى رأسهم ابن أبي الضياف فيسمونه دائما وأبدا وبدون استثناء « **خير الدين التونسي** » ولا نعلم انهم اضافوا نسبة (التونسي) لاحد سواه من المماليك الذين ابلوا البلاء الحسن في خدمة تونس كالجنرال حسين ورستم وغيرهما ...

2) الاصــلاح في إطار عثمـــاني

على ضوء ذلك ما هو موقف خير الدين التونسي من الخلافة ؟.

ـ هو موقف جميع النخبة المفكرة والطبقات الشعبية التونسية من الباب العالي والاستانة .

يقول خير الدين :

« لقد كنت مؤمنا راسخ الايمان ان المملكة التونسية ينبغي ان تجد في الروابط التي تربطها بالخلافة العثمانية امنع حصن يصونها من اطماع الدول الاوروباوية المختلفة وعلى مر الزمن سواء أكنت مواطنا أم موظفا بسيطا أم وزيرا أكبر فاني لم انفك أؤيد حقوق تركيا على تونس وأنصح بايات تونس باقرار الروابط مع الامبراطورية العثمانية وتوطيدها » (1) .

وهو يعتقد : « ان هذا الارتباط ضمان للاستقلال فما دامت الخلافة قائمة فان الايالات التابعة لها لن تخشى شيئا لان كيانها رهين حل المسألة الشرقيــة » (2) .

ورغم محاولات الانفصال عن تركيا من بعض البايات (3) فهو يرى في السفارات التي وجهتها الحكومة التونسية الى الاستانة منذ 1827 (واقعة

---

(1) خير الدين ، رجل دولة ، مذكرات ، 38 .

(2) نفس المرجع ، 203 .

(3) يصنف خير الدين التونسي الى صنفين : الباي وحاشيته وبلاطه وهمهم الاستقلال عن تركيا لارضاء الشهوات وسياسة الاسراف دون رقيب والاغلبية الساحقة من الاهالي والموظفين الذين كانوا يؤمنون بالارتباط بالخلافة ولا ادل على ذلك من ثوراتهم سنة 1864 و 1881 منادين باسم السلطان . انظر مذكرات ، 94 .

نافرين) الى سنة 1876 ـ وعددها 18 (1) ـ حجة بليغة على ما يربط الايالة بالآستانة من اواصر متينة (2) ٠

ولنذكر بان العلاقات بين البلدين كانت تتمثل في ان تونس ولاية تفويض يحكمها وال يزكي تسميته السلطان بفرمان التولية وان الخطبة والسكة باسم السلطان وان تونس تقدم مددا من العسكر كلما طلبته منها الخلافة وان الجيش مكون من الاتراك وكل ما طرأ من تغيير هو انه ابتداء من 1837 أصبح الولاة ينتخبون من العائلات التركية التي ابلت البلاء الحسن كالمراديين وان الباي الحسيني حمودة تحصل على لقب باشا في 1780 وان أحمد الاول تحصل على لقب مشير في 1839 وان الجيش اصبح تونسيا ابتداء من (1835) (3) ٠

ولقد اعان خير الدين بسفارتيه في 1864 و 1871 على توطيد العلاقات خاصة بتحصله على فرمان 1871 ٠

ولئن حرص خير الدين على ربط تونس بالخلافة فهو لم يغب عن ذهنه اعتراض بعضهم « غريق متمسك بغريق » فلقد كان يعلم علم اليقين ان المسألة الشرقية بلغت اوج التازم فبعد واقعة نافرين (1827) وحرب القرم (1854 ـ 1856) خرجت تركيا من الحرب كاهزل ما تكون واستعداد فرنسا لحفر قنال السويس (1859) الذي سيفتح في 1869 جعل انقلترا تفكر في تبديل سياستها التقليدية نحو تركيا والتهيؤ للاستيلاء مباشرة على مصر (4) ٠

اضف الى كل ذلك الديون التي تردت فيها تركيا ومصر وتدخل فرنسا العسكري في لبنان (1860) وظهور حزب العثمانيين الجدد (1865) ٠

رغم كل هذه العوائق ومن اجلها ، كان خير الدين التونسي يرى ان الاصلاح ممكن « وان وضع الخلافة العثمانية وان كان سيئا فهو لا يدعو الى

---

(1) قام ابن ابي الضياف بسفارتين ، الاول في 1830 والثانية في 1842 وقام خير الدين بثلاث في 1859 ـ 1864 و 1871 .

(2) **مذكرات** ، 195 ـ 198 و 300 ـ302 .

(3) نفس المرجع ، 192 ـ 198 .

(4) قد كانت سياسة خديوي مصر اسماعيل (1863 ـ 1879) سياسة اساسها الديون وفتح مصر للراسمال الاجنبي مما جعله يرضى باقامة المجالس المختلفة في بلاده وهو امر مانع خير الدين من وجوده بتونس ، **مذكرات** ، 79 .

اليأس وان العلاج متوفر وانه رهين مشيئة الامراء التابعين للخلافة حتى يخرج الى خير الانجاز » (I) ·

وهذا ما جعله يعرض برنامجا اصلاحيا فى **مقدمة أقوم المسالك** ·

ب) برنامج خير الدين الاصلاحي

نتيجة لتجربته التونسية البحتة ولايمانه الراسخ بضرورة الارتباط بالخلافة العثمانية ولرحلاته ومشاهداته بالبلدان الغربية المختلفة انتهى خير الدين التونسي الى التساؤل عن اسباب تأخر المسلمين وتقدم الغربيين فعالج فى **مقدمة اقوم المسالك** مشاكل ثلاث حاول ان يجد لها حلولا وهي ضرورة الاقتباس عن الغرب المتحضر مدعما ذلك بالحجج النقلية والعقلية ووجوب تغيير نظام الحكم المطلق السائد فى بلاد المسلمين على أساس احياء القيم الاسلامية الخاندة وجعلها ملائمة للعصر مع الالحاح على ان هذين الاصلاحين يرميان الى غرض اسمى واهم وهو ضرورة الخروج بالمجتمع العربى الاسلامى من مجتمع تقليدى متقادم مهدد بالانهيار والابتلاع من قبل الغرب المستعمر الى مجتمع رأسمالى عصرى أصيل ·

فعلى هذا الاساس ، كان منطلق التفكير عند خير الدين الوضع الاقتصادى المتازم بتونس التى هى صورة مصغرة للخلافة العثمانية والغاية التى يرمي اليها هى اصلاح هذا الوضع عن طريق التنظيمات السياسية وفى نطاق شريعة اسلامية متجددة ملائمة لاحوال العصر ·

1) ــ ضرورة الاقتباس عن الغرب

أ) جواز الاقتباس :

واذ بات عنده من الثابت ان تأخر المسلمين أصبح لا جدال فيه عمد فى كتابه **أقوم المسالك** الى تحليل اسباب التقدم الغربى مدعما ذلك بعشرين انموذجا اوربيا (العشرين بلدا التى وصفها) ومقدما لذلك بمقدمة افتتحها

(I) نفس المرجع ، 160 .

بفصل هو من الجرأة والواقعية بمكان وهو مطلب ما يسوغ موافقة غير المسلم في الافعال المستحسنة فمنطلق الاصلاح عنده المقارنة والحوار والتفتح مذيلا هذه المقدمة بفصلين هامين وهما « التمدن الاورباوى » و « تلخيص المكتشفات والاختراعات الاوروبية » .

فالقضية عنده هي التمدن اولا وآخرا وهو بمثابة الحكمة « والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها » (1) ومن سيضطلع بانجاز هذا التمدن هم رجال السياسة ورجال الدين من المسلمين لذلك عمد في تقرير هذه الضرورة الى حجج عقلية ونقلية :

يقول خير الدين : « لا يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا ، على قاعدة محكمة البناء الا بمعرفة أحوال من ليس من حزبنا لا سيما من حف بنا وحل بقربنا » (2) .

مع الاشارة الى ما كانوا عليه في العهد القديم وبيان الوسائل التى ترقوا بها في سياسة العباد ، الى الغاية القصوى من عمران البلاد » (3) .

وهو لا ينفك يحذر المسلمين من مغبة الاعراض عن الاقتباس قائلا : « تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى ان يهجر وتآليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر . حتى انهم يشددون الانكار على من يستحسن شيئا منها **وهذا على اطلاقه خطأ محض** » (4) .

ويورد هنا حججا نقلية عديدة تدحض هذا الزعم وهذا الخطأ في التفكير نقتصر على واحدة منها :

« وفي **سنن المهتدين** للعلامة المالكى ما نصه : « ان ما نهينا عنه من اعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا اما ما فعلوه على وفق الندب

---

(1) المقدمة ، طبعتنا ، 90 .
(2) نفس المصدر ، 82 .
(3) نفس المصدر .
(4) نفس المصدر ، 90 .

او الايجاب والاباحة فانا لا نتركه لأجل تعاطيهم اياه لان الشرع لم ينـه عن التشبه بمن يفعل ما اذن الله فيه » (1) .

ثم يورد حجة تاريخية معتمدا على السلف الصالح :

« واذا جاز للسلف الصالح اخذ مثل المنطق من غير اهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما رأوه من الآلات النافعة حتى قال الغـزالى : من لا معرفة لـه بالمنطق لا يؤتمن بعلمه فاى مانع لنا اليوم من اخذ بعض المعارف التى نـرى انفسنا محتاجين اليها غاية الاحتياج فى دفع المكائد وجلب الفوائد ؟ » (2) .

وحيث ان القضية عنده هى التمدن فهو يدعو المسلمين الى تجاوز الحواجز الدينية الضيقة ، هو يدعوهم الى ما نسميه اليـوم بـ « التفتـح » « وكـل متمسك بديانة وان كان يرى غيره ضالا فى ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فى ما يستحسن فى نفسه من اعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الافرنجية فانهم ما زالوا يقتدون بغيرهم فى كل مـا يـرونه حسنـا من اعماله حتى بلغوا فى استقامة نظام دنياهم الى ما هو مشاهد وشـأن الناقـد البصير تمييز الحق بعيار النظر فى الشيء المعروف عليه قولا كان او فعلا فـان وجده صوابا قبله واتبعه سواء كان صاحبه من اهل الحق او من غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال » (3) .

ب) ماذا نقتبس ؟

ويتضح من هذا النص ان خير الدين لا يدعو الى اقتباس ما يوجد فى الدين المسيحى وانما ما يوجد فى التمدن الافرنجى من « مصالـح دنيـوية » اذ ان الدين المسيحى دين تبتل وزهد فصل منذ نشأته بين الدين والدنيا .

ولئن حرص على الا يقع فى المفاضلة بين الاديان فانه اضطر اليها اضطرارا حتى يطمئن العلماء ورجال الدين فهو يبدأ أولا بالتذكير بان الامم الاوروبية لم تعرف التمدن فى اول تاريخها : « ان الحالة الراهنة فى ممالك اوروبـا لم تكن ثابتة لها من قديم الزمان لانها كانت بعد هجوم البـرابرة وسقـوط الدول

(1) نفس المصـــدر ، 92 .
(2) نفس المصـــدر ، 91 .
(3) نفس المصـــدر ، 90 .

الرومانية سنة اربعمائة وست وسبعين مسيحية على أنظم حال من التوحش والاعتداء والجور آخذة فى حركة السقوط التى هى أسرع من الصعود طبعا ولم تزل فى ربقة الرق للموكها وكبراء الأمم الجائرة المسمين بالنوبليس الى زمن ولاية الامبراطور شارلمان ملك فرنسا ... ثم بعد وفاته رجعت أوربا الى غياهب جهالتها وظلم ولاتها » (1) .

ثم يثنى بحجة يرد فيها على ابن خلدون وبعض فلاسفة اوروبا فى القرن الثامن عشر «ولا يتوهم ان اهلها (اوربا) وصلوا الى ما وصلوا اليه بمزيد خصب او اعتدال فى اقاليمهم اذ قد يوجد فى اقسام الكرة ما هو مثلها او احسن » (2) وينتهى الى الدين المسيحى الذى لا يعزى له تقدم اوربا : « ولا ان ذلك من آثار ديانتهم اذ الديانة النصرانية ولو كانت تحث على اجراء العدل والمساواة لدى الحكم لكنها لا تتداخل فى التصرفات السياسية لانها تأسست على التبتل والزهد فى الدنيا حتى ان عيسى عليه السلام كان ينهى اصحابه عن التعرض لملوك الدنيا فيما يتعلق بسياسة احوالها قائلا : انه ليس له ملك فى هذه الدنيا لان سلطان شريعته على الارواح دون الاشباح . والخلل الواقع فى ممالك البابا كبير الديانة النصرانية لامتناعه فى الاقتداء بالتراتيب السياسية المعتبرة فى بقية الممالك الاوروباوية دليل واضح على ما ذكرناه» (3) .

تجره هذه المقارنة الى تفضيل الدين الاسلامى على المسيحى : « ان الشريعة الاسلامية كافلة بمصالح الدارين ضرورة ان التنظيم الدنيوى اساس متين لاستقامة نظام الدين » (4) .

فعلى ضوء ذلك وبعد دفع هذه الاحترازات ماذا نقتبس ؟

ينبغى ان نقتبس حسب خير الدين تنظيماتهم : « المؤسسة على العدل السياسى وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الارض بعلم الزراعة والتجارة وملاك ذلك كله الامن والعدل الذان صارا طبيعة فى بلدانهم » (5) .

---

(1) نفس المصدر ، 97 .

(2) نفس المصدر ، 97 .

(3) نفس المصدر ، 97 . **اتحاف** ، I ، 32 ، انظر فى قضية الفصل بين الدين والسياسة فى الديانة المسيحية : Fustel de Coulanges, *La Cité antique*, Paris 1864, livre V, chap. III.

(4) نفس المصدر ، 3 .

(5) نفس المصدر ، 98 .

يقول خير الدين :

« هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون ان نتقدم في المعارف واسباب العمران المشاهدة عند غيرنا وهل يتيسر ذلك بدون اجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسس على دعامتي العدل اللذين هما اصلان في شريعتنا » (1) .

اما محتوى الاقتباس واتجاهه على الخصوص فكتاب **أقوم المسالك** يشكل مادته : ولنقتصر على الاشارة الى ان الثورة الفرنسية التي اندلعت سنة 1789 ـ والثورة الصناعية التي ازدهرت في منتصف القرن التاسع عشر وما مهد لهما من احداث فكرية وحضارية وما نتج عنها من تطور وتقدم كل ذلك هو الانموذج الذي يدعو خير الدين التونسي الى الاقتباس عنه والاهتداء بهديه موضحا المنهج الذي ينبغي أن يعتمد .

ج) كيف نقتبس ؟

لذلك فهو يرفض رفضا باتا ان ينقلب الاقتباس الى تقليد اعمى للغرب ويندد بالمحاولات التي جنح اليها بعضهم في الخلافة العثمانية .

يقول خير الدين ردا على من يسميهم « حزبا من المسلمين مع الرعايا من غيرهم » (2) :

« انه مبدئيا من المحال نقل مؤسسات بلد ما الى بلد آخر حيث تكون فيه طبائع البشر مغايرة وكذا اخلاقهم وتربيتهم وظروف مناخهم (3) .

ولئن فشل هؤلاء المقلدون فذلك لانهم حسب خير الدين « لم يجنحوا الى اصلاحات جوهرية تتلاءم والحاجات الحقيقية للبلاد وطبائع سكانها » (4) .

كما انه يرفض رفضا باتا مطلب اوروبا الرامي الى هدم الذاتية العربية الاسلامية وهدم القضاء والعدالة الاسلاميين باحلال مجالس وقوانين اوروبية

---

(1) نفس المصدر ، 95 ـ 96 .

(2) نفس المصدر ، 143 .

(3) نفس المصدر ،

(4) نفس المرجع والصفحة . (مذكرات) .

بدعوى ان المحاكم الاسلامية غير قادرة على الاضطلاع بمسؤولياتها نظرا الى ما لحقها من جمود وتحجر حتى اصبحت لعبة فى أيدى حكم الاطلاق (1) .

وهو اخيرا يرفض رفضا باتا موقف السلفيين وخاصة العلماء الذين يعارضون كل تفتح على الغرب وحوار معه منادين بالرجوع الى السلف الصالح و « معرضين عن استكشاف الاحوال الداخلية واذهانهم عن معرفة الخارجية خلية » (2) .

اما الحل الذى يرتضيه فهو الاقتباس فى حدود الشريعة الاسلامية و « الغرض من ذكر الوسائل التى اوصلت الممالك الاوروبية الى ما هى عليه من المنعة والسلطة الدنيوية أن نتحير منها ما يكون بحالنا لائقا ولنصوص شريعتنا موافقا » (3) .

وحيث ان محتوى الاقتباس هو المعارف والتنظيمات الاوروبية المؤسسة على العدل والحرية وهما اصلان فى الشريعة الاسلامية فان ذلك يجر خير الدين الى معالجة قضية احياء القيم الاسلامية التى اندثرت بظهور بدعة البدع : الحكم المطلق القهرى .

2) اصلاح نظام الحكم

ان ضرورة الاقتباس عن الغرب جرت خير الدين ايمانا بهذه الضرورة من جهة وطمأنة للمحافظين من جهة أخرى الى ان ينكب على دراسة الحضارة الاسلامية التى ازدهرت لما كانت الشريعة أساسا لها وتدهورت لما فرطت فى هذه الشريعة وفى قيمها .

أ) الشريعة الاسلامية صالحة كاملة

فهو يعتمد ان الشريعة الاسلامية رائعة كاملة سرمدية (4) ولقد حققت فى

---

(1) **المقدمة** ، طبعتنا ، 147 «ادعاء بان معارف حكام الاسلام غير كافية لحفظ حقوق رعاياهم » انظر في هذا الصدد : عبد الله العروى **تاريخ المغرب** (الكبير) ، 315 (هدم الكيان القومى واحلال الكيان الاوروبى محله) .

(2) **المقدمة** ، طبعتنا ، 83 .

(3) نفس المصدر ، 85 .

(4) **خير الدين ، رجل دولة ، مذكرات** ، 127 .

80 أو 90 سنة ما لم يحققه الرومان فى ثمانية قـرون (1) ويرى ان العالـم العربى الاسلامى أخذ فى التراجع لما انقسم الى دول ثلاث : الدولة العباسية ببغداد والمشرق ، ودولة الفـاطميين بمصـر وافريقيـا ، ودولـة الأمـويين بالاندلس (2) •

وهنا طمانة للعلماء المحافظين يستشهد على هذا التقدم بشهـادة عـالمين فرنسيين دروى Duruy وزير المعارف وسيدليو Sédillot استاذ التاريخ بالكوليج دى فرانس (3) •

ثم ان سلاطين آل عثمان تلافوا أمر هذا التراجع باحترامهم للشريعة (4) •

الا ان هذه الخلافة العثمانية هي ايضا تراجع أمرها لما قصـرت فى اجـراء المصالح الملكية على مقتضى الشرع والقوانين السياسية (5) فنتج عـن ذلك أمران هائلان وهما تدخل الانكشارية من جهة وتداخل الاجانب من جهة اخرى فى أحوال المملكة فكان افساد السياسة العثمانية بما يناسب اغراضهم •

واخيرا تدارك امر الخلافة العثمانية السلطان محمود (1839 م.) وولداه عبد المجيـد (1861 م•) وعبد العزيـز (1876 م•) بتعويض الاول عساكـر الانكشارية بالعسكر النظامى وضبط الثانى للسياسات الشرعية بالتنظيمات الخيرية سنة 1839م• (6) •

هذه نظرة خير الديـن الى تطور التمـدن الاسلامى عبر العصور فهو رهين تطبيـق الشريعـة •

---

(1) نفس المرجع ، 128 **المقدمة** ، طبعتنـا ، 119 : **اتحاف** ، 17 ، 236 ، يروى ابـن ابى الضياف قول القنصل البريطانى وود Wood « ان اردت دينكم الذى كان عليه سلفكم وبه هدم فى ثمانين سنة ما بناه الرومان فى ثمانمائة سنة فهو المطلوب منكـم وان اردت تلوين فتاوى الفقهاء على حسب اغراض الملك فمعاذ الله ان يكون هذا دينا » .

(2) **المقدمـــة** ، طبعتنـا ، 13 .

(3) نفس المصدر ، 120 ــ 135 . لذلك قرظ رجال الدين كتاب **اقوم المسالك** : « يسرنا أن يتمثل مجيبا لمن تشكك من أهل اوربا » رضوان ، انظر التقريظ 10 ــ « تعريب الاجانب بحـال شريعتنا المبرأة مما كانوا ينسبون اليها » الوتتانى ، انظر التقريظ 11 .

(4) نفس المصـــدر ، 136 .

(5) نفس المصـــدر ، 138 .

(6) نفس المصـــدر ، 138 ــ 139 .

ب) الغاء الحكم المطلق : الظلم مؤذن بخراب العمران

وان اعتراه التراجع فمرد ذلك حكم الاطلاق والظلم وخير الدين هنا متأثر الى حد بعيد بنظرية ابن خلدون فى العمران شأنه فى ذلك شأن ابن أبى الضياف (1) وسائر المصلحين التونسيين فى القرن التاسع عشر ·

يقول خير الدين :

« ومن تصفح الفصل الثالث من الكتاب الاول من مقدمة ابن خلدون رأى أدلة ناهضة على ان الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان وبما جبلت عليه النفوس البشرية كان اطلاق يدى الملوك مجلبة للظلم على اختلاف انواعه كما هو واقع اليوم فى بعض ممالك الاسلام ووقع بممالك أوروبا فى تلك القرون عند استبداد ملوكها بالتصرف المطلق فى عبيد الله من غير تقيد بقانون عقلى لمنافاته لشهواتهم ، ولا شرعى لعدم وجوده فى الديانة المسيحية (2) ·

ج) ضد الدكتاتورية

فهو يعتقد ان العمل بالرأى الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف (3) ويورد حكم الوزير الفرنسى تيارس على استبداد نابليون الاول الذى انقلب بعد أن توطد له الامر الى دكتاتور مجنون (4) ·

ويعقب خير الدين على تنديد الوزير الفرنسى بالدكتاتورية بالتنويه بما جبل له النصارى من حب العدل بشهادة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ قال : « تقوم الساعة والروم أكثر الناس » ولعل فى ذلك ردا على أحمد باى الذى كان معجبا بنابليون ايما اعجاب ويرى فيه قدرة تحتذى (5) ·

---

(1) اتحاف ، 1 مقدمة (متفرقات) .

(2) المقدمة ، طبعتنا ، 99 .

(3) مقدمة اقوم المسالك ، 111 .

(4) مقدمة اقوم المسالك ، 112 ــ 116 .

(5) مقدمة اقوم المسالك ، 116 .

ولئن أقر أن الدكتاتورية وجدت عند الرومان فانه ابرز انها كانت « لغاية محدودة وبشروط عندهم معهودة » (1) • ملاحظا ان دكتاتوريــة كرمويـل بانقلترا ونابليون بفرنسا كانت استبدادا مطلقا غير محدود بزمـان وحيث ابيحت الدكتاتورية للضرورة فهو يرى وجوبا للرجوع الى كشف حجب الحرية بعد زوال السبب (2) ولئن ختم بالدكتاتوريــة فلربما لانه يريــد أن يطمئن المحافظين ولم يقدس الغرب تقديسا ولم يدع الى تقليده في كل شيء وحتى في مساويــه مثــل الدكتاتوريــة (3) •

د) السياســة الشرعيــة ودور العلمــاء

وانطلق خير الدين من هذا القياس : « بما ان الشريعة الاسلامية اعطت احسن النتائج في الماضي فليس ثمة مانع البتة من ان تعطى نفس النتائج في الحاضر والمستقبل » (4) ملحاعلى احياء القيم الاسلامية في حدود مراعاة أحوال الوقت في تنزيل الاحكام (5) وهو عمل اخل به العلماء ورجال الدين في عصره عدا عالمين نوه بهما خير الدين أى تنويه • وهما شيخ الاسلام العثماني أحمـد عارف وباش مفتي المالكية التونسي ابراهيم الرياحي ، فقد دافعا عن التنظيمات الخيرية وخطبا بالجوامع والمساجد منافحين عنهــا •

فهو يعتقد ان مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور من أهم الواجبات شرعـا (6) •

ولا ينفك من تحذيرهم من التواطؤ مع رجال السياسة ومن عــدم تــوخي الاجتهاد في التشريع « وبيان ذلك ان ادارة احكام الشريعة كما تتوقف على العلم بالنصوص تتـوقف على معرفة الاحـوال التي تعتبـر في تنزيــل تلك

---

(1) المقدمــة ، طبعتنــا ، 225 .

(2) نفس المصـــــدر ، 227 . .

(3) ونحن لا نذهب مذهب الشيخ الفاضل ابن عاشور عندما قال وجعل خير الدين هذه النظرية في الحكم الدكتاتوري ختام مقدمته وفذلكة حسابه فكانت مبدأ للطريق الجديد الذي قرر هو وعصابته سلوكه لتحقيق برامجهم الاصلاحية ـ الفاضل ابن عاشور : **أركان النهضة** 14 .

(4) **خير الدين رجل دولة ، مذكرات** ، 136 .

(5) **المقدمــة** ، طبعتنــا ، 83 .

(6) نفس المصـــــدر ، 152 .

النصوص • نعم يعاب على العالم شرعا وعقلا التكلف فى الدين والتمحل فى النصوص الظاهرة فى خلاف ما اراد منها وارتكاب الاقوال الضعيفة ليوافق الاهوية والاغراض » (1) •

فالسياسة الشرعية التى يدعو اليها خير الدين ليست كما يتبادر الى ذهن المحافظين ، التقليد الحرفى الاعمى للسلف الصالح فهى تعتبر أساسا مراعاة احوال الوقت • ويورد خير الدين فى هذا المقام فقرات من رسالة شيخ الاسلام الحنفى التونسى محمد بيرم الاول (2) تحدد السياسة الشرعية تحديدا لو عمل به العلماء لما ترددوا فى ما ترددوا فيه من تحجر وجمود وانغلاق فهى : « **ما يكون الناس معه أقرب الى الاصلاح وأبعد عن الفساد وان لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحى ••• ولابن قيم الجوزية كلام حاصلة : أن امارات العدل اذا ظهرت بأى طريق كان فهناك شرع الله ودينه ••• ونقل ابن قيم الجوزية عن ابن عقيل مخاطبا لمن قال : لا سياسة الا ما وافق الشرع ؛ « إن اردت بقولك : الا ما وافق الشرع ، أى لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ؛ وإن اردت : لا سياسة إلا ما نطق به الشرع ، فغلط وتغليط للصحابة رضى الله عنهم** » (3) •

ويعتقد خير الدين معتمدا فى هذا على ابن قيم الجوزية : « أن الولاة خرجوا عن حدود الله الى انواع الظلم والبدع فى السياسة لأن العلماء الذين يفتونهم بظواهر النصوص ضيقوا ما وسع الله » (4) وينتهى خير الدين الى هذا التقرير : « وبناء على ما تقرر يظهر أن اللائق بأولئك الهداة أن يتوسطوا بين التفريط والافراط بحيث لا يبعدون من رجال السياسة بعدا يتسبب عنه تبعيد تصرف الولاة عن الشريعة » (5) •

---

(1) نفس المصدر ونفس الصفحة . انظر ايضا ملام ابن ابى الضياف على العلماء ، **اتحاف** ، 47 246 (تمنع شيخ الاسلام بيرم الرابع من حضور مناقشة عهد الامان) و 248 ـ 249 (استعفاء العلماء من الحضور فى ندوات شرح قواعد عهد الامان) **واتحاف** 7 ، 38 .

(2) **المقدمة** ، طبعتنا ، 154 .

(3) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(4) نفس المصدر ، 156 .

(5) نفس المصدر ونفس الصفحة .

هـ) الحكم المقيد بقانون

1) مبدأ سلطة الخليفة لا جدال فيه

وايمانا منه بوجوب الارتباط بالخلافة العثمانية فان خير الدين لا يدعو الى نظام معين من أنواع الحكم وهو على الاصح لا يصرح باسم نظام معين وانما الغالب على تفكيره وعلى تفكير معاصريه من المصلحين كالشيخ ابن أبى الضياف (1) مثلا انما هو التفكير فى توفير العدل والحرية « اللذين هما اصلان فى شريعتنا » .

لذلك يمكن تلخيص مذهبه السياسى فى هذه الجملة : يقول خير الدين « وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك فى كليات السياسة مع جعل المسؤولية فى ادارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة مراعى فيها حال المملكة أجلب لخيرها وأحفظ له » (2) .

وقد تصدى لدحض هذا الرأى جماعة من المحافظين فى تونس وفى الاستانة مدعين ان هذا التشريك حد من سلطة الخليفة لا مبرر له وقد كان ذلك سنة 1857 عند اعلان عهد الامان بتونس (3) وسنة 1879 عندما كان خير الدين صدرا أعظم بالاستانة (4) .

---

(1) **اتحاف** ، I ، المقدمة (متفرقات) الحكم المطلق ، والحكم المقيد بقانون ، الحكم الجمهورى .

(2) **مقدمة اقوم المسالك** ، طبعتنا ، 103 .

(3) **اتحاف** ، IV ، 249 ولما أتممنا شرح القاعدة الاولى (من عهد الامان) وهى قاعدة القواعد وقرأناها على الباى فى ذلك المجلس بدرت من بعضهم بادرة يغفر الله له فيها وهى ان قال « أى شيء بقى لسيدنا ؟ » .. فوجمنا لهذه البادرة الباردة فتكلم خير الدين وكان اثبت القوم جنانا وان شئت قلت وأقواهم ايمانا .
« نعم يبقى سيدنا ما بقي للسلطان عبد الحميد وما بقى لسلطان فرانسا وسلطانة بريطانية وغيرهم من سلاطين القانون » .

(4) **خير الدين رجل دولة ، مذكرات** ، 125 (سبب استقالة خير الدين من الصدارة العظمى سنة 1879 مرده معارضة العلماء لمشروعه الداعى الى الحد من سلطة الخليفة نفس المرجع 145 ـ 146 (كان الولاة فى صدر الاسلام وزراء تفويض ومنذ الخلافة العباسية وجد وزير تفويض وهو الوزير الاكبر ومعه وزراء تنفيذ كذلك اعتمدت الخلافة العثمانية الصدارة العظمى .

ويرد خير الدين على المعترضين عليه :

« لا يقال ان مشاركة أهل الحل والعقد للامراء في كليات السياسة تضييق لسعة نظر الامام وتصرفه العام لأنا نقول هذا التوهم يندفع بمطالعة الاحكام السلطانية للماوردي فانه قال عند بيان وزارة التفويض : « هي أن يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضائها على اجتهاده وليس يمتنع جواز هذه الوزارة فان الله تعالى يقول حكاية عن نبيه موسى عليه السلام : « واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري » فاذا جاز ذلك في النبوءة كان في الامامة أجوز » (1) .

على انه يوضح أن للخليفة أو الملك تصرفات ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد « كاجراء الخلطة السياسية والمتجرية مع الاجانب ونصب أرباب الخطط وتأخيرهم وتنفيذ سائر الأحكام ونحو ذلك من التصرفات التي هي عمل وحدة الآمر » (2) .

واتساء بما يجري في اوروبا يقترح ان يتلقى ابناء العائلة المالكة تعليما عاليا حتى يقع لهم التدرب على السياسة (3) . « فان المطلوب من الملوك ليس هو مجرد فصل النوازل الشخصية كما هو مشاهد في بعض الممالك الاسلامية ولا مباشرة جزئيات الادارة التي يمكن اجراؤها بغيرهم من المتوظفين وانما المطلوب منهم النظر في كليات الأمور » (4) .

2) اهل الحل والعقد او البرلمان

يبدأ خير الدين بالحجج النقلية والتاريخية فيذكر ان **المشورة** وتغيير المنكر من قبل أهل الحل والعقد هما : « من أهم أصول الشريعة الاسلامية » (5) وهو رأي ذهب اليه ابن أبي الضياف وتعمق في تحليله الا ان بينهما بعض الاختلاف في خصوص تغيير المنكر . فابن أبي الضياف يدعو الى الانكار باللسان ولا ينادي بالخروج على الامير الجائر وانما بالصبر (6) أما خير الدين

(1) مقدمة اقوم المسالك ، طبعتنا ، 108 .
(2) نفس المصدر ، 109 .
(3) نفس المصدر ، 204 .
(4) نفس المصدر ، 205 .
(5) نفس المصدر ، 99 ـ 103 ، 112 . وخير الدين وجل دولة ، مذكرات ، 141 ـ 142
(6) اتحاف ، 1 ، المقدمة ، 9 ـ 24 ، 49 .

فانه يذهب الى جواز خلع السلطان الجائر وتولية غيره من البيت الملكى عملا بما ورد فى القانون السليمانى (1) وولاؤه للعثمانيين يجعله يلح على أن تبقى الخلافة في سلالة العثمانين لا تخرج منهم لاسباب أهمها اختلاف أجناس رعايا الخلافة وأديانها فى عصره (2) ٠

ثم ان خير الدين يعطى لأهل الحل والعقد مفهوما عصريا : « لذلك وجب على الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات ونصب الأورباويون المجالس وحرروا المطابع فالمغيرون للمنكر في الأمة الاسلامية تتقيهم الملوك كما تتقى ملوك أوروبا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع ومقصود الفريقين واحد وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وان اختلفت الطرق الموصلة الى ذلك » (3) ٠

وتعترض خير الدين مشكلة انتخاب أهل الحل والعقد اى المجلس النيابى اتساء بما يجرى فى اوروبا فيقر ـ بناء على الوضع السائد فى الخلافة العثمانية ـ ان أهل الحل والعقد قد « لا يكونون منتخبين من الاهالى وذلك ان تغيير المنكر فى شريعتنا من فروض الكفاية وفرض الكفاية اذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقين واذا تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم » (4) ٠

الا انه فى فصل من مذكراته محرر فى سنة 1879 ينادى صراحة بالانتخاب ـ فى مفهومه الاوروبى ـ للنواب فى الولايات التابعة للخلافة (5) ٠

اما مهمة المجلس النيابى فتكون مراقبة اعمال الخليفة والوزراء والموظفين والاقتراع على الميزانية ٠

3) مسؤولية الوزراء والموظفين :

أما الوزارة عند خير الدين فهى وزارة تفويض لا تنفيذ كما بينا (6) واتساء بالماضى الاسلامى والحاضر الاوروبى فهو يقترح الحل الآتى : « واما مسؤولية

---

(1) مقدمة اقوم المسالك ، طبعتنا ، 103 .
(2) نفس المصدر ، 145 .
(3) نفس المصدر ، 102 .
(4) نفس المصدر ، 208 .
(5) خير الدين مذكرات رجل دولة ، 142 .
(6) مقدمة اقوم المسالك ، طبعتنا ، 104 ـ 107 .

الوزراء فمعناها ان يكونوا تحت احتساب مجلس الوكلاء مباشرة كما هو موجود في سائر الممالك الكونستيتوسيونية ما عدا الدولة الفرنسية اليوم فان وزراءها مسؤولون للملك وهو مسؤول للمجلس » (1) ·

ومن مشمولات الوزراء ، اختيار الموظفين واعوان الدولة بموافقة الخليفة او الملك ، معتبرين في هذا الاختيار مبدأ توزيع العمل حسب الكفاءة ·

ويقسم موظفي الخلافة العثمانية الى فرق ثلاث : « من يستحسنون ترتيب التنظيمات استحسانا صادقا » ومن « يجهلون مصالح التنظيمات » ومن « يؤثرون فوائدهم الشخصية » وهو يعتقد ان الفرقة الاولى من الموظفين هي الاجدر بالاضطلاع بتنفيذ أوامر الدولة (1) ·

فيظهر اذن من دعوته الى اصلاح نظام الحكم على الوجه الذي بينا انه من دعاة لامركزية الحكم والنظام النيابي في مجتمع ظهر فيه للعيان فشل الحكم المطلق المركزي فشلا ذريعا (3) ·

3) نحو مجتمع راسمالي عصري أصيل

أ) الحرية : تحديدها وحدودها

بناء على ما تقدم ، يتضح ان اصلاح نظام الحكم ان هو الا وسيلة ترمي الى اقامة العدل والحرية بين المواطنين ، والحرية هي بدورها اساس العمران ·

وعلى هذا الاساس ، نظر خير الدين الى الحضارة العربية ـ الاسلامية في عهد ازدهارها والى الحضارة الاوروبية المزدهرة في عصره فوجد ان الحرية هي دعامتهما (4) ·

---

(1) نفس المصدر ، 220 .

(2) نفس المصدر ، 161 ، **مذكرات** ، 144 .

(3) انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ، III ، **حكومة** ، 571 ـ 572 .

(4) مقدمة **اقوم المسالك** ، طبعتنا ، 206 « فالحرية منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الاوربية » .

وحيث كان همه وجوب الاقتباس من الغرب المتحضر فانه عقد فصولا لتحديد معنى الحرية فى اوروبا فتحدث عن الحرية الشخصية او المدنية « وهى اطلاق تصرف الانسان فى ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله وتحدث عن الحرية السياسية » وهى تطلب الرعايا التداخل فى السياسات الملكية والمباحثة فيما هو الاصلح للمملكة (I) .

الا انه اعتمادا على الواقع الحقيقى الموضوعى لبلدان العالم العربى الاسلامى فى عصره ، قد لا يمانع فى أن تسطر حدود لهذه الحرية السياسية :

« نعم من الواجب على مؤسس أصول الحرية السياسية اعتبار حال السكان ومقدار تقدمهم فى المعارف ليعلم بذلك متى يسوغ اعطاء الحرية التامة ومتى لا يسوغ » (2) .

ثم انه يرى وجوب التحرى فى اعطاء الحرية لجميع رعايا الخلافة العثمانية دون ميز ، اذ يوجد فيها من الاجناس والطوائف من تحدثه نفسه « بالتفصى عن سلطة الدولة العثمانية ... لذلك لا يمكن تأسيس مجلس منتخب من جميع الرعايا الآن ... وان ما ذكرناه لا يرفع عنها (اى الدولة العثمانية) وجوب الاجتهاد فى قطع تلك العوائق » (3) .

وبعد هذه الاحترازات ، يصدع خير الدين برأيه ، ردا على من يدعون ان بلدان الخلافة العثمانية لم تبلغ بعد سن النضج حتى تتمتع بالحرية .

« ثم لو سلم عدم القابلية للتنظيمات وان الأمة كما يزعمه أولئك القادحون بمثابة الصبى غير الرشيد الذى يلزم التقديم عليه فهل ينهض لهم دليل على جواز ان تكون تصرفات المقدم خالية من مراعاة مصلحة المقدم عليه وهل تتيسر تلك المراعاة بدون احتساب مؤسس على الشرع ؟ » (4) .

(I) نفس المصدر ، 207 . كما تحدث عن حرية المطبعة والراى والتعبير .

(2) نفس المصدر ، I58 .

(3) نفس المصدر ، I45 .

(4) نفس المصدر ، I59 .

ب) الحريــة شرط لازدهار الاقتصــاد

فالحرية ، شخصية كانت أم سياسية ، مآلها الأمن على الملكية الخاصة ومتى توفر الآمن فى مجتمع رأسمالى مثلما يدعو اليه خير الدين ازدهــر الاقتصاد وكان العمران . فالحرية هى الشرط الاول والاخير لكل ازدهــار اقتصــادى : « هذا وان من واجبات الممالك التى تنال الحرية ولو خصوص الشخصية ان يقابلوا تلك النعمة باظهار آثارها واستجناء ثمارها بتعاطى المعارف وانــواع الصناعات الراجعة الى الاصول الاربعة :

1 ـ الفــلاحـــة .
2 ـ والتجــارة .
3 ـ 4 ـ والاعمال البدنية والفكريــة .

وبهذه الاصول قوام السعادة الدنيوية المربية للهمة الانسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن نظام الجماعة حتى يكون المحترف مثــلا آمنــا من اغتصاب شىء من نتائج حرفته او تعطيله فى بعض احوال خدمته ، فما ينفع الناس كون ارضهم خصبة كريمة المنابت اذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع ومن ذا الذى يقدم حينئذ على ازدراعها ولضعف أمل الناس فى كثير من أراضى آسيا وافريقيا تجد اخصب مزارعهــا بــورا معطلــة ولا شك ان العدوان على الاموال يقطع الآمال وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الاعمال الى ان يعم الاختــلال المفضى الى الاضمحــلال » (1) .

اما وقد حدد الشرط الاساسى للخروج من التخلف ، فهو لا يرى حرجــا من ان يبنى اقتصاد المجتمع العربى الاســلامى على غــرار اقتصــاد المجتمــع الاوروبى الرأسمالى » :

ـ تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية .
ـ تعاضد الجمعيات المتجرية .
ـ الاقبال على تعلم الحرف والصنائع .
ـ تكوين الشركات الجمعية الرأسمالية .

---

(1) نفس المصــدر ، 210 .

ـ احداث البنوك ٠

ـ اقامة المعارض التجارية المحلية والعالميــة (1) ٠

وما قصد من حديثه عن اطوار التمدن الاوروبى والمكتشفات والاختراعـات والتعليم وخزائن الكتب (2) الا التنويه بما أنتجته الحرية فى المجتمع الاوروبى من عمران وحضارة ٠

ودرءا لاعتراض المنكرين لما يستحسن من اعمال الافرنج ، اخذ على نفسه منذ بداية مقدمة **اقوم المسالك** الرد عليهم مظهرا لهم ما سيبقى عليه المجتمع من تبعية اقتصادية ومن انحطاط فى سائر الميادين ان هو لم يعقد العزم على الخروج من التخلف (3) ٠

* * *

---

(1) نفس المصـــــدر ، 215 .

(2) نفس المصـــــدر ، 167 ـ 202 .

(3) نفس المصـــــدر ، 92 ـ 94 .

الخاتمـــة

ذلك هو تفكير خير الدين الاصلاحي ، فلقد كان منطلقه الـوضع المتـأزم بتونس وغايته السعي الى حل هذه الأزمة في إطـار الوطن أولا وفي إطـار الخلافة العثمانية ثانيا ٠

ولئن لم يتمكن من تحقيق كل برنامجه الذى كانت مقدمة **أقوم المسالك** تحوى أهم خطوطه فان تبوؤه المسؤوليات بتونس من 1870 الى 1877 وبالآستانة من 1878 الى 1879 مكنته من تحقيق جله ٠

وتبقى محاولات خير الدين التونسي سواء بتفكيره الاصلاحي السياسي أو بعمله معلما هاما في تطور التفكير في العالم العربي ـ الاسلامي في القرن التاسع عشر فهي بمثابة وعي حاد سديد لداء استفحل أمره منذ أوائل ذلك القرن وتمثل في انخرام مجتمع متقادم مستقر نتيجة التسـرب الاقتصـادى الاوروبي بتواطؤ مع السلط المسلمة القائمة فلما اهتدى خير الدين للـدواء الناجع كان « الرجل المريض » يلفظ النفس الأخير فكان مؤتمر برلين سنة 1878 وما تبعه من أحتلال تـونس ومصـر ٠ ولا أدل على عصـرية برنـامجه ومعاصرته من تبني الحركات القومية التونسية الموالية جل آرائه واعتباره بحق أبا النهضة الأول بتونس ٠

* * *

فهـــرس التقديـــم

المصادر والمراجع

- العربية
- الفرنسية
- الانقليزية

المصـــادر والمراجـــع (I)

باللغـــة العـــربيـــة

I) ـ المصـادر

بيرم الخامس : **صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار** ، ط· الاعلام بمصر ، 1302/1884 ج· II · ص · ص· 49 ـ 94 ، يتناول بيرم V ترجمة خير الدين وتاريخ اعماله مدة تقلبه فى شتى المناصب بالحكومة التونسية ·

السنوسى (محمد) : **الرحلة الحجازية** ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس ، نشر منه فصل : **الخبر عن اقامة التونسيين بالاستانة** ، **حوليات الجامعة التونسية** ، عدد 7 ، 1970 ، 79 ـ 111 ورد فيه الحديث عن رأى خير الدين فى الحكم المطلق والحكم الشورى ·

ابن أبى الضياف : 1) **اتحاف اهل الزمان باخبار تونس وملوك عهد الامان** ، 8 اجزاء ، تونس 1963 ـ 1966 (متفرقات ، IV ـ VIII) ·

يعتبر ابن أبى الضياف خير الدين زعيم الحركة الاصلاحية فى عصره ويؤازر مواقفه مؤازرة تامة ·

2) **من رسائل ابن أبى الضيـاف : تتمـة لاتحـاف اهـل الزمـان** ، نشر محمد الصالح مزالى ، الدار التونسية للنشر ، 1969 ، 95 ص· وهى 25 رسالة وجهها ابن أبى الضياف الى خير الدين لما كان الاخير مقيما بباريس فى شان النازلة بين الدولة التونسية ومحمود بن عياد (1854 ـ 1857) ·

كونتى (انطوان) : **احوال تونس قبيل الاحتلال من خلال رسائل كونتى لخير الدين** نشر محمد الصالح مزالى ، الدار التونسية للنشر ،

(I) التى اعتمدها المحقق وهى مرتبة ترتيبا أبجديا لاسماء الاعلام والدوريات بدون اعتبار للتعريف والكنية وابن ·

تونس 1969 ، 67 ص· ثمانى رسائل مؤرخة من 1877 الى 1879 وجهها كونتى الى خير الدين المقيم خارج تونس يعلمه فيها بما كان يجرى فى البلاد التونسية منذ استقالة خير الدين سنة 1877 ·

II) ــ ترجمة خير الدين ، مذهبه الاصلاحى

أ) ــ الكتب

أمين (أحمد) : **زعماء الاصلاح فى العصر الحديث** ، القاهرة 1948 ، ص· ص· 146 ــ 183 ، يغلب عليه الطابع الادبى ·

الزركلى (خير الدين) : **الاعلام** ، ط· 2 ، بيروت 1957 ·

الشملى (المنجى) : **خير الدين باشا** ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1968 ، 30 ص· دراسة تعرف بخير الدين وبأعماله ، كتبت بمناسبة ارجاع رفات خير الدين الى تونس سنة 1968 ·

ابن عاشور (الفاضل) : 1 ــ **الحركة الادبية والفكرية فى تونس** ، القاهرة 1956 ، ص· ص· 5 ــ 60 ·

2 ــ **اركان النهضة الادبية بتونس** ، تونس 1965 ، ص· ص· 11 ــ 15 ·

3 ــ **تراجم الاعلام ، الدار التونسية للنشر** ، تونس 1970 ، ص·ص· 45 ــ 58 ·

يعطى المؤلف معلومات من الدرجة الاولى عن خير الدين الا انه يخطئ خطأ فادحا فى تأويله الحكم الدكتاتورى الذى تحدث عنه خير الدين فى خاتمة مقدمة كتابه · انظر **اركان النهضة** ص· 14 ·

انظر اركان النهضة ص 14 ·

ب) الدوريات

الحاضرة : جريدة اسبوعية مديرها على بوشوشة ، السنة الثالثة ، عدد

80 ، 4 فيفرى 1890 (نعى خير الدين) عدد 81 ، 11 فيفرى 1890 (ترجمة خير الدين) يغلب عليها الطابع الادبى .

خير الدين : مجلة شهرية مديرها محمد الجعايبى ، السنة الاولى عـدد 1 ، 1906 ، ص. ص. 7 ـ 14 (ترجمة خير الدين) يغلب عليها الطابع الادبى .

الرائد التونسى : جريدة اسبوعية ، 1860 ـ 1881 (متفرقـات) خاصة ، سنة 1968 ، حيث نشرت تقاريظ **أقوم المسالك** .

العمـل : جريدة يوميـة ناطقـة باسم الحزب الاشتراكى الدستورى ، من خطاب بمناسبة ذكرى يوم الشهداء ، نشـر فى 10 ـ 4 ـ 1968 ، يبرر فيه الرئيس الحبيب بورقيبـة ساحة خيـر الـدين من التهمة الموجهة اليه من انه مهد للاحتلال الفرنسى ببيعه ضيعـة النفيضـة لشركة فرنسية .

مرآة الساحل : مجلة تصدر كل ثلاثة اشهر بسوسة « خير الدين **واقوم المسالك** » مقالتان لمحمد محفوظ ، السنة الاولى ، عدد 8 ، اكتوبـر 1966 ، ص. ص. 16 ـ 20 .

السنة الثانية ، عدد 4 ، 1967 ، ص. ص. 21 ـ 25 ، تحليل للوضع الاقتصادى وموازنة بين خيـر الـدين وابن أبى الضيـاف وبيـرم الخـامس .

المجلة الزيتونية : مجلة شهرية : بعثتنا خير الدين الى الاستانة ، بقلم محمد مزالى ، مجلد X ، عدد 3 يتحدث فيه عن بعثتى ، 1864 ـ 1871 .

* * *

باللغـــة الفـــرنسيـــة

I) ـ المصـــادر

Général Khéreddine : *Réformes nécessaires aux Etats-Musulmans.*
Essai formant la première partie de l'ouvrage politique et statistique

intitulé : *la plus sure direction pour connaître l'état des nations.* Paris, Dupont, 1868.

M. S. Mzali et J. Pignon : *Documents sur Khéreddine* :

— « *A mes enfants* » — Revue Tunisienne — 1934 — 177-225 et 347-396.

— « *Mon programme* » *Ibid,* 1935, 51-80.

— « *Le programme tunisien vu à travers la question d'Orient* » *Ibid,* 1935, 209-233, et 1936, 223-254.

— *Réponse à la calomie, Ibid,* 1937, 209-252 et 1938, 79-91.

— *Correspondance, Ibid,* 1938, 92-153 et 1940, 71-107, 251-302.

Ces articles viennent de faire l'objet d'une réédition en deux volumes. Volume paru : *Khéreddine, homme d'Etat,* Mémoires, M.T.E., Tunis, 1971, 326 p.

II) ـ ترجمته ـ مذهبه الاصلاحي

أ) الكتـــب

BOUHDIBA (A.) : *A la recherche des normes perdues,* Tunis 1969, receuil d'articles (dactylo), 1-20, *passim.*

Pt. BOURGUIBA (H.) : *Le souvenir des Martyrs.*
Publication du S.E.A.C.I. Tunis, 1968.
Discours réhabilitant Khéreddine.

GANIAGE (J.) : *Les Origines du Protectorat Français en Tunisie* (1861-1881) P.U.F. Paris, 1959.

KHAIRALLAH (Ch.) : *Le Mouvement évolutionniste tunisien.* Tunis, 1934.

LAROUI (A.) : *L'histoire du Maghreb*, Paris, 1970, 390.

ZMERLI (M.S.) : *Les Précurseurs*, Tunis, 1964, 41-57.

ب) الدوريات

Cahiers de Tunisie, Moncef CHENOUFI : *Ces deux séjours de Md Abduh en Tunisie,* XVI, 1968, 57-58, et *passim.*

E. I.[1] : Khayr-al-din.

I. B. L. A. — 5 articles par A. Demeerseman (1956-1958).

— *Un grand témoin des premières idées modernistes en Tunisie,* 1956.

— *Au berceau des premières réformes démocratiques en Tunisie* 1957.

— *Idéal politique de Khéreddine,* 1957.

— *Aspect humain des réformes de Khéreddine en Tunisie,* 1957.

— *La doctrine de Khéreddine en matière politique,* 1958.

1 article de J. Fontaine

Khéreddinemoderniste ? (**I.B.L.A.**, 1967, pp. 71.81).

Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, B. Tlili :

— *Eléments pour une approche de la pensée sous-économique de Khéreddine* n° 9, 1971, 119-1152.

Revue Tunisienne: *Réformes nécessaires aux Etats-musulmans* n° 12, 1896, 501-522. Extraits de la trad. franç. précédés d'une brève biographie de Khéreddine.

باللغـــة الانقليـــزيـــة

I) ـ المصـــادر

Gl. Khéreddine : *Necessary réforms of the musulmans states*, Athènes, 1874
67 pages.

L. C. BROWN : *The Surest Path*, Harvord middle eastern monograph series, U.S.A. 1967.
(Introd. 1-64, traduction de l'introd. de Aqwan al Massalik — 69-182)

لم يذكر المؤلف انه اطلع على الترجمة الانكليزية الاولى للمقدمة وهى موجودة كما بينا اعلاه وقد خصص مقدمة تحليلية نقدية هامة الا انه جنح فيها الى ان خير الدين لم تخامره الافكار الديموقراطية .

II) ـ ترجمته ـ مذهبه الاصلاحى

ـ الكتب

HOURANI (Albert) : *Arabic Thought in the liberal age* (1798-1938) London, 1962

MICAUD (C. A.), BROWN (L. C.), MOORE (Cl.).
Tunisia : The politics of modernization. New-York, 1964, 205 p.

كتاب

اقوم المسالك

في معرفة احوال الممالك

تاليف

الشهم الافخم الهمام فارس الكتائب واليراع المقدام

منيع الذرى امير الامرا

السيد خير الدين التونسي

ابقاه الله قدوة لكل مونسي

طبعة اولى

باذن خصوصي من الحضرة العليه

صانها وايدها رب البريه

في مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحميه

سنة ١٢٨٤

مقدمة أقوم المسالك

بسبب خروج ما اتفق عليه ارسال الكتب الذي ورد على

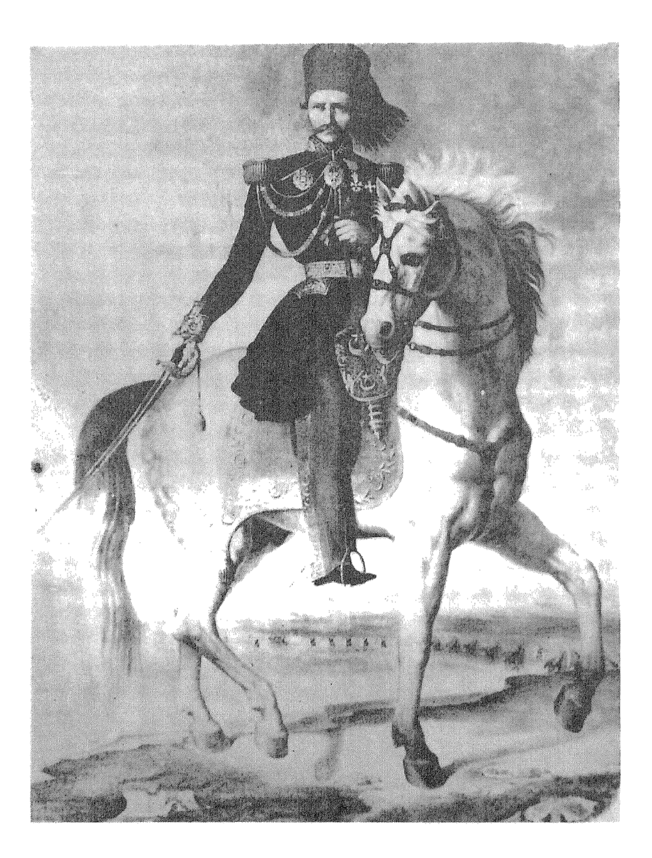
المجلس بكيفية الاتحاد مع الدول الستة جوابا فاعلمهم

بسبب عدم حرب الدول عليه تشويش الخاطر من الروسية

الغلبة على مطلق المسائل الباقية من [illegible]

في ١٤ شوال سنة ١٢٠٣

[illegible]



خير الدين التونسي

[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

«خطبة الكتاب»

سبحان من جعل من نتائج العدل العمران ، وفضل بالعقل نوع الانسان ، وأهله به لحسن التدبير ومراتب العرفان ، وأمره بالتعاون على البر والتقوى دون الاثم والعدوان ·

أحمده وهو المحمود في كل آن بكل لسان،وأصلى على عبده سيدنا محمد المرسل بالكتاب والميزان (1) ، المنزل عليه (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) (2) ، وعلى آله وأصحابه حفاظ شريعته اللائقة بكل زمان ، الدائرة أحكامها على مركزى الايمان والأمان·

1 ـ ضرورة الاخذ عن الغرب

أما بعد فيقول جامع هذه الورقات ـ أرشده الله الى أقوم الطرقات ـ :

---

(1) الميزان : العدل ·

(2) سورة النحل ، الآية 90 ·

إني بعد أن تأملت تأملا طويلا ، في أسباب تقدم الأمم وتأخرها جيلا فجيلا ، مستندا في ذلك لما أمكن تصفحه من التواريخ الاسلامية والافرنجية ، مع ما حرره المؤلفون من الفريقين فيما كانت عليه وآلت اليه الأمة الاسلامية ، وما سيؤول اليه أمرها في المستقبل ، / بمقتضى الشواهد التي قضت التجربة بأن تقبل ، [3] التجأت إلى الجزم بما لا أظن عاقلا من رجال الاسلام يناقضه ؛ أو ينهض له دليل يعارضه،من أنا إذا اعتبرنا تسابق الأمم في ميادين التمدن ، وتحزب عزائمهم على فعل ما هو أعود نفعا وأعون ، لا يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا ، على قاعدة محكمة البنا ، إلا بمعرفة أحوال من ليس من حزبنا ، لا سيما من حف بنا وحل بقربنا .

ثم إذا اعتبرنا ما حدث في هذه الأزمان ، من الوسائط التي قربت تواصل الأبدان والأذهان ، لم نتوقف أن نتصور الدنيا بصورة بلدة متحدة ، تسكنها أمم متعددة ، حاجة بعضهم لبعض متأكدة ، وكل منهم وإن كان في مساعيه الخصوصية غريم نفسه ، فهو بالنظر الى ما ينجر بها من الفوائد العمومية مطلوب لسائر بني جنسه .

2 ـ إعراض رجال الدين والسياسة عن الايفاء بذلك الغرض

فمن لاحظ هذين الاعتبارين ، اللذين لا تبقى المشاهدة في صحتهما أدنى رين (3) ، وكان بمقتضى ديانته من الدارين ، أن

(3) رين : دنس وهنا شك .

الشريعة الاسلامية كافلة بمصالح الدارين ، ضرورة أن التنظيم الدنيوى أساس متين ، لاستقامة نظام الدين ، يسوءه أن يرى بعض علماء الاسلام ، الموكول لأمانتهم مراعاة أحوال الوقت فى تنزيل الأحكام ، معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية ، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خلية • ولا يخفى أن ذلك من أعظم العوائق ، عن معرفة ما يجب اعتباره على الوجه اللائق •

أفيحسن من أساة الأمة الجهل بأمراضها ، أو صرف الهمة الى اقتناء جواهر العلوم مجردة عن أعراضها ؟

كما أنه يسوءنا الجهل بذلك من بعض رجال السياسة ، والتجاهل من بعضهم رغبة فى إطلاق الرئاسة (4) •

3 ـ مقاصد المؤلف ومنهجه

فلذلك هجس ببالى ، ما استذكيت لأجله ذبالى (5) ، من أنى لو جمعت بعض ما استنتجته منذ سنين باعمال الفكر والروية ، مع ما شاهدته اثناء أسفارى للبلدان الاوروباوية (6) ، التى [4] / أرسلنى الى بعض دولها الفخام الطود الرفيع الأسمى ، والكهف

(4) اطلاق الرئاسة : الحكم المطلق •

(5) استذكيت ذبالى : اوقدت فتيلتى •

(6) كانت هذه الاسفار فى نطاق مهمات وبعثات ديبلوماسية وهى كما يلى ، الى حد تأليف « **اقوم المسالك** » سنة 1867 :

المنيغ الأحمى ، جناب ولى النعم ، وزكى الأخلاق والشيم ، من لم تزل عزائمه كاسمه صادقة (7) ، وألسنة الأيام بالثناء عليه ناطقة ، لم يخل سعيى من فائدة ، خصوصا إذا صادف أفئدة على حماية بيضة (8) الاسلام متعاضدة ·

وأهم تلك الفوائد عندى ، التى هى فى هذا التأليف مناط قصدى ، تذكير العلماء الأعلام ، بما يعينهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الأيام ، وإيقاظ الغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام ، ببيان ما ينبغى أن تكون عليه التصرفات الداخلية والخارجية ، وذكر ما تتأكد معرفته من أحوال الأمم

1846 : فرنسا (صحبة المشير الاول أحمد باى)

1853 ـ 1856 : فرنسا (من أجل قضية ابن عياد)

1859 : الآستانة

1861 : فرنسا ـ بلجيكا ـ هولاندة ـ السويد ـ النمسا ·

1864 : فرنسا ـ ايطاليا ـ بروسيا

ابن ابى الضياف : **اتحاف** ، IV ، 97 ، V ، 18 و 63 ·
محمد الصالح مزالى : بعثة خير الدين للآستانة ، **المجلة الزيتونية** ، مجلد III ، ج 9 ·

(7) تورية عن الصادق باى ، المشير الثالث (1859 ـ 1882) ·
وفى عهده كانت اهم رحلات خير الدين · انظر : **اتحاف** ، V ، VI ، VII. (متفرقات)

(8) بيضة : ساحة ·

الافرنجية ، خصوصا من لهم بنا مزيد اختلاط ، وشديد علقة وارتباط ، مع ما أولعوا به من صرف الهمم ، الى استيعاب أحوال سائر الأمم ، واستسهالهم ذلك بطى مسافات الكرة الذى ألحق شاسعها بالأمم (9) ·

فجمعت ما تيسر بعون الله من مستحدثاتهم المتعلقة بسياستى الاقتصاد والتنظيم ، مع الاشارة الى ماكانوا عليه فى العهد القديم وبيان الوسائل التى طرقوا بها فى سياسة العباد ، الى الغاية القصوى من عمران البلاد ، كما أشرت الى ما كانت عليه أمة الاسلام المشهود لها حتى من مؤرخى أوربا الأعيان ، بسابقية التقدم فى مضمارى العرفان والعمران ، وقت نفوذ الشريعة فى أحوالها ، ونسخ سائر التصرفات بمنوالها ·

والغرض من ذكر الوسائل التى أوصلت الممالك الأورباوية ، الى ما هى عليه من المنعة والسلطة الدنيوية ، أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا ، ولنصوص شريعتنا مساعدا وموافقا ، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا ، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا ، الى غير ذلك مما تتشوف اليه نفس الناظر فى هذا الموضوع ، المحتوى / [5] من الملاحظات النقلية والعقلية على ما نشره بطى فصوله يضوع (10) ·

---

(9) الذى ألحق شاسعها بالامم · الامم : القرب ·

(10) نشره يضوع : رائحته الطيبة تنتشر ·

وسميته : **أقوم المسالك ، فى معرفة أحوال الممالك** (11) ، مرتبا له على مقدمة وكتابين ، يشتمل كل منهما على أبواب (12) ٠

(11) الجغرافيا العربية فن مستحدث ظهر ابتداء من نصف القرن الثالث هـ ٠ / التاسع م ٠ تحت تاثير اليونان والفرس ٠ وتطور من الجغرافيا الرياضية الى الجغرافيا الادبية الوصفية ٠ ونوع « **المسالك والممالك** » فرع من هذه الاخيرة بلغ اوجه ابتداء من القرن الرابع هـ ٠ / العاشر م ٠
ومن اشهر المؤلفين فيه اليعقوبى وابن حوقل والبكرى والادريسى ٠ وقد سمى البكرى (م ٠ 487/1094) كتابه : « **كتاب الممالك والمسالك** » ٠
انظر : ر٠ بلاشير : **منتخبات من آثار الجغرافيين ـ العرب ـ فى القرون الوسطى** (ط٠ 2٠ باريس 1957) 7 ـ 15 ، 110 ـ 200 ٠
والملاحظ ان العنوان الذى اختاره خير الدين مستمد من تلك التسمية وان كان موضوع كتابه فى فنى الجغرافيا الانسانية والتاريخ أدخل ٠

(12) تحتوى المقدمة على ثلاثة ابواب : التنظيمات، والتمدن الاورباوى، وتلخيص المكتشفات والمخترعات ٠ اما الكتاب الاول فيحتوى على عشرين بابا ٠ كل باب متعلق ببلد ومقسم الى فصول وهذه البلدان حسب ورودها فى الكتاب الاول :

1 ـ تركيا
2 ـ فرنسا
3 ـ إنكلترا
4 ـ النمسا
5 ـ الروسيا
6 ـ بروسيا
7 ـ الكنفدرالية الجرمانية
8 ـ إيطاليا
9 ـ إسبانيا
10 ـ السويد والنرويج
11 ـ هولاندا
12 ـ الدانمرك
13 ـ البواريا
14 ـ بلجيكيا
15 ـ البرتغال
16 ـ سويسرا
17 ـ مملكة البابا
18 ـ الفورتنبرغ
19 ـ إمارة بادن العظمى
20 ـ اليونان

وبهداية الله نستوضح مناهج الرشدوالصواب · والجرىفى هذا المجال وان كان فوق طاقتى ، لكن إغضاء الفضلاء مأمول فى جنب فاقتى ، وصدق النية ، كافل ـ إن شاء الله تعالى ـ ببلوغ الأمنية ·

* * *

ويحتوى الكتاب الثانى على ستة ابواب ، خمسة فى جغرافيـة القارات الخمس والسادس فى اقسام البحر ويختم الكتاب بجدول التواريخ الهجرية والمسيحيـة ·

المقدمـــة

4 ـ السبب الداعى للتاليف : اقتباس ما يوافق الشريعة الاسلامية

لما كان السبب الحامل على الشىء متقدما عليه طبعا ، ناسب أن نقدمه وضعا ، ولم نكتف بالايماء فى الخطبة الى ما دعانا لجمع هذا التأليف بل رأينا من المهم أن نعود الى إيضاحه هنا ، ونبنى عليه ما أردنا إيراده فى المقدمة ، فنقول :

ان الباعث الاصلىّ على ذلك أمران آيلان الى مقصد واحد :

أحدهما : إغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حـال الأمـة الاسلامية ، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائـر العلـوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة ، وترويج سائر الصناعات ، ونفى أسباب البطالة · وأساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الأمن ، المتولد منه الأمل ، المتولد منه إتقان العمل المشاهد فى الممالك الأوروباوية بالعيان ، وليس بعـده بيان ·

ثانيهما : تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم فى الاعراض عما يحمد من سيرة الغير ، الموافقة لشرعنا ، بمجرد ما انتقش فى عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى أن يهجر ، وتآليفهم فى ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر ، حتى أنهم يشددون / الانكار على من يستحسن شيئا منها • [6] وهذا على اطلاقه خطأ محض •

5 ــ الحكمة ضالة المؤمن

فان الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة لاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لانكاره وإهماله ، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله • وكل متمسك بديانة وإن كان يرى غيره ضالا فى ديانته ، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن فى نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الافرنجية • فانهم ما زالوا يقتدون بغيرهم فى كل ما يرونه حسنا من أعماله ، حتى بلغوا فى استقامة نظام دنياهم الى ما هو مشاهد • وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر فى الشىء المعروض عليه ، قولا كان أو فعلا ، فان وجده صوابا قبله واتبعه ، سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم • فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال • والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها (13) •

(13) حديث نبوى شريف •

ولما أشار سلمان الفارسى (14) ـ رضى الله عنه ـ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم ، أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برأيه وحفر خندقا للمدينة في غزوة الأحزاب (15) ، عمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين ـ وقال سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ « لا تنظر الى من قال وانظر إلى ما قال » .

وإذا ساغ للسلف الصالح أخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما روآه من الآلات النافعة ، حتى قال الغزالى (16) : « من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه » فاى مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التى نرى أنفسنا محتاجين اليها غاية الاحتياج فى دفع المكائد وجلب الفوائد ؟

---

(14) سلمان الفارسى : (م. 656/36) اصله من ماجوس اصبهان ، عاش طويلا واسلم على يد الرسول وهو الذى دل المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الاحزاب ، جعل أميرا على المدائن فاقام فيها إلى أن توفى .
الزركلى ، **الاعلام** ، ط . 2 . III ، 169 ـ 170 .

(15) غزوة الاحزاب وتسمى أيضا غزوة الخندق وهى التى وقع فيها حصار المدينة من قبل قبائل مكة المتحالفين مع اليهود .

(16) الغزالى ، ابو حامد محمد بن محمد الطوسى (450 ـ 1058/505 ـ 1111) اصولى وفقيه ومتصوف ومصلح . عاش فى عهد السلاجقة ، صاحب **احياء علوم الدين والمنقذ من الضلال** والقول المذكور مقتطف من **المنقذ** . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط . 2 ، II ، 1062 ـ 1065 .

وفى **سنن المهتدين** للعلامة الشيخ المواق المالكى (17) ما نصه : « إن ما نهينا عنه من أعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى / شرعنا ، أما ما فعلوه على وفق الندب أو الايجاب أو الاباحة فانا لا نتركه لأجل تعاطيهم إياه لأن الشرع لم ينه عن التشبه بمن يفعل ما أذن الله فيه » . [7]

وفى **حاشية الدر المختار** للعلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفى (18) ما نصه : « إن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر » .

6 ـ تناقض المناهضين للتنظيمات

على أنا إذا تأملنا فى حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من أعمال

---

(17) الشيخ ابو عبد الله محمد بن يوسف العبدوسى الغرناطى الشهير بالمواق (م . 897 / 1492) ، المفتى المالكى لغرناطة . له كتاب **سنن المهتدين فى مقامات الدين** ، ط . فاس 1314/1896 .
انظر : محمد مخلوف ، **شجرة النور الزكية** (ط . القاهرة 1350/1931) 1 : 262 . والملاحظ أن ابن أبى الضياف ذكر المواق واستشهد بقوله ، **اتحاف** ، 1 ، 10 .

(18) الشيخ محمد امين بن عمر بن عابدين (م. 1252/1836) فقيه حنفى من مواليد دمشق ، فقيه الديار الشامية وامام الحنفية فى عصره . له : **رد المحتار على الدر المختار** ــ يعرف بحاشية ابن عابدين .
الزركلى ، **الاعلام** ، VI ، 267 ــ 268 .

الافرنج نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات (I9) ونتائجها ولا يمتنعون منها فيما يضرهم ٠

وذلك أنا نراهم يتنافسون فى الملابس وأثاث المساكن ونحوها من الضروريات ، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية ، والحال أن جميع ذلك من أعمال الافرنج ٠ ولا يخفى ما يلحق الأمة بذلك من الشين والخلل فى العمران وفى السياسة ٠

أما الشين فبالاحتياج للغير فى غالب الضروريات الدال على تأخر الأمة فى المعارف ٠

وأما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذى هو أصل مهم من أصول المكاسب ، ومصداق ذلك ما نشاهده من أن صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجى بثمن يسير ، ثم يشتريه منه بعد اصطناعه فى مدة يسيرة بأضعاف ما باعه به ٠ وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج أرضنا إلا قيمة موادها المجردة دون التطويرات العملية التى هى منشأ توفر الرغبات منا ومن غيرنا ٠ ثم إذا نظرنا الى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها فان وجدناهما متقاربين خف الضرر ، وأما إذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لامحالة ٠

(I9) يستعمل هنا خير الدين هذه الكلمة فى معناها العام وهو المؤسسات العصرية الاوربية ولكنه لا ينفك يستعملها فى معنى اخص فى بقية مؤلفه وهى الاصلاحات التى اعتمدتها السلطنة العثمانية وبعض ولاياتها ابتداءمن I839 الى I876 ٠

وأما الخلل السياسى فان احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها لاسيما إذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التى لو يتيسر شراؤها زمن الصلح لا يتيسر ذلك وقت الحرب ، [8] ولو بأضعاف / القيمة ٠

7 ـ جوهر القضية : وجوب اعتماد التنظيمات

ولا سبب لما ذكرناه الا تقدم الافرنج فى المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية ، فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن فى ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام نفعه بمجرد أوهام خيالية ، واحتياط فى غير محله ؟

ومما يحسن سوقه هنا قول بعض المؤلفين من الأورباويين فى السياسات الحربية : « إن الممالك التى لا تنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك أن تكون غنيمة لهم ولو بعد حين » ٠

وخص التراتيب الحربية لأنها موضوع كتابه ، وإلا فالواجب مجاراة الجار فى كل ما هو مظنة لتقدمه ، سواء كان من الأمور العسكرية أو من غيرها ٠

ومما يؤيد ما قررناه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعاصم بن ثابت (20) من حديث : « من قاتل فليقاتل كما يقاتل (21) ٠

---

(20) عاصم بن ثابت : (م٠ 625/4) الانصارى الاوسى ـ صحابى من السابقين الاولين من الانصار ـ شهد بدرا واحدا مع الرسول واستشهد يوم الرجيع ٠ الزركلى ، **الاعلام** ، ١٧ ، 12 ٠

(21) حديث نبوى شريف ٠

ويوضح معناه ما تضمنته وصية الصديق لخالد بن الوليد (22) ـ رضى الله عنهما ـ حين بعثه لقتال المرتدين ، فقال : « يا خالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك » ـ الى أن قال ـ « والخوف عند أهل اليمامة فاذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر ثم إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به ، السهم للسهم ، والرمح ، والسيف للسيف » .

قلت : ولو أدرك هذا الزمان لأبدل ذلك بمدفع الششخان ومكحلة الابرة والسفينة المدرعة (23) ونحوها من المخترعات التى تتوقف عليها المقاومة ، ولا يحصل بدونها الاستعداد الواجب شرعا الذى يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعى فى تهيئة مثلها ، أو خير منها ومعرفة الأسباب المحصلة له .

وبناء على ذلك يقال هنا : هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون تقدم فى المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا ؟ وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء

---

(22) خالد بن الوليد (م 21/642) القرشى ، سيف الله الفاتح الكبير ، كان من أشراف قريش وأسلم قبل فتح مكة ، ولاه الرسول رئاسة الخيل فى الجيش ولما ولى ابو بكر وجهه لقتال المرتدين ثم سيره الى العراق ففتح الحيرة ثم الى الشام . وعزله عمر . كان مظفرا خطيبا فصيحا .
الزركلى ، **الاعلام** ، ١٧ ، 241 ـ 242 .

(23) مدفع الششخان ومكحلة الابرة والمدرعة : مصطلحات حربية،والششخان هو ضرب من الماس وهذه ترجمتها حسب النسخة الفرنسية :
" Les canons rayés, les fusils à aiguille et les navires cuirassés "

تنظيمات سياسية (24) تناسب التنظيمات التى نشاهدها عند غيرنا
[9] فى التأسس على / دعامتى العدل والحرية ، اللذين هما أصلان فى شريعتنا • ولا يخفى آنهما مُلاك القوة والاستقامة فى جميع الممالك ؟

8 ـ الاسوة الاروبيــة :
تقدم الغرب حديث وأساسـه العدل والعلوم

ولما كان الغرض من هذا الكتاب لا يتم إلا ببيان أحوال البلدان الأورباوية لزم أن نثنى العنان اليه مدرجين فى أثنائه ما يناسب الأمة الاسلامية •

فنقول : إن الحالة الراهنة فى ممالك أوربا لم تكن ثابتة لها من قديم الزمان لأنها كانت بعد هجوم البرابرة الشماليين وسقوط الدولة (25) الرومانية سنة اربعمائة وست وسبعين [476] مسيحية على أفظع حال من التوحش والاعتداء والجور ، آخذة فى حركة السقوط التى هى أسرع من الصعود طبعا • ولم تزل فى ربقة الرق لملوكها وكبراء الأمم الجائرة المسمين بالنوبليس الى زمن ولاية

---

(24) يستعمل هنا التنظيمات فى معناها الضيق الخاص بالاصلاحات العثمانيــة فى القــرن التاســع عشر •

(25) الدولة هنا بمعنى الامبراطورية •

الامبراطور شارلمان (26) ملك فرنسا ومعظم ممالك اوربا سنة سبعمائة وثمان وستين (768م ٠) ٠ فبذل غاية جهده فى إصلاح حال الناس بسعيه فى تنمية المعارف وغيرها ٠ ثم بعد وفاته رجعت اوربا الى غياهب جهالتها وظلم ولاتها ــ كما يأتى تفصيله ــ ٠

ولا يتوهم أن أهلها وصلوا الى ما وصلوا اليه بمزيد خصب أو اعتدال فى اقاليمهم (27)،إذ قد يوجد فى أقسام الكرة ما هومثلها أو أحسن ، ولا أن ذلك من آثار ديانتهم ، إذ الديانة النصرانية ولو كانت تحث على إجراء العدل والمساواة لدى الحكم ، لكنها لا تتداخل فى التصرفات السياسية ، لأنها تأسست على التبتل والزهد فى الدنيا ، حتى أن عيسى ــ عليه السلام ــ كان ينهى أصحابه عن التعرض لملوك الدنيا فيما يتعلق بسياسة أحوالها ،

---

(26)شارلمان : CHARLEMAGNE او شارل الاول الكبير (742 ــ 814) ملك فرنسا (768 ــ 814) وامبراطور الغرب (800 ــ 814) من المناضلين فى سبيل نشر النصرانية ، اخفق فى افتتاك الاندلس من ايدى المسلمين واقام فى آخر حياته علاقات تجارية وودية مع الشرق وخاصة مع هارون الرشيد العباسى ٠
سيستانف خير الدين الحديث عن هذا الملك فى باب التمدن الاورباوى ــ انظر اسفله تعليق (114) ٠

(27)ان المطالع لمقدمة **اقوم المسالك** يلاحظ شدة تأثر خير الدين بمقدمة ابن خلدون لاا انه هنا لا يسعه الا ان يلاحظ رده عليه ــ وان لم يصرح باسمه ــ فيما ذهب اليه من تاثير الهواء والاقاليم على طباع البشر وتقرير نوع عمرانهم انظر : ابن خلدون : **المقدمة** ط٠ 3 ، دار الكتب اللبنانية ، بيروت 1967، 141 ــ 150 ٠

قائلا : « إنه ليس له ملك فـي هذه الدنيا • لأن سلطان شريعتـه على الأرواح دون الأشباح » •

والخلل الواقع فى ممالك البابا ، كبير الديانة النصرانيـة ، لامتناعه من الاقتداء بالتراتيب السياسية المعتبرة فى بقية الممالك الأورباوية ، دليل واضح على ما ذكرناه (28) •

وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم فى العلـوم والصناعـات [10] بالتنظيمات / المؤسسة على العدل السياسى ، وتسهيـل طـرق الثروة ، واستخراج كنوز الارض بعلم الزراعة والتجارة • وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة فى بلدانهم •

وقد جرت عادة الله فى بـلاده أن العـدل وحسـن التدبيـر والتراتيب المحفوظة من أسباب نمو الأموال والأنفس والثمرات ، وبضدها يقع النقص فى جميع ما ذكر ، كما هو معلوم من شريعتنا والتواريخ الاسلامية وغيرها •

فقد قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « العدل عز الدين وبه صلاح السلطان وقوة الخاص والعام وبه آمن الرعية وغيرهم » (29) •

---

(28) نجد التفكير نفسه عند ابن أبى الضياف •
انظر : **اتحاف** ، I ، 32 •
« شريعة المسيح عيسى ابن مريم ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ مقصورة على العبادة والتقرب الى الله ، بالزهد فى الدنيا والاقبال على الدار الآخرة ، فسلطانها انما هو على الارواح لا على الاشباح ، وتركت ملوك الدنيـا وشانهم من مصالح دنياهم » •

(29) حديث نبوى شريـف •

ومن أمثال الفرس : « الملك أساس والعدل حارس • فما لـم يكن له أساس فمهدوم وما لم يكن له حـارس فضائـع » •

وفى **نصائح الملوك**(30) : « إن ولى الأمر يحتاج الى ألف خطة ، وكلها مجموعة فى خصلتين ، إذا عمل بهما كان عادلا ، وهما : عمران البلاد ، وأمن العباد » •

ومن تصفح الفصل الثالث من الكتاب الأول من **مقدمـة ابـن خلدون** رأى أدلة ناهضة على أن الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كـان •

وبما جبلت عليه النفوس البشرية كان إطـلاق أيـدى الملوك مجلبة للظلم على اختلاف أنواعه ، كما هو واقع اليوم فى بعض ممالك الاسلام ، ووقع بممالك اوربا فى تلـك القـرون عنـد استبداد ملوكها بالتصرف المطلق فى عبيد الله من غيـر تقيـد بقانون عقلى لمنافاته لشهواتهم ، ولا شرعى لعـدم وجـوده فى الديانة المسيحية المبنية على التبتل والزهد فى الدنيا ، كما تقدم •

9 ــ أصول الشريعة الاسلامية : وجوب المشورة

وما أشرف بعض ممالكهم على الاضمحلال وسلب الاستقلال الا بسوء تصرفهم الناشىء عن إطلاق أيديهم ، مع حسـن سيـرة مجاوريهم إذ ذاك من الأمة الاسلامية ، الناتج عن تقيد ولاتهـم بقوانين الشريعة المتعلقة بالأمور الدينية والدنيوية ، التى مـن

---

(30) **نصائح الملوك للغزالى** ، وعنـوانه الكـامـل : **التبر المسبوك فى نصائح الملوك** ، ط• مصر ، 1312 • سركيس ، **معجم** ، 1411 •

أصولها المحفوظة إخراج العبد عن داعية هواه ، وحماية حقوق العباد ، سواء كانوا من أهل الاسلام أو من غيرهم ، / واعتبار [11] المصالح المناسبة للوقت والحال ، وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح ، وارتكاب أخف الضررين اللازم أحدهما ، الى غير ذلك ٠

ومن أهم أصولها وجوب المشورة التى أمر الله بها رسوله المعصوم ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع استغنائه عنها بالوحى الالهى وبما أودع الله فيه من الكمالات ، فما ذاك إلا لحكمة أن تصير سنة واجبة على الحكام بعده ٠

قال ابن العربى (31) : « المشاورة أصل فى الدين وسنة الله فى العالمين ٠ وهى حق على عامة الخليقة من الرسول الى أقل الخلق » ٠

ومن كلام على ــ رضى الله عنه : « لاصواب مع ترك المشاورة»

ومن الأصول المجمع عليها وجوب تغيير المنكر على كل مسلم بالغ ، عالم بالمنكرات ٠

وقال حجة الاسلام الغزالى : « الخلفاء وملوك الاسلام يحبون الرد عليهم ولو كانوا على المنابر » ٠ فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ وهو يخطب : « أيها الناس من رأى منكم فى

---

(31)ابن العربى : ابو بكر محمد بن عبد الله المعافرى ، (468 ــ 543 / 1076 ــ 1148) ولد باشبيلية وارتحل الى المشرق حيث تتلمذ للغزالى ، كان محدثا وقاضيا واكثر تآليفه ضاعت ٠
دائرة المعارف الاسلامية ، ط ٠ 2 ، III ، 729 ٠

اعوجاجا فليقومه » . فقام له رجل وقال : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » . فقال : « الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه . » ولا شك أن مثل هذا الامام العادل ، الشديد فى حماية الدين وحقوق الخلافة ، لو لم ير مساغا من الشريعة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدة ما حمد الله عليه ، بل كان الواجب رده وزجر قائله .

وروى الغزالى أيضا فى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من **الاحياء** : أن معاوية حبس عطاء الناس ، فقام اليه أبو مسلم الخولانى ، فقال إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك » ، فقال معاوية بعد إسكان غضبه بالوضوء : صدق أبو مسلم ! إنه ليس من كدى ولا من كد أبى ، فهلموا الى عطائكم » .

10 ـ ضرورة الوازع ووجوب تغيير المنكر من قبل اهل الحل والعقد

قلت : لولا التغيير (32) المشار اليه ما استقام للبشر ملك ، لأن الوازع ضرورى لبقاء النوع الانسانى ، ولو ترك ذلك الوازع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الأمة لبقاء الاهمال بحاله . فلا بد للوازع المذكور / من وازع [12] له يقف عنده إما شرع سماوى أو سياسة معقولة . وكل منهما

(32) أى تغيير المنكر .

لا يدافع عن حقوقه إن انتهكت ، فلذلك وجب على علماء الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات ٠

ونصب الأورباويون المجالس وحرروا المطابع فالمغيرون للمنكر فى الأمة الاسلامية تتقيهم الملوك كما تتقى ملوك أوربا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع ٠ ومقصود الفريقين واحد وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وإن اختلفت الطرق الموصلة إلى ذلك ٠

وما ذكرناه أشار اليه ابن خلدون فى فصل الامامة من مقدمته حيث قال : « إن الملك ، لما كان عبارة عن المجتمع الضرورى للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار القوة الغضبية المركبة فى الانسان ، كانت أحكام صاحبه فى الغالب حائدة عن الحق ، مجحفة بمن تحته من الخلق ، لحمله إياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من شهواته ٠ فتعسر طاعته لذلك ، وتجيء العصبية المفضية الى الهرج والقتل ٠ فوجب أن يرجع الى أحكامها ٠ كما كان سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى أحكامها ٠ كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم ٠ وإذا خلت الدولة عن مثل هذه السياسة لم يستقم أمرها ، ولا يتم استيلاؤها ٠ فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها ، كانت سياسة عقلية ٠ وإذا كان فرضها من الله تعالى بشارع يقررها ، كانت سياسة دينية نافعة فى الدنيا والآخرة » ٠ انتهى (33) ٠

---

(33) ابن خلدون ، **المقدمة** ، الباب الثالث ٠ الفصل الخامس والعشرون ، **فى معنى الخلافة والامامة** ، 336 ــ 337 ٠

قلت : والنفع المذكور إنما يكون تاما ببقائها محترمة ، بصونها والذب عن حوزتها بمثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أشرنا اليه ·

11 ـ نظام الحكم عند خير الدين

هذا وإنا لا ننكر إمكان أن يوجد فى الملوك من يحسن تصرفه فى المملكة بدون مشورة أهل الحل والعقد (34) ويحمله حب الانصاف على الاستعانة بالوزير العارف النصوح ، فيما يشكل عليه من المصالح ، لكن لكون ذلك / من النادر الذى لا يعتبر ، [13] لاستناده الى أوصاف قلما تجتمع فى انسان ، وعلى فرض اجتماعها ودوامها له ، تزول بزواله (35) ، وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك فى كليات السياسة ، مع جعل المسؤولية فى ادارة المملكة على الوزراء المباشرين لها، بمقتضى قوانين مضبوطة ، مراعى فيها حال المملكة ، أجلب لخيرها وأحفظ له (36) ·

(34) اهل الحل والعقد ، هم نواب الامة الذين يسمون او يخلعون الخليفة او الملك ويشترط فى كل منهم ان يكون مسلما ذكرا رشيدا حرا عدلا ·
وتطور هذا المفهوم فى المجتمع الاسلامى واصبح يطلق على رجال السياسة ورجال الدين معا ·
ومعنى هذا المصطلح عند خير الدين هو مجموعة النواب الممثلين للامة فى هيئة مجلس نيابى ـ المجلس الاعلى ـ او البرلمان ·
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط· 2 ، I ، 272 ·

(35) يعنى هنا نابليون الثالث · انظر أسفله : تعليق (46) ·

(36) هذا هو مذهب خير الدين السياسى وهو قائم على ركائز ثلاث ، الملك والوزير المباشر واهل الحل والعقد ·
لا ننس ان خير الدين اضطلع بمنصب «الوزير المباشر» من 1870 الى 1873·

12 ــ انحصار الملك فى صور ثلاث

و بيان ذلك أن حالة الملوك بمتقضى الطبيعة البشرية ، لا تخرج عن صور ثلاث : لأن الواحد منهم إما أن يكون كامل المعرفة والمحبة لخير الوطن ، قادرا على إجراء المصالح بمراعاة الأصلح ، أو يكون كامل المعرفة ، ولكن له أغراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح العمومية ، أو يكون ناقص المعرفة ، ضعيف المباشرة .

ومثل هذه الصور الثلاث يعتبر فى الوزير المباشر .

ولا يخفى أن لزوم المشورة ومسؤولية الوزراء فى الصورة الاولى لا يعطل كامل المعرفة عن مقصده الحسن ، بل يعينه حيث ان آراء الجميع متعاضدة على المصلحة ، كما أنه يسهل دوام الملك فى عائلته ولو كانوا من ماصدقات (37) الصورتين الأخيرتين الواضح فيهما تأكد المشورة والمسؤولية ، لوجوب المعارضة فى الثانية والاعانة فى الثالثة . فبذلك يستقيم حال المملكة ولو كان الوالى أسير الشهوات أو ضعيف الرأى ، كما قال المترجم لتاريخ ستوردمل الأنكليزى (38) : « إن رفعة شأن الأمة الانكليزية بلغت

---

(37) استعمال قديم عند الفقهاء معناه : ما ينطبق عليه كذا .

(38) ستوردمل : STUART MILL (1806 ـ 1873) فيلسوف عالم واقتصادى انكليزى ، صاحب كتاب فى **اصول الاقتصاد السياسى** ويذكر خير الدين فى النسخة المترجمة إلى الفرنسية **لا قوم المسالك** اسم المترجم وهو DUPONT WITHE

الغاية فى مدة الملك جورج الثالث الذى كان مجنونا » • وما ذاك إلا بمشاركة أهل الحل والعقد ومسؤولية الوزراء لهم •

13 ـ دحض دعوى : الوزير المباشر كفيل وحده بتنظيم الدولة دون اهــل الحل والعقــد

وقد يسبق الى بعض الأذهان الضعيفة أن تكليف من تحسن سيرته من الوزراء ينجبر به خلل الصورتين الأخيرتين ، بحيث لايحتاج لأهل الحل والعقد ، وهو ظاهر السقوط ، لأن تقديم الوزير للمباشرة وتأخيره عنها بيد الملك ، ولا يظن أن الملك يقدم من يعلم أنه يخالفه مخالفة معتبرة • / [14] وعلى فرض تقديمه وسيره سيرة مستحسنة فانا نرى أن حال الوزير دائر بين أمرين:

لأنه ، إما أن يوافق الملك وحاشيته على أغراضهم وشهواتهم مرجحا بذلك حظ نفسه ، وضرر المملكة فى هاته الحالة لا يكاد يخفى •

وإما أن يخالفهم ويأمر من تحته من المتوظفين بما تقتضيه مصلحة البلاد ، وحينئذ فمن أين له هذا الحق ؟ وبأى ظهير يستظهر على تلك المخالفة ؟ خصوصا إذا لم تكن هناك شريعة نافذة تحميه من تحزب حساده الذين غاية أملهم إضراره ، وتعطيل تصرفاته الحسنة ، المقللة لفوائدهم ، بكل وجه أمكنهم ، ولو بتنفيذ إذنه على غير مقصوده ، أو تأخيره عن الوقت المناسب ليظهر الخلل ويكثر الزلل ، أو باخفاء جليل حسناته ، وإشهار حقير سيآته لتغيير القلوب عليه •

ومن دعاء علي ـ رضي الله عنه : « اللهم احفظني من عدو يرعاني، إن رأى مني حسنة دسها ، وإن رأى سيئة أشهرها • »

ثم إذا خيب الله آمالهم بنجاح سعي الوزير المشار إليه في إدارة المملكة رجعوا الى سلوك طريق الوشاية به عند الملك ، بأن يقولوا: «إنه استبد عليك ولم يبق لك من الملك غير الاسم» ، الى غير ذلك من أنباء الفساق التي قد تروج على العاقل ، قبل التبين ، خصوصا عند الدول المشرقية •

فكيف يتيسر للوزير والحالة ما ذكر أن يجري إدارة المملكة على مواقع المصلحة ، مخالفا بذلك من هو الخصم والحكم ، ولما في هاته الحالة الثانية من العوائق ، يضطر الوزير المذكور إما الى اختيار الحالة الأولى بالمجاراة ، وسلوك طرق المداراة ، وعاقبة ذلك وخيمة لعوده بالمضرة على الوطن ، والملك ، وعليه نفسه ، لأن استعذاب الموافقة على الشهوة في الحال الناشيء عنه خراب المملكة يستعقب مرارة الندامة في المآل • وإما الى الاستعفاء من الخدمة بالمرة ، وهو وإن لم يكن واجبا لحفظ ذاته ، فهو واجب للتخلص مما يتوقع من الموافقة على ما يؤول الى خراب / المملكة ، الموجب لعقاب الخالق ، ولوم [15]

(39) يلاحظ في هذه الفقرة (13) أن خير الدين يشير الى تجربته الخاصة بالمملكة التونسية فغلب استعماله لهذه المفردات : المملكة ـ الوطن ـ الملك ـ بينما غلب استعماله في اول المقدمة لهذه المفردات : الملة ـ الامة ـ فهو لم يستطع التخلص من « قوميته » أو « وطنيته » التونسية رغم محاولته وضع القضية في إطار الخلافة العثمانية •

المخلوق ، إذ الانسان ، ولو ساغ له المخاطرة بنفسه لمصلحة الوطن لا يسوغ له المخاطرة بديانته وهمته ؛ وما يجب عليه من الطاعة للملك ، والمحبة للوطن ، لا يحصلان إلا ببذل الجهد فى النصح بجلب المصالح ، ودرء المفاسد ، إن قدر عليهما ، وإن لم يقدر ، فبالامتناع من الموافقة على ما يضر ؛ فان لم يفعل كانت موافقته مع العلم بما ينشأ عنها من المضرة خيانة •

14 ـ استشهاد بالمنقول والمعقول على أن مشاركة أهل الحل والعقد لا تضيق من سعة تصرف الملك

فبان بهذا أن الممالك التى لا يكون لادارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد ، خيرها وشرها منحصر فى ذات الملك ، وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها • ويشهد لذلك حالة الممالك الأورباوية فى القرون الماضية ، قبل تأسيس القوانين ، فقد كان لهم فى ذلك الوقت من الوزراء من لهم شهرة الى الآن بتمام المعرفة والمروءة ، ومع ذلك ، لم يتيسر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتى استبداد الملوك المشار إليهما:

ولا يقال « إن مشاركة أهل الحل والعقد للأمراء فى كليات السياسة تضييق لسعة نظر الامام وتصرفه العام » لأنا نقول : هذا التوهم يندفع بمطالعة **الأحكام السلطانية** للماوردى (40)

---

(40) الماوردى : ابو الحسن على بن محمد (م• 450/1058) ولد بالبصرة وتوفى ببغداد سمى اقضى القضاة فى عهد القائم بامر الله العباسى وكان يميل الى مذهب المعتزلة ، من كتبه المطبوعة : **الاحكام السلطانية والولايات الدينية وادب الدنيا والدين** •
الزركلى ، **الاعلام** ، ٧ ، 146 ـ 147 •

فانه قال فيه عند بيان وزارة التفويض : « هى أن يستوزر الامام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه ، وإمضاءها على اجتهاده . وليس يمتنع جواز هذه الوزارة ، فان الله تعالى يقول : ــ حكاية عن نبيه موسى عليه السلام (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) (41) فاذا جاز ذلك فى النبوءة كان فى الامامة أجوز » . انتهى .

قلت : فاذا جاز تشريك الامام لوزير التفويض على الوجه المذكور ، ولم يعد مثل ذلك تنقيصا من تصرفه العام، كان تشريكه لجماعة هم أهل الحل والعقد فى كليات السياسة أجوز ، لأن اجتماع الآراء الى مواقع الصواب / أقرب . [16]

ولهذا لما جعل عمر ابن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ الخلافة شورى بين ستة قال : « إن انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الأربعة . (ميلا منه الى الأكثر لأن رأيهم الى الصواب أقرب . قاله السيد السند) (42) وإن تساووا فكونوا فى الحزب الذى فيه عبدالرحمان ابن عوف . »

على أن المولى سعد الدين (43) ــ فى **شرح العقائد** ــ لم يمنع

(41) سورة طه ، الآيات 29 ــ 32 .

(42) السيد السند : هو على بن محمد الجرجانى الملقب السيد السند الشريف (740 ــ 816/1339 ــ 1413) . له : **شرح المواقف للايجى ، والتعريفات** . **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط. 2 ، II ، 617 .

(43) التفتازانى : مسعود بن عمر (م. 793 / 1390) من ايمة العربية والبيان والمنطق ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) واقام بسرخس وابعده تيمورلنك الى سمرقند فتوفى بها . كتابه **شرح العقائد النسفية** فى الاصول وله « **المختصر** » اختصر به شرح تلخيص **مفتاح العلوم** للسكاكى وهو كتاب فى البلاغة . الزركلى ، **الاعلام** VIII ، 113 ــ 114 .

المشاركة فى تصرفات الامامة،وقصر منع التعدد على منشأ الفساد، حيث قال : ـ فى أثناء مبحث الامامة ـ « غير الجائز هو نصب إمامين مستقلين ، تجب طاعة كل منهما على الانفراد ، لما يلـزم عليه من امتثال أحكام متضادة • وأما فى الشورى فالكل بمنزلة إمام واحد • » انتهى • أى لأن تعدد الأشخاص لا ينافى وحدة الامامة التى مدارها على وحدة الأمر والنهى •

وقد سلم كلام السعد محشوه كالفاضلين عصام الدين وعبد الحكيم ، وقرره الخيالى (44) بقوله : « وقد يجاب أيضا » •

وبالجملة فكلهم معترف بصحة كلام السعد فى نفسه • وظاهر حينئذ أحروية جواز الشورى فى كليات السياسة بالمعنى الذى أشرنا إليه ، اذ هى دون الشورى فى سائر التصرفات • ثـم إن الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضييق لدائرة خطة الامامة وعموم تصرفها ، باعتبار أن نظر أهل الحل والعقد بمنزلة نظـر الامام ، ومراعاة كونه مظهرا له لاستبداده بتمشيته وإدارتـه ، مع ما يستبد به من التصرفات التى لا تقتضى المشاركة ، كاجراء الخلطة السياسية والمتجرية مع الأجانب ، ونصب أرباب الخطط وتأخيرهم ، وتنفيذ سائر الأحكام ، ونحو ذلك من التصرفـات التى هى محمل وحدة الآمـر •

---

(44)عصام الدين الاسفرائنى وعبد الحكيم السياكلوتى والخيالى هم شارحو شرح **العقائد** للسعد •
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• I ، IV ، 634 ـ 637 •

وهاك شاهدا آخر من كلام الامام ابن العربي (45) فانه قال في المغارم التي تؤخذ من الناس عند فراغ بيت المال : « إنها تؤخذ جهرا لاسرا ، وتنفق بالعدل لا بالاستيثار ، وبرأى الجماعة لا بالاستبداد » . انتهى .

ولزيادة البيان نستوضح ذلك بمثال : وهو أن مالك البستان الكبير ـ مثلا ـ لا يستغنى في / إقامته وتدبير شجره عن [17] الاستعانة بأعوان يكون لهم مزيد معرفة بأحوال الشجر وما يصلحه أو يفسده . فاذا اتفق أن رب البستان أراد قطع شىء من فروع شجره لما رأى في ذلك من تقوية الأصول وتنمية ثمارها فلم يوافقه أعوانه على ذلك ، علما منهم ـ بمقتضى قواعد الفلاحة ـ أن القطع في ذلك الوقت مما ينشأ عنه موت الشجرة من أصلها ، فتعطيل إرادة المالك في ذلك لا يعد تضييقا لسعة نظره ، وعموم تصرفه في بستانه . وقد يكون مستند الأعوان في تعطيل إرادته أمراشرعيا ، كما إذا أراد بيع الثمرة قبل بدو صلاحها ـ مثلا ـ فأشاروا عليه بأن ذلك لايرضاه خالق الشجر الذى هو المالك الحقيقى ؛ فيلزمه الرجوع لرأيهم في المثالين ، وإلا توجه اللوم إليه واستحق أن يحجر عليه . وهل يقال حينئذ : « إن ذلك تضييق على رب البستان ؟ بل إن التوسعة عليه مضادة للحكمة الالهية في ايجاد العالم ، واستعمار أرضه ببنى آدم . هذا مع أن منفعة البستان مختصة بربه . أما إذا كانت له ولغيره ، أو منزلته فيها

(45) انظر عنه أعلاه : تعليق (31) .

ـ كما قال عمر رضى الله عنه ـ « كمنزلة والى اليتيم » فأحرى أن لا يتوهم أن ذلك تضييق عليه •

ومعلوم أن تصرف الامام فى أحوال الرعية لا يخرج عن دائرة المصلحة ، وأن القيام بمصالح الأمة وتدبير سياستها مما لا يتيسر لكل أحد ، فتعطيل الارادة حينئذ إنما يقع فى شىء خارج عن دائرة التصرف المسوغ له •

فتحرر بما شرحناه اندفاع ذلك القيل ، وأنه لا مانع من التشريك على الوجه المذكور • ومن لاحظ جانب المقتضى ـ كما لاحظه الشيخ ابن العربى ـ فيما قدمناه عنه ، وهو ملحظنا فى جميع ما أسلفناه ، لم يتوقف فى الجزم بتعينه لاسيما فى هذا الزمان الذى قل فيه العرفان ، وكثر الطغيان •

وقد كانت وقعت بينى وبين أحد أعيان أوربا مكالمة أسهب فيها بمدح ملكهم ، وذكر ما له من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال : « إنه متقيد بطبعه / وعقله عن سلوك غير منهاج الصواب » [18] فقلت له : « كيف تشاحونه فى الحرية السياسية ، وترومون مشاركته فى الأمور الملكية ، والحال أنكم تسلمون له من الكمالات مالا يحتاج معه الى المشاركة ؟ » فأجابنى بقوله : « من يضمن لنا بقاءه مستقيما واستقامة ذريته بعده ؟ » (46) •

(46) من قوله : « وقد كانت وقعت بينى وبين احد اعيان اوربا •• » الى قوله : « من بعده » اورد هذه الفقرة ابن ابى الضياف منسوبة الى خير الدين ،

15 ـ عواقب الاستبداد والعمل بالرأى الواحد

ومما يناسب سوقه هنا ما ذكره المؤرخ الشهير (تيارس) (47) ـ أحد أعضاء مجلس النواب بفرنسا الآن، وكان وزيرا للملك لويز فليب ـ (48)، فى آخر تاريخه المشهور ـ عند ذكر عواقب الاستبداد ـ من أن العمل بالرأى الواحد مذموم، ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف، بعدما ترجم لنا بوليون الأول بأوصافه الخاصة، وألحقه فى السياسة بأفراد الرجال الذين جاد بهم الدهر في القرون الماضية، حتى وصفه بهمة إسكندر الرومى، وقيصر الرومانى، وذكاء أنيبال الافريقي ومعارفه

اتحاف، ا، 33 قال: « سمعت من صاحبنا الوزير الذكى الفاضل ابى محمد خير الدين ـ وقد طال مقامه فى باريز لخدمة ملكية ـ قال:
« فاوضت بعض اعيانها ـ وقد طفق يثنى على سلطانهم فى هذا العصر وهو نابليون الثالث ـ حتى قال: انه من افراد الملوك، المقيدين ـ بطباعهم وعقولهم ـ عن غير المصلحة، لا يدانيه فى ذلك احدمنوزرائه، فقلت له: حيث كان بهذه الدرجة، فلم يشاحونه فى اعتبار ما لا يضر من القانون؟ فقال لى مبتسما: نعم هو بهذه الصفة، وهل يضمن احد انه يدوم على هذا الخلق النفيس، او يكون ابنه مثله فى هذا الوصف؟ » اهـ.

(47) تيارس: THIERS ‏(1797 ـ 1877) من رجال السياسة والادب فىفرنسا ساهم فى ارجاع الملوكية سنة 1830 وسمىوزيرا للداخلية (1832 ـ 1834) ورئيسا للوزراء (1836 ـ 1840). من تأليفه: **تاريخ القنصلاتو والامبراطورية** HISTOIRE DU CONSULAT ET DE L'EMPIRE وهذه الصفحة مقتطفة من اخر الجزء XX.

(48) لويز فيليب: LOUIS PHILIPPE ملك فرنسا (1830 ـ 1848) كان محافظا فى سياسته واستوزر تيارس وقيزو.

الحربية ، الى أن قال ــ مخاطبا للفرنسيين : « تعالوا نمعن النظر فى أفعال هذا الملك التى هى فى الحقيقة أفعالنا ، فيستفيد منها من كان جنديا كيف ينبغى أن تقاد الجيوش ، ومن كان من رجال الدولة معرفة كيف ينبغى أن تكون إدارة المملكة ، وكيف ينبغى أن يرتفع شأنها ، بدون خروج عن دائرة التواضع والرفـــق ، اذ المعاملة متى لم تكن مصحوبة برفق وقناعة لا تتحمل ، وربما يفضى ذلك الى أسباب الاضمحلال ، كما أفضت إليها سيرة المذكور الذى هو أقل البشر قناعة » ٠

« فبالجملة نعتبر بغلطاته فنتجنبها ، ثم نستفيد ــ معاشر أبناء الوطن ــ تربية أخيرة لا يسع نسيانها ، وهى أنه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لانسان واحد ، بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده ، ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلا ، ونحن وإن كنا لسنا ننتقد فعل نابوليون فى افتكاك فرنسا من أيدى الديركتوار (49) ــ بعد أن كانت أشرفت على الضياع فى أيديهم ــ لكن نرى / أن [19] وجوب استخلاص المملكة من تلك الأيدى الضعيفة الخاســرة ، لا يكون حجة فى إسلامها إسلاما مطلقا ليد قاهرة متهورة ، لا تبالى بشىء ولو كانت هى اليد المنتصرة فى زيفلى ومرنقو » ٠

« على أنا نقول إن كان هناك أمة تعذر عذرا ما فى تسليم أمرها

---

(49) الديركتوار : LE DIRECTOIRE حكومة برجوازية قامت اثر الثورة الفرنسية دامت من 1795 الى 1799 وكانت متركبة من خمسة اعضاء يحكمون بالتعاون مع مجلسين ٠

لشخص واحد ، فلا تكون غير الأمة الفرنساوية فى ذلك الوقت ، أعنى سنة ثمانمائة وألف (1800م٠) حين استرأست نابوليون المذكور عليها ، والناس إذ ذاك فوضى لا سراة لهم،ولم يكن المشير عليها بذلك قاصدا مجرد تخويفها لالجائها الى قيود العبودية ، بل كان الخوف متحققا بالمشاهدة » ٠

« فواحسرة تلك الأمة على ألوف من النفوس البريئة صرعت بالمجزرة ، وألوف كذلك خنقت بسجون الدير ، وألوف أغرقت بوادى لوار (50)٠ (وبالجملة فقد حل بأولئك المتمدنين من أفعال المتوحشين أمر فظيع روعهم وأرعد فرائصهم ولم يزالوا بعد سكون تلك الثورة القاسية رائجين بين السيافين المولعين بقطع الرؤوس ، وهم جماعة الديركتوار ، وبين الجهال المتغربين عن وطنهم ، وهم شيعة الملوك الذين كانوا يرومون باراقة الدماء إرجاع فرنسا الى الحالة القديمة التى كانت قبل الثورة ، مع ما طرأ عليهم فى أثناء ذلك الاضطراب من ظهور سيف الأجنبى متهددا ، فبينما هم فى لجج الهرج إذ أقبل من المشرق الشاب المنصور الذى ذلت له صعاب الأمور ، العاقل ، المتواضع ، المغرى باستمالة قلوب البشر ، وهو نابليون المشار اليه » ٠

« أفتراهم والحالة هذه لا يعذرون فى إلقاء زمامهم بيد المذكور ؟ بلى ! » ٠

(إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا   فلا يسع المضطر إلا ركوبها)(51)

(50) la Loire

(51)بحر الطويل والبيت تضمين من خير الدين ٠

« ومع ذلك فلم تمض إلا سنوات قليلة إذ انقلب ذلك العاقل مجنونا بجنون غير مماثل لجنون أرباب الثورة ، والجنون فنون ، فانه تقرب بمليون من النفوس فى ميدان الحرب ، وحمل أهل [20] أوربا على التعصب / على فرنسا حتى بقيت مغلوبة ، غريقة فى دمائها ، مسلوبة من نتائج انتصارها مدة عشرين سنة ، بحيث صارت على حالة يرثى لها ، ولم يبق لها أن تستثمر بعد ذلك إلا ما كان مزدرعا فيها من بذر التمدن الوقتى . فمن كان يظن أن عاقل سنة ثمانمائة وألف (1800 م.) يجن فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة وألف (1812 م.) ؟ »

« نعم كان يمكن توقع ذلك ، لو أمعنوا النظر فى أن الذى له القدرة التامة ، بحيث يستطيع أن يفعل كل ما يريد ، معه داء لا دواء له ، وهو الشهرة الداعية لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحا » .

« إذا تقرر هذا فعلى أبناء الوطن أن يتأملوا سيرة المذكور ، ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطته والأهم أمر واحد وهو أن لا يطلق أمر الوطن لانسان واحد ، كائنا من كان ، وعلى أى حالة كان » .

« وقد ختمت هذا التاريخ الطويل ، المستوعب لأحوال نصرنا وانهزامنا ، بهذه النصيحة بل الصيحة الصادرة عن صميم فؤادى ، راجيا بلوغها الى قلب كل فرنساوى ، ليتيقن جميعهم أنه لا يليق بهم بذل حريتهم إلى أحد ، كما لا ينبغى لهم الافراط فيها حتى تنتهك حرمتها » . انتهى المراد منه .

16 ـ النفس مجبولـة على الحريـة

وفي حكمة أرسطو أن من الغلط الفادح أن تعوض الشريعة بشخص يتصرف بمقتضى إرادته ·

فاذا تأملت كلامي هذين الحكيمين ، وما تضمنه أولهما من المشاحة في الاستبداد مع كون المستبد من المشهود لهم بمزيد العرفان والأهلية ، تعرف بذلك ما جبلت عليه نفوس القوم من حب الحرية ، والامتناع من ظلم الملوك ، كما يشهد به كلام سيدنا عمرو بن العاص (52) ـ رضي الله عنه ـ في حديث مسلم (53) الذي رواه المستورد القرشي ـ رضي الله عنه ـ عنده ، فقال : « سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول « تقوم الساعة والروم أكثر الناس » · فقال عمرو : « أبصر ما تقول » ، قال : « أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ » قال : « لئن قلت / ذلك ، إن فيهم لخلالا أربعا : إنهم [21] لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة ، وأمنعهم من ظلم الملوك » (54) ·

---

(52) عمرو بن العاص : (م· 43/663) قرشي اسلم (8/29) من اشهر الصحابة ، فتح مصر (21/242) وأسس الفسطاط ، ناصر معاوية على علي في صفين ·
دائرة المعارف الاسلامية ، ط· 2 ، ا ، 446 ·

(53) مسلم بن الحجاج (206 ـ 261 / 821 ـ 875) صاحب « **الصحيح** » وهو مع البخاري من اشهر المحدثين ·

(54) من قوله « كما يشهد به كلام سيدنا عمرو بن العاص » ·· الى قوله : « من ظلم الملوك » اورد ابن ابي الضياف نفس الاستشهاد بقول عمرو بن العاص **اتحاف** ا ، 32 ـ 33 ، عند الحديث عن الحكم المقيد بقانون ·

17 ـ ما كان للامة الاسلامية من الثروة والشوكة والمعارف نتيجة تاسيس العـدل

هذا ، وقد كانت الأمة الاسلامية وقت احترامهـا للأصـول الشرعية ـ المشار الى بعضها سابقا ـ بالمكانة التامـة مـن الثروة والشوكة المحروستين بسياج حسن تدبير أمرائهـا وعدلهـم ، واستجلابهم رضى الله تعالى بتعمير أرضه ٠

نقل صاحب **كشف الظنون** (55) : أن بعض العلماء قال : « لو علم عباد الله رضى الله فى إحياء أرضه لم يبق على وجه الأرض موضع خراب » ٠

ومن حكم أرسطو : « العالم بستان سياجه الدولة ، والدولـة سلطان تحيا به السنة ، والسنة سياسة يسوسها الملك ، والملك نظام يعضده الجند، والجند أعوان يكنفهم (56) المال، والمال رزق تجمعه الرعية ، والرعية عبيد يكنفهم العدل ، والعدل مألوف وبه قوام العالـم » ٠

فقد تضمنت هذه الكلمـات الحكميـة الاشارة ـ بجعـــل العالم بستانا ـ الى تشبيه الرعية بشجر ثمرته المال ، وحارسـه

(55)صاحب **كشف الظنون** : حاجى خليفة (1608 ـ 1670) تركى من مؤلفاته الموسوعة المشهورة : **كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون** ، وهو معجم لاسماء المؤلفات العربية ، ذكر فيه نحو 14500 كتاب واحوال مؤلفيها ٠

(56)فى الطبعة الاولى يكلفهم وهو خطأ مطبعى لا يوجد فى النسخ المخطوطـة للكتـــاب ٠

الجند ، وأن استقامة الدولة بها حياة السنة السياسية ، التى هى مادة حياة بستان العالم .

ومن آثار ثروة الأمة الناتجة عن احترام أصول العدل ما حكاه المقريزى (57) فى **الخطط** ، قال :

« لما سار المأمون (58) فى قرى مصر ، وكان يقيم بالقرية يوما وليلة اجتاز بقرية يقال لها طاء النمل ، ولم يقم بها ، فتوسلت إليه عجوز كبيرة بالقرية فى الاقامة ، فأسعفها . وأحضرت من لوازم نفقة الخليفة وجنوده ، ما عظم لديه أمره وأهدت له حين عزم على الرحيل عشرة أكياس من سكة الذهب ، كلها ضرب عام واحد ، فازداد تعجبه ، وقال . « ربما يعجز بيت مالنا عن مثل هذا » ، ورد عليها مالها رفقا بها ، فلم تقبل . وقالت « هذا ـ مشيرة إلى الذهب ـ من هذه ، أى طينة الأرض ، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين » ، وعندى من هذا شىء كثير . » / فقبله وأعظم جائزتها . » انتهى بتصرف واختصار . [22]

حكى أيضا أن خراج مصر بلغ فى زمن الخلفاء الراشدين أربعة

---

(57) المقريزى : (1364 ـ 1244) نسبة لحارة المقارزة فى بعلبك، مؤرخ قضى أكثر ايامه فى القاهرة ، تولى فيها الوظائف . مؤلفاته **المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار (الخطط المقريزية)** ذكر فيه ما يتعلق باخبار مصر وأحوالها المدنية والاجتماعية .

(58) المأمون : (833 ـ 876) ابن هارون الرشيد ، احب الفرس فلم يكسب ود العرب ـ غلب البيزنطيين قرب طرسوس ، انحاز الى مذهب المعتزلة وفى عصره ازدهرت العلوم والفنون الاسلامية .

عشر مليون دينار ، وقدرها ــ بسكة الوقت ــ نحو سبعمائة مليون فرنك ، وهذا المبلغ دخل إيالة واحدة ، مع الانصاف فى الجباية ·

وحكى ابن خلدون في **المقدمة** أن المحمول الى بيت المـال ، فى أيام الرشيد العباسى ، بلغ الى سبعة الآف وخمسمائة قنطار ذهبا ، وقدر ذلك تقريبا ألف وأربعمائة مليون فرنك · وهذا دون ما يؤخذ من العين ·

ويدل على القوة العسكرية الناتجة من عدل الشريعة ، واتحاد الامة ، ما تيسر لهم من الفتوحات التى يشهد بهـا المؤرخـون من الفريقين ، ويصدقها العيان ، ففى **قرة العيون** الذى ترجمه الشيخ أحمد الزرابى (59) المصري مـن اللغة الفرنساويـة ، وعد من حسنات المطبعة المصرية ، أن الاسلام فتح فى ظـرف ثمانين سنة من الأقاليم أكثر مما فتحه الرومان فى ثمانيةقرون·

وبما نقلناه يعلم ما كانللأمة الاسلامية من نمو العمران، وسعة الثروة ، والقوة الحربية الناشئة عن العدل ، واجتماع الكلمة ، وأخوة الممالك واتحادهـا فى السياسـة ، واعتنائها بالعلـوم والصناعات ، ونحوها من المآثر العرفانية التى ظهرت فى الاسلام،

(59) مصطفى السيد احمد الزرابى : (لا الزرافى وهو خطأ مطبعى كمـا فى الطبعة الاولى) (م· 1854) ، كان من الذين وجههم محمد على فى بعثات علمية الى فرنسا وعمل بعـد رجـوعه كمترجم حكـومى ، صاحب : **قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون** ط· بولاق 1262 ·
انظر : الزركلى ، **الاعلام** ، VIII ، 136 ·
سركيس ، **معجم** ، 965 ·

ونسج الأورباويون على منوالها ، وشهد المنصفون منهم بفضل التقدم فيها للأمة الاسلامية ·

18 ـ شهادة النصارى على ذلك : تاريخ دروى

ففي تاريخ دروى (60) وزير المعارف العمومية بفرنسا الآن ما معناه :

« بينما أهل أوربا تائهون في دجى الجهالة ، لا يرون الضوء إلا من سم الخياط (61) ، إذ سطع نور قوى من جانب الامة الاسلامية ، من علوم أدب ، وفلسفة ، وصناعات ، وأعمال يد ، وغير ذلك ، حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند (62) ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف · ومنها انتشرت في الأمم . واغتنم منها أهل [23] / أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا علمية يأتي بيانها » ·

---

(60)فكتور دروى : VICTOR DURUY (1811 ـ 1894) مؤرخ ووزير التعليم بفرنسا من 1863 الى 1869 ، ثم عضو بالاكادمية الفرنسية ابتداء من 1884ـ اقتطف خير الدين هذه الصفحات من كتابه : **تاريخ القرون الوسطى منذ سقوط الامبراطورية الغربية الى وسط القرن الخامس عشر** : HISTOIRE DU MOYEN AGE DEPUIS LA CHUTE DE L'EMPIRE D'OCCIDENT JUSQU'AU MILIEU DU XVe SIECLE.

ط · باريس 1867 ـ ص· ص : 112 ـ 128 (فصل حضارة العرب) ·

(61)سم الخياط : ثقب الابرة ·

(62)سمرقند : مدينة في الجمهورية الازبكية السوفياتية · اكثر سكانها مسلمون خربها جنكس خان (1229) ثم استولى عليها تيمورلنك (1370 ـ 1405) وجعل فيها كرسى ملكه وبها قبره ·

وفيه يقول : « كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين : الحميرية فى اليمن ، والقرشية فى الحجاز . وبالأخيرة جاء القرآن . (ولا يخفى عليك آن الذى يقابل الحميرية هو المضرية ، وإن وقع الاجماع فى القراءة على خصوص القرشية) ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة ، وما دخلت العجمة فى اللسان إلا بدخول الأمم فى الاسلام ، وتطاول السنين » .

« وللغة المذكورة من الاتساع وسعة المجال ما لا يخفى على مثافنها (63) ، لا سيما فى الأشياء التى بها قوام المعيشةفىالبادية، أو تتكرر رؤيتهم لها ، أو تكثر حاجتهم إليها ، فقد يكون للشىء الواحد عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله . وبكثرة الترادف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية ؛ إذ يقال إن للعسل عندهم ثمانين اسما ، وللثعبان مائتين ، وللأسد خمسمائة وللجمل ألفا، وكذا السيف، وللداهية (64) نحو أربعة آلاف اسم . ولاجرم أن استيعاب مثل هذه الأسماء يستدعى حافظة قوية . وللعرب من قوة الحافظة ، وحدة الفكر ما لا يسع أحدا إنكاره ؛ فمن مشاهيرهم حماد الراوية ، (65) الذى ذكر يوما للخليفة

---

(63) مثافنها : مُن ثافن : لازم الشىء حتى يعرف حقيقته .

(64) الداهية : المصاب الجلل .

(65) حماد الراوية : ولد فى الكوفة سنة 694/75 ومات بها سنة 775/156 ، اشتهر بقوة حفظه للشعر الجاهلى والاسلامى له الفضل فى جمع المعلقات انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** . ط 2 ، III ، 138 ــ 139 .

الوليد (66) أنه ينشد له في الحال مائة قصيدة ، (والقصيدة من عشرين الى مائة بيت) فتعب المستمع قبل المنشد » .

الى أن قال : « ولم يكن للعرب في أول الأمر إلا تلك الآداب . ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات ، واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف ، فأخذوا من اليونان تآليف أرسطو وشرحوها بامعان نظر ، لكن من سوء البخت لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الأصلية ، وإنما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام ، فهم ترجموا المترجمة ، فلذلك [24] لما نقلها الفيلسوف العربي / حفيد ابن رشد (67) الى أوربا في القرون المتوسطة ، وجد بها من التحريف أكثر مما وقع فيها أولا » .

« وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى . والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية . وفي أوائل القرن التاسع المسيحي أمر الخليفة المذكور عالمين من

---

(66) الوليد بن يزيد : الخليفة الاموى الحادى عشر (743 — 744) مات مقتولا وكان شاعرا واديبا ظريفا .

(67) حفيد ابن رشد : أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد (520 — 595 / 1126 — 1190) لقب بالحفيد لان جده كان قاضيا مفتيا مالكيا بقرطبة وكذلك ابوه من بعده . كان يلقب ايضا بشارح ارسطو . ولد بقرطبة ومات بمراكش ، من اشهر تآليفه : **فصل المقال وتقريب ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال وتهافت التهافت** (يرد فيه على الغزالي) **وتفسير الميتافيزيقا لارسطو** .
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ، III ، 944 .

فلكية بغداد ، أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خط الطول ، بصحراء سنجار (68)،ويزناها ليثبت بذلك تكوير الأرض بالمشاهدة ، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي الخط المقيس » .

« وقد شرح العرب **كتاب إقليدس** (69) ، وهذبوا **زيج بطليموس** (70) ، وحرروا حساب تعريج منطقة البروج ، كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال ، والفرق بين السنين الشمسية والزمنية ؛ فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية عدة دقائق . واخترعوا للتحريرات آلات جديدة . الى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية . ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوربا بكثير محل رصد عجيب » .

« وأما ما ينسب للعرب من اختراع الجبر والمقابلة ، والأرقام الحسابية المسماة عندنا بالأرقام العربية ، فلم يثبت بل إنما تعلموا ذلك مع فلسفة آرسطو بالتلقي من غيرهم . وهي من

---

(68) سنجار : مدينة شرقي سوريا قريبة من الموصل .

(69)اقليدس : Euclide رياضي يوناني كان يدرس في عهد بطليموس ا (القرن الثالث قبل المسيح) مشهور بكتابه في الهندسة : **الاصول** .

(70)زيج بطليموس : زيج ازياج : كتاب في الجداول الفلكية . انظر ــ ابن خلدون ، **المقدمة** ، 905 ــ 908 (الازياج) .
بطليموس : فلكي يوناني عاش في القرن الثاني بعد المسيح صاحب كتاب في الرياضيات (**المجسطي**) وكتاب في الجغرافيا يذهب فيه الى ان الارض محور العالم .

العلوم التى وجدوها باسكندرية • ويمكن أنهم نقلوا إلينا على ذلك الوجه البوصلة ، أى بيت الابرة والبارود الذى تعلموه من أهل الصين • كما يعترف لهم أهل أوربا بمزية اختراع الكاغد من القماش ، وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها ، وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده » •

« وقد اشتهر العرب أيضا بمعرفة الطب الذى كانوا تلقوه من كتب اليونان ، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس (71) شاهدة بما ذكر • ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا فى وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير ، مثل أبى على بن سيناء (72) المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرية ، / وابن رشد المذكور • [25] وقد بلغوا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم فى ذلك الوقت يرغبون فى معالجتهم إياهم ؛ كما يحكى أن بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء ، فاشتهى أن تكون معالجته بقرطبة ، وحصل من لطف الخليفة على الاذن فى أن يذهب ويداويه المسلمون ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه ، واستعمال الرواند (73) وأدوية كثيرة » •

---

(71) جالينوس : GALIEN طبيب يونانى (131 ـ 201 م) ائتم العرب بطبه •

(72) ابو على بن سينا (370 ـ 428 / 980 ـ 1037) طبيب مسلم فارسى الاصل من مؤلفاته : **القانون** فى الطب **والشفاء** فى الفلسفة **والامتيازات والتنبيهات** فى المنطق وله فى النفس القصيدة المشهورة :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

إنظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط. 2 ، III ، 965 ـ 970 •

(73) الراوند : نبات عريض الورق يؤكل ، خاصيته الطبية اطلاق البطن وتقوية المعدة •

« ومن العلوم التى لهم الفضل فيها الجغرافيا • وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ، ورغبتهم فى الأسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم ، أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة ، التى لم يصل إليها أهل أوربا ، أو نسوها بعدما كانت معروفة لهم • ومن مشاهيرهم فى هذا الفن أبو الفداء (74) ، والمسعودى (75) والادريسى (76) وهذا الأخير هو الذى استدعاه روجير ملك صقلية ، وألف عنده كتابه الغريب الذى سماه نزهة المشتاق » •

« وأما علم التاريخ فمن تآليفهم فيه تاريخا المسعودى وأبى الفداء المذكورين ، وتاريخ المقريزى ، غير أنها تواريخ مختصة بأبناء جنسهم ، وقل أن يوجد بها الكريتيك » (بمعنى أنهم لا يسبرون منقولاتهم بمسبار العقل ــ كما أشار الى ذلك ابن خلدون ــ) « ولا يخرجون عن دائرة الوقائع المجردة » • (ولا

---

(74) ابو الفداء الملك المؤيد اسماعيل بن على من سلالة صلاح الدين الايوبى (672 ــ 732 / 1273 ــ 1331) شارك فى الحروب ضد الصليبيين واصبح ملك حماة صاحب كتاب فى الجغرافيا **تقويم البلدان** وكتاب فى التاريخ : **مختصر تاريخ البشر** •

انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، ا • 122 ــ 123 •

ر• بلاشير • **الجغرافيون العرب** ، 290 •

(75) المسعودى (م• 345 / 956) ولد ببغداد صاحب **مروج الذهب** وكتاب **التنبيه** •

انظر : ر• بلاشير : **الجغرافيون العرب** ، 203 ــ 204 •

(76) الادريسى (م• 560 / 1166) من مواليد سبتة تعلم بالاندلس وخدم الملك النرماني روجار II بصقلية صاحب كتاب فى الجغرافيا : **نزهة المشتاق فى اختراق الافاق** المشهور **بكتاب روجار** انظر : ر• بلاشير **الجغرافيون** ، 190 ــ 192 •

سبب لذلك إلا ما حكاه سدليو فى **تاريخه** الآتى ذكره (77) من أن وجود التسلط من الملوك في بلدان المشرق ، هو الذى كان يمنع المؤرخين من شرح جميع الوقائع ؛ ببيان أسبابها ، للخطر الذى يلحقهم فى حكاية الحق) .

« وأما صناعة الأرشتكتور أى هندسة البناء فىاصطناع الهيئات فلم يشتغل العرب منها إلا بما يرجع الى إتقان الأبنية ؛ حيث كانت شريعتهم تمنع التصوير . على أن البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة ، فالأصل عندهم فى الأقواس المرفوعة على الأسطوانات أن تكون أكبر من نصف دائرة ، وهذا الشكل أخذوه من أبنية البزنتيين ، وهم أمة من اليونان » .

[26] / « واعتاض العرب عن الصور الدهنية والمجسدة التزيين بالنقش المسمى عندهم بنقش حديدة . وكان فى الأصل رسوما لها مدلولات ، ثم صار مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التى يمكن أن يصور منها أشكال جيدة ظريفة . وكثيرا ما نتعجب من إتقان تلك الحروف حين نراها على الزرابى والأقمشة المشرقية » .

« ومن مآثر العرب اصطناع الجوابى والفوارات ، والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر ، التى كانوا يجلبونها من المشرق ومن مقاطع إسبانيا الجنوبية . ومن أشهر أبنيتهم الجامع

---

(77) انظر أسفله : تعليق (83) .

العظيم الذى بناه عبد الرحمان الأول (78) بقرطبة • وكان بنه ألف وثلاث وتسعون اسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل • ثم قصر الزهراء الذى لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم ، وقد بناه عبد الرحمان الثالث (79) على شاطىء الوادى الكبير ، وبه ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزئبق ، ثم ينعكس فى قصعة من المرمر • ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التى هى فى آن واحد قصر وحصن ، وبها عدة أمور تصلح أن تكون مثالا للطافة البناء وحسنه ، خصوصا وسطها المسمى ببطحاء الأسود »•

« وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها ، فى سائر الأوقات • ثم لما امتدت سلطنتهم من البيرينى وهى جبال بين فرنسا وإسبانيا ، إلى جبال هملاى (التى بأقصى شمال الهند) ، صاروا أكبر تجار الأرض » •

« وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها ؛ إذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه ، وتوزيعها بلطف فىمزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة ؛ فسيرتهم فى ذلك، السائر بها الى الآن أهل

---

(78)عبد الرحمان الاول (113 ـ 172 / 731 ـ 788) أو الداخل • فر من مذابح العباسيين وأسس بقرطبة الدولة الاموية (138 / 756) ستمى صقر قريش لباسه انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، I ، 84 ـ 85 •

(79)عبد الرحمان الثالث (300 ـ 350 / 912 961) او الناصر ثامن امراء بنى امية بالاندلس • وحد صفوف البربر والعرب وعاشت الاندلس فى عهده عصرها الذهبى •

انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، I ، 86 ـ 87 •

بلنسية ، روضة إسبانيا ، صالحة أن نجعلها أسوة نقتدى بها فى فلاحتنا الفرنساوية » ٠

« وأما الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة ، حتى صاروا من أحذق أربابها ٠ وكفاهم شهرة فى ذلك سلاح طليطلة التى كانت تحت سلطانهم باسبانيا ، [27] / وحريريات غرناطة ، والجوخ (80) الأزرق والأخضر بمدينة كونسة ، والسروج والحروج والجلود بقرطبة ٠ وكان أهل أوربا يشترون هذه المهمات بأعلى ثمن ، ويتنافسون فيها مع شدة نفرتهم من أهلها المخالفين لديانتهم » ٠

« وبالجملة فقد بلغت إسبانيا من العمران الى هذه الشهرة ، فى القرون الأولى من مدة الخلفاء ! حيث كانت الفتن عنها أسكن من المشرق ٠ وقد تزايد نمو سكانها الى أن صار بمدينة قرطبة وحدها نحو مائتى ألف (200٠000) دار ، وستمائة (600) جامع، وخمسين (50) مارستانا ، وثمانين (80) مكتبا عموميا ، وتسعمائة (900) حمام ، ومليون (1٠000٠000) نفس » ٠

« فهاك برنامجا إجماليا للتمدن الذى نشره العرب من شاطىء تاج (81) وهو واد كبير باسبانيا الى وادى هندوس بالهند تمدنا

(80) الجوخ : (فارسية) نسيج من الصوف ٠

(81) تاج : (le Tage) وهو اطول نهر (1006 كلم) يبدأ من أسبانيا ويعبر البرتغال ويمتد الى المحيط الاطلسى وهو يختلف عن الوادى الكبير : (Guadalquivir)

يكاد يخطف نوره الأبصار ، ولكنه لسرعة نموه كان معرضا للعطب » •

قال : « وتمدن أوربا اليوم كان أبطأ في النمو ، ولكنهم حصلوا بعد انقلابات وكسوفات على ما يمكن به طول البقاء المعتاد في كل بطيء النمو » •

وقال في بيان امتداد ملك العرب : « قد امتد ملكهم في ظرف مائة (100) سنة من ظهور الاسلام ، مثلما يمتد عظيم الخلقة فاتحا ذراعيه لالتقاط كل شيء • فبلغ من أقصى الهند الى جبال بيرينى الكائنة بين فرنسا وإسبانيا • وقدر امتداد هذا الملك من سبع عشرة (1700) الى ثمان عشرة مائة (1800) فرسخ (82) •ولم يبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية ، وقد استمرت الديانة واللسان وأحكام القرآن نافذة في غالب البلدان التى فتحوها • واغتنمت منهم أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات وصنائع وعلوما ، وإن كان منها ما أخذوه من غيرهم ، لكن لهم الفضل في تهذيب ذلك وتخليده بعدهم » •

« ثم في النصف الثاني من القرن العاشر المسيحى توجه الراهب

---

(82) فرسخ (فارسية) : وحدة مسافة وهى مسافة ستة كليمترات تقريبا وهى في القديم مسافة ساعة زمنية سيرا على الاقدام • بالفرنسية (Parasange) انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، II ، 832 •

الفرنساوى جربير (83) ، الذى جلس على الكرسى البابوى باسم سلفستر الثانى ، الى مسلمى إسبانيا ، وقرأ هناك علـم الجبـر والفلك ، وأجرى لأهل أوربا النصرانية منهلا جديدا من معارف [28] / العرب ، وجمع خزانة جليلة من الكتب ، وصنع كرتى السماء والأرض » • انتهى ما أمكن تلخيصه من كلام الوزير المشار اليه •

19 ـ شهادة سدليـو

وفى **تاريخ العرب** لسدليو (84) ، مدرس علوم التاريخ باحدى مدارس فرنسا ، وأحد أعضاء جمعية المعارف بها ما معناه :

« إنى منذ مدة طويلة تنيف على العشرين سنة مشتغل ببيان مزايا العرب على غيرهم من الأمم ، فيما يتعلق بالعلوم والتقـدم فى التمدن مدة قرون متطاولة ، من أيام اليونان بالاسكندرية الى أيام العصر الجديد • فلزمنى أن أجمع ما تيسر لى من الأدلة على عظم هذه الأمة التى لم يعرف قدرها الى الآن ، وأعرضه على مـا لغيرى ممن تكلم عليها ، فيتأسس تاريخا لها عموميا وان كانذلك مما لا تفى به طاقة إنسان واحد » •

---

(83) جربيـر : سلفستـر الثـانى : SYLVESTRE II (GERBERT) البابا من 999 الى 1003 •

(84)سدليو : SEDILLOT (1808 ـ 1887) مؤرخ وكاتب عام للكوليـج دى فرانس ابتداء من 1832 ثم كاتب عام لمدرسة اللغات الشرقية بباريس • صاحب تاليف **تاريخ العرب** ، ط• باريس 1854 ، HISTOIRE DES ARABES

« وقبل الشروع في ذلك ، على وجه الاختصار ، يلزمني أن أندب الناس الى التأمل في أحوال هذا الجنس ، الذى كان كثير الفتوحات ، عديم الاستيلاء عليه في سائر مغازيه ، ولم يزل مدة أربعة آلاف (4000) سنة على حال واحد في اكتساب الفضائل والمزايا التى تميز بها على غيره ، والتراتيب والعادات الخاصة بـه » .

« ومن حجج ذلك أن الوقت الذى كانت فيه الممالك القديمة في مبدإ تكوينها ذات حيرة ، كان هذا الجنس إذ ذاك قائما بنفسه ، قادرا على الاغارة على غيره ؛ فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة عشر (19) قرنا قبل التاريخ المسيحى . ثم بعد أن رجع الى حدوده الأصلية دافع عن نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام ، وامتنع من تسلط قيرس (85) وإسكندر ، ودام في استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الدنيا » .

« وبعد ظهور النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى جمع قبائل العرب أمة واحدة ، تقصد مقصدا واحدا ، ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج في إسبانيا الى نهر الغانج في الهند . ورفعت على منار الاشادة أعلام التمدن / في أقطار [29] الأرض أيام كانت أوروبا مظلمة بجهالات أهلها في القرون

---

(85) قيرس : CYRUS ، ملك الفرس (558 ـ ق م) ابن قمبيز ، كان مسيطرا على آسيا الغربية .

المتوسطة ؛ كأنها نسيت بالمرة ما كان عندها من التمدن الروماني واليوناني » ٠

« وبعد انقسام ممالك الاسلام لم تتعطل العلوم والآداب التي نتجت على أيديهم ، فان خلفاء بغداد وقرطبة ومصر ، وإن ضعفت قوتهم الملكية والسياسية ، فان سلطنتهم الروحانية لم تزل قوية مطاعة في كل جهة لاجتهادهم في توسيع دوائرها بقدر طاقتهم » ٠

« وقد نال النصارى، الذين استطاعوا إخراج العرب من إسبانيا بالخلطة معهم في الحروب ، معارفهم وصنائعهم واختراعاتهم ٠ ثم المغل والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانواخدمة (*) في العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب » ٠

« والى الآن لم نطلع في أوربا على الأصول ــ التي تبين لنا عادات العرب ــ اطلاعا تاما ، إذ لم يعرف عندنا من تواريخهم إلا تواريخ أبي الفداء وأبي الفرج والمقريزي وابن الأثير (86) ، ونبذة من تاريخ ابن خلدون ٠ ونجهل بالمرة تواريخ كثيرة نود لو نجد من يترجمها لنا ، وإن كان المقدار الذي حصل عندنا كافيا في رد غلط من غلط من أهل أوربا في شأن العرب » ٠

(*) خدمة ج٠ خادم ٠

(86) ابن الاثير : عز الدين أبو الحسن علي (552 ــ 630 / 1110 ــ 1223) من مواليد الموصل ، حارب الصليبيين في جيش يقوده صلاح الدين الايوبي ٠ صاحب كتاب **الكامل** في التاريخ ٠

انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط ٠ 2 ، III ، 746 ــ 747 ٠

« ثم إني ذكرت في تاريخنا هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الأولين وبتاريخ دولة بني أمية بدمشق وقرطبة ، وبتاريخ دولة بني العباس ببغداد ، والفاطميين بمصر ، وبانقسام الممالك الاسلامية بالمشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم؛ فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة ، وزدت عليه شيئا لم يوجد في التواريخ السالفة ، وهو برنامج التمدن العربي الذى قد توشجت عروقه في الدنيا القديمة ، واستمرت آثاره ظاهرة الى الآن لكل من يبحث بالجد عن أصل المعارف منا » .

« وفي أوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجد في المعارف والعلوم ؛ فكانت إذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقة (87) وأصبهان وسمرقند / تتسابق [30] في ميدان العلوم مع بغداد تخت بني العباس ، وترجمت في تلك المدة كتب اليونان ، وقرئت بالمدارس وشرحت . وسرت حركات عقولهم في جميع مواد المعارف الانسانية ؛ فنتج عنها من الاختراعات الغريبة ما شاع صيته في أوربا » .

« فتبين بلا إشكال أن العرب هم أساتيذنا بلا إنكار لكونهم جمعوا الأدوات المؤسسة عليها تواريخنا المتوسطة، وبدءوا بكتابة الرحلات، واخترعوا التأليف في تاريخ وفيات الأعيان، ووصلوا في صناعة اليد الى غاية لا تحد . وبقية آثار أبنيتهم مما يدل على

---

(87) الرقة : قاعدة ديار مضر في الجزيرة على الفرات .

اتساع معــارفهم وكذلــك اختراعــاتهم الغريبة تزيد بيــانــا لفضائلهم التى لم ينزلوا بها الى الآن منزلتهم التى يستحقونهــا بسببها ؛ فان علوم الفيزيك والطب والتاريخ الطبيعى والكيمياء والفلاحة لما جاءت فى أيديهم ازداد فيها الغريب ، مع كونها من المحسوسات التى لا تصرف لها هممهم صرفا تــامــا • فكيــف بالعلوم العقلية التى اجتهدوا فيها اجتهادا يفوق الحد من مبــدأ القرن التاسع (9) الى انتهاء القرن الخامس عشر ؟ » (15) •

« ثم نقول : ما نسبة ما عرفناه الآن منهم ببحثنا الى ما بقى مجهولا لنا من ذلك ؟ » •

« وبالجملة فالعرب هم منبع معارفنا ولم نزل الى الآن نطلع على أشياء من مخترعاتهم التى كانت منسوبة لغيرهــم كلمــا قرأنــا كتبهــم » •

ثم قال فى شأن التمدن العربى : « إنهــم كانوا فى القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التى امتدت على أوربا، حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ، ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمــة ، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التى عثروا عليها بل اجتهدوا فى توسيــع دوائرهــا ، وفتحوا طرقــا جديدة لتأمل العقول فى عجائبها •

ثم استشهد بقول اسكندر همبلط (88) : «إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطىء نهر الفرات الى الوادى الكبير باسبانيا، وبين العلوم وأسباب/التمدن فتناولتها [31] الأمم على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى الدنيا تأثيرا لا يشتبه بغيره ؛ فكانوا فى طبيعتهم مخالفين لبنى إسرائيل الذين لا يطيقون خلطة أحد من الناس ؛ فيخالطون غيرهم من غير أن يختلطوا به، ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة، ولا ينسون أصلهم الذى خرجوا منه • وما أخذت أمم ألمانيا فى التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم ؛ بخلاف العرب فانهم كانوا يحملون التمدن معهم ؛ فحيثما حلوا حل معهم • فيبثون فى الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة ، وتهذيباتهم وأشعارهم الشهيرة التى هى أساس بنى عليه المنسنقر والتربدور(*) أشعارهم » •

ثم قال بعد ذلك : « ونعود الآن فنقول : إنه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب فى ذلك الوقت الذى وصل صيته الى أوربا النصرانية ، وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا ، ونحن نعترف بهم أساتيذنا ومعلمونا ».(**) انتهى المقصود منه •

---

(88) اسكندر همبلط : (Alexandre Humboldt) (1769 – 1859) رحالة وجغرافى المانى •

(*) المنسنقر والترو بدور : (دخيل المانى وفرنسى) : طائفة من الشعراء الغنائيين ظهرت فى القرون الوسطى بالمانيا وفرنسا •

(**) كذا بالاصل •

20 ـ تراجع الدول الاسلامية

ثم إن الدولة الاسلامية أخذت في التراجع لما انقسمت الى دول ثلاث : الدولة العباسية ببغداد والمشرق ، ودولة الفاطميين بمصر وإفريقية ، ودولة الأمويين بالأندلس . ثم تكاثرت الحروب الداخلية ، وانقسمت تلك الدول خصوصا الأندلسية فانها صارت ملوك طوائف وتحقق فيهم قول القائل :

ألقاب سلطنة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد (89)

وموجب ذلك التفرق تعارض الأغراض والشهوات من الأمراء والثوار الذين لم يعتبروا ما في الانقسام من إلمضار على الجميع ، حتى نشأ عن ذلك خروج الأندلس من يد الاسلام (90) .

21 ـ تلافي آل عثمان لذلك التراجع باقامة القانون

ووقع من الخلل في بقية الممالك ما تفاقم ضرره ، لولا أن تلافى الأمر ـ بتأييد الله ـ سلاطين آل عثمان الكرام ، فجمعوا غالب الممالك / الاسلامية تحت رعاية سلطنتهم العادلة ، التى [32] تأسست سنة ستمائة وتسع وتسعين (699) من الهجرة النبوية

---

(89) بحر البسيط ، والبيت لابن رشيق القيرواني .

(90) كان سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل الاسلام بالاندلس سنة 897/1492 ودامت دولة الاسلام بالاندلس ما يناهز الثمانية قرون (91 ـ 897/710 ـ 1492) .

[1299 م] ، فتراجع للأمة عزها بحسن تدبيرهم ، واحترامهم للشريعة المصونة بحفظ حقوق الرعية ، وبفتوحاتهم (91) الجليلة المذكرة بفتوحات الخلفاء الراشدين، وارتقائهم فى سلم التمدن، خصوصا فى مدة السلطان سليمان (92) ابن السلطان سليم فى أوائل المائة العاشرة ، حيث بادر لقطع الذرائع التى يتوقع بسببها وقوع الخلل فى الممالك ، بما رتبه من **قانونه** النافع الذى استعان فيه بالعلماء العاملين، وعقلاء رجال دولته، وجعل مداره على إناطة تدبير الملك بعهدة العلماء والوزراء ، وتمكينهم من تعقب الأمراء والسلاطين إن حادوا ٠

وذلك أن ملك الاسلام مؤسس على الشرع الذى من أصوله المشار إليها سابقا وجوب المشورة ، وتغيير المنكر ٠ والعلماء أعرف الناس به ، كما أن الوزراء أعرف بالسياسة ومقتضيات الأحوال ٠ فاذا اطلع العلماء والوزراء على شيء يخالف الشريعة والقانون الخادم لها فعلوا ما تقتضيه الديانة من تغيير المنكر بالقول أولا ، فان أفاد حصل المقصود ، والا أخبروا أعيان الجند بأن وعظهم لم ينفع ٠ وبين فى **القانون** المذكور ما يؤول إليه الأمر

(91) كانت اولى انتصارات الغازى عثمان على البيزنطيين حوالى 689/1290 ٠

(92) سليمان القانونى : عاشر سلاطين بنى عثمان ، كانت ولايته من 926 / 1520 الى 973 / 1566 ، لقبه الاتراك بالقانونى والافرنج بالعظيم : (Le magnifique) ٠ كانت ايامه عهد بنى عثمان الذهبى ٠ ساد فى عصره العدل ٠ واوثق عرى الصداقة بين الباب العالى ودول اوربا ووقع مع ملك فرنسا فرانسوا الاول معاهدة الامتيازات الاجنبية (Les Capitulations) ٠

إذا صمم السلطان على أن ينفذ مراده وإن خالف المصلحة ، وهو أنه يخلع ويولى غيره من البيت الملكى • وأخذ على ذلــك العهود والمواثيق من العلماء ورجال الدولة •

واستمر العمل على ذلك فكانت منزلة العلماء والوزراء بالدولة بمقتضى هذا **القانون** فى الاحتساب على سيرة السلاطين كمنزلة وكلاء العامة فى أوربا الآتى بيانهم ، بل هى أعظم باعتبار أن الوازع الدنيــوى الداعى الى الاحتساب متأيد بالوازع الدينى عندنا ؛ فبذلك **القانون** المشار إليه استديم نجاح الدولة وحسن سيــرتهــا •

22 ـ الانكشارية وتقويضهم اساس العدل

ثــم إنهــا أخذت فى التأخر والنقص لمــا قصرت فى إجراء المصالح / للملكية على مقتضى الشــرع والقوانين السيــاسية ، [33] وعدمت التحرى فى انتخاب أرباب الخطط المعتبــرة ؛ فتصرف بعضهم بحسب الفوائد الشخصية ، لا باعتبار مصلحــة الــدولة والرعية ، الى أن دخل فى عسكر الانكشارية (93) من أفسد حسن نظامهم ، وخلخل طاعتهم حتى تداخلوا فيما ليس لهم من أحوال

(93) الانكشارية (تركية) : الجند الجديد ، وكان هذا الجند مكونـا ممــن يسبى ويختطف من ابناء الشعوب المغلوبة ومختصا بحراسة السلطــان ، قضى على جيش الانكشارية السلطان محمود الثانى سنة 1826 لما ثاروا على الدولــة •

الملك ، وحيروا راحة السكـان بظلمهم المتنوع بعد أن كان يضرب المثل بطاعتهم كما يضرب بشجاعتهم فى ميادين الحرب ٠

فنشأ من مجموع هاته الأمور وأمثالها الاضطراب فى المملكة ، واغتنم ولاة الممالك البعيدة الفرصة فى الامتناع من الانقيـاد لأوامر الدولة ، وأطلقوا أعنة الأغراض والشهوات ٠

والتجأ الكثير من أهـل الذمـة الى الاحتمـاء بالأجـانـب لأن الانسان إذا انقطع أمله من حماية شريعة الوطن لنفسه وعرضه وماله ، يسهل عليه الاحتماء بمن يراه قادرا على حمايته ، وربما يسعى فى الأسباب التى يمكن بها تسلط حاميه على المملكـة ؛ خصوصا من لم يكن بينه وبين الدولة اتحاد فى الجنس والديانة٠

23 ــ التنظيمـات الخيرية

وبمثل هاته المضار الناشئة عن تصرف الولاة بدون قيد شرعى أو سياسى تيسر للأجانب التداخل فى أحوال المملكـة ، وإفساد سياستها بما يناسب أغراضهم ؛ حتى نشأت حروب أهلية فى عدة جهات من المملكة دامت مدة طويلة، وأفنت نفوسا وأموالا كثيرة٠ وتسبب عنها خروج ممالك معتبرة من يـد الدولة ، ووقـع من الخلل فى باقيها ما عظم ضرره ، لولا تدارك المرحوم السلطـان

محمود (94) وولديه المرحوم السلطان عبد المجيد (95) والمؤيد السلطان عبد العزيز (96) ــ دام عزه ــ :

ــ بتعويض الاول عساكر الانكشارية بالعسكر النظامى، وقطع دابر أمراء الايالات (97) المسماة عندهم بالداربى (98) ،

---

(94) السلطان محمود الثانى : (1808 ــ 1839) السلطان الثلاثون من سلالة بنى عثمان • اباد الانكشارية ولكنه اضعف السلطنة بسوء تصرفه فثار عليه اليونان وانكسر اسطوله فى واقعة نافرين البحرية (1827) واحتلت فرنسا الجزائر (1830) •

(95) السلطان عبد المجيد : (1839 ــ 1861) ابن محمود الثانى، تعاون مع الدول الاوروبية على القضاء على محمد على وفى عهده بدا تطبيق التنظيمات الخيرية بقانون « خط شريف كلخانة » المعلن عنه سنة 1839 وقانون « خط شريف همايون » المعلن عنه سنة 1856 •

انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، I ، 77 •

(96) السلطان عبد العزيز : (1861 ــ 1876) ابن محمود الثانى واصل تطبيق التنظيمات الخيرية وقوى نفوذ روسيا فى السلطنة ، مما ادى الى ثورات كثيرة آلت الى خلعه سنة 1876 •

انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، I ، 58 •

(97) ايالات ، ج• ايالة (تركية) : ادارة• تطلق على الولاية الادارية يحكمها وال عام بكلربجى ومركبة من سناجق : اى وحدات ادارية • وقد ابدل نظام الايالات بنظام الولايات سنة 1864 •

انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، II ، 750 ــ 753 •

(98) الداربى : (تركية) معناها : « اسياد السهول » تطلق على رؤساء اقطاعيين بالاناضول استقلوا منذ القرن الثامن عشر عن السلطة المركزية واصبحوا بمثابة ملوك طوائف وبلغوا اوج العزة والقوة فى القرن التاسع عشر • وقد حاول القضاء عليهم محمود الثانى وواصل عمله من خلفه الى ان قضى عليهم السلطان عبد العزيز سنة 1866 •

انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، II ، 124 ــ 213 •

فانقطعت بذلك المظالم الناشئة من ذينك الفريقين .

ـ وضبط الثاني للسياسة الشرعية **بالتنظيمات**(99) **الخيرية** التي هي أساس تصرفات الدولة / في الحال ؛ باعانة من رجال الدولة [34] وعلمائهـا العاملين سنـة ألف ومائتين وخمس خمسين (1255) [1839 م .] .

ـ ثم باجتهاد الثالث أيده الله في تمشيتها وتهذيبها ، وإضافة ما تظهر لياقته بالأحوال بمقتضى تجريبها ؛ كالقانون الذي رتبه أخيرا في إدارة مصالح الايالات الذي يؤمل منه مصالح جمة .

24 ـ انكـار التنظيمـات

وقد كانت العامة في مبدإ الأمر أنكرت تلك التنظيمات إنكارا كليا حتى ظهر في بعض جهات المملكة مبادئ الاضطراب .

وسبب ذلك أن عمال تلك الجهات وغيرهم ممن لـه فائدة في التصرف بلا قيد ولا احتساب ، لمـا تيقنوا أن إجـراء الادارة والأحكام على مقتضى التنظيمات مما يخل بفوائدهم الشخصية ، دسوا للعامة من قول الزور والغش ما ينفرهم منها ؛ مثل قولهم : « هذا شرع جديد مخالف لشريعة الاسلام » .

---

(99) التنظيمات الخيرية : هي جملة اصلاحات اعتمدتها الخلافة العثمانيـة في القرن التاسع عشر تحت ضغط الدول الاروبية التي عملـت بمناوراتهـا المتعددة على ان « الرجل المريض » (الخلافة العثمانية) لا يموت ولا يحيا حتى تسنح الفرصة بالقضاء عليه نهائيا ، وقد كانت هذه الاصلاحات عـلى مراحل ثلاث : سنة 1839 (خط شريف كلخانة) و 1856 (خط همايون) و 1876 (قانون اساسي) وكان من الداعين الى التنظيمات الوزراء رشيد باشا (1839) وفؤاد باشا وعلي باشا (1856) ومدحت باشا (1876) .
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط . 1 ، 17 ، 689 . 693 .

وأعانهم على ذلك من كان له من الدول الأورباوية فائدة فى عدم نجاح سعى الدولة فى تحسين أحوال ممالكها ٠

25 ـ مؤازرة العلماء للتنظيمات

فالدولة العلية عوض أن تغتنم تلك الفرصة ، وترجع الى استبدادها ـ كما وقع فى بعض الممالك ـ أكذبت تلك الظنون الفاسدة بارسال فخر علماء ذلك العصر وأتقاهم أعنى شيخ الاسلام المقدس عارفا بك (100) ، الى جهات الاضطراب لوعظ الناس وأمرهم بالطاعة والامتثال ؛ فخطب بذلك على المنابر ، وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعى، وما هى إلا ضبط للسياسات الشرعية التى كانت أهملت ، وأن الداعى إليها ليس إلا تحسين إدارة المملكة وحفظ حقوق الأمة فى النفس والعرض والمال ، وكف الأيدى الجائرة من الولاة ونحو ذلك من المصالح ؛ فانقادت الرعية عند ذلك وسكنت واستمر العمل بالتنظيمات فى سائر الجهات بقدر الامكان ٠

وأنت خبير بأن مثل هذا الحبر (101) الذى سارت بمآثره

---

(100)احمد عارف حكمة بك : (1201 ـ 1275 / 1786 ـ 1859) شيخ الاسلام الحنفى بالآستانة من 1845 الى 1854 وشاعر كلاسيكي مشهور ٠
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط٠ 2 ، 651 ٠
اتصل به احمد ابن ابى الضياف لما زار الاستانة وكان من اخلص اصدقاء الشيخ ابراهيم الرياحى التونسي ٠
انظر : ابن ابى الضياف : **اتحاف** ، VI ، 60 ـ 62 ٠

(101)الحبر : بفتح الحاء : العالم الصالح وهو مأخوذ من تحبير العلم اى تحسينه٠

الركبان ، وشهد له بالعلم والعمل جهابذة أرباب العرفان، خصوصا
[35] فخر القطر الافريقى ، وفجر الرشاد/الحقيقى ، من بلـغ صوت
صيته مسامع سائر النواحى ، الأستاذ العلامة سيدى إبراهيم
الرياحى (102) ، لو لم ير مساغا لهذه التنظيمات ما خطب بها على
المنابر ، ولا كان على تقريرها أحزم مثابر • ومن تأملها بعين
الانصاف ، لم يجد فى حسنها ولياقتها مثار خلاف ، بل جزم بأنها
قوام الاستقامة والوسيلة التى يستعاد بها ما كان للدولة من العز
والفخامة •

وهذا الصنع الجميل الذى صدر من هؤلاء السلاطين العظام ،
مع ما حصل به من تحسين حال الدولة والرعايا ؛ مما لا يسع
المنصف إنكاره بالنسبة لما كان قبل ، لم يقنع حزبا من المسلمين
مع الرعايا من غيرهم ، بل لم يزالوا يطلبون من الدولة إطلاق
الحرية بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس
مركب من أعضاء تنتخبهم الأهالى ، وفى هذه المدة الأخيرة اشتد
إلحاحهم فى طلب ذلك حسبما تضمنته صحف الأخبار •

ونحن وإن لم نطلع على أحوال إدارة المملكة العثمانية فى

---

(102) الشيخ ابراهيم الرياحى : (1180 ـ 1266 / 1766 ـ 1850) من مواليد تستور ، باش مفتى المالكية واشهر العلماء فى عصره ، اتصل بالبايات ولعب دورا هاما جريئا فى بعث التنظيمات بتونس • شهر بادخاله الطريقة التجانية الى تونس •

انظر : ابن ابى الضياف : اتحاف ، VII ، 73 ـ 82 (ترجمته) ، **اتحاف** IV ، 19 ـ 25 (رحلته الى الاستانة) وص 60 • محمد مخلوف : **شجرة النور** ، I ، 385 ـ 389 •

الحال ، لا سيما فى كيفية إجراء تلك التنظيمات ، اطلاعا يمكننا معه معرفة صحة الأسباب التى يتظلم منها الفريق المذكور أو عدم صحتها ، فانا نسلم أن هذا المطلب الذى طلبوه هو من أعظم الوسائل فى حفظ نظام الدول ، وقوة شوكتها ، ونمو عمران ممالكها ، ورفاهية رعاياها ، خصوصا فى هذه الأزمان .

كما نسلم أيضا أن مقصد المسلمين من أهل الحزب المذكور بطلبهم لما ذكر إنما هو إصلاح حال الدولة والرعية .

26 ـ عوائق التنظيمات : الرعايا الاجانب

لكن لنا أن نسألهم ؛ هل ثبت عندهم أن مقصد غيرهم ممن معهم موافق لمقصدهم ، حتى تحصل لهم الثقة بهم ، ويصدر منهم ما ذكر ؟

فإنا نرى خلاف ذلك منهم بما دلت عليه القرائن من أن مراد أكثرهم إنما هو التفصى عن سلطة الدولة العثمانية ، حيث لم يظهر منهم بعد نيل الحرية الموجودة الآن شىء من أمارات النصح للدولة ، بل ربما أظهروا حب النزوع الى بنى جنسهم ، بالتظلم من تصرفاتها / واستثارةمبادىء الحيرة معها ، وذلك لاستمرار [36] إفساد الأجنبى لهم ، وزرعه بذر الحمية فى صدورهم لأغراض له لا تخفى .

فربما كان تأسيس الحرية على الوجه المطلوب آنفا ، قبل التبصر فى العواقب ، مما يسهل غرضهم المذكور ؛ إذ من

لوازم هذه الحرية تساوى الرعايا فى سائر الحقوق السياسية ، التى منها الخطط السامية ، مع أن من الشروط المعتبرة فى إعطاء تلك الحرية تواطؤ جميع الرعايا على مصلحة المملكة ، وتقوية شوكة دولتها ·

ولأقل من هذا السبب امتنع بعض الدول الأورباوية من إطلاق الحرية المشار إليها ؛ تحاشيا من تحزب بعض الرعايا على تبديل العائلة الملكية ــ كما سيأتى بيانه عند الكلام على حرية أوربا ــ فاذا ساغ الامتناع مع كون البدل المتوقع من جنس المبدل منه ، فلأن يسوغ هذا مع كونه من غير الجنس أحرى وأولى ·

وأيضا فان رعايا الدولة ينقسمون الى عدة أجناس مختلفة الأديان واللغات والعادات ، وغالبهم يجهل اللغة التركية التى هى لغة الدولة ، بل يجهلون لغة بعضهم ؛ بحيث تعسر المفاوضة بينهم لو ركب مجلس من جميع طوائفهم ، ولا يتيسر إعطاء الحرية للبعض دون البعض ، لما ينشأ عن ذلك من الهرج ·

فيجب أن تعتبر حالة هؤلاء الرعايا من أعظم العوائق عن تأسيس الحرية على الوجه المطلوب بالدولة العثمانية ·

فمن اعتبر ما أشرنا إليه لا يسوغ له أن يوجه اللوم على الدولة فى توقفها الى الآن عن إعطاء الحرية المطلقة ، وتأسيس المجلس المذكور ، وإن كان ما ذكرناه لا يرفع عنها وجوب الاجتهاد فى قطع تلك العوائق التى يكون حسمها ــ بعون الله تعالى ــ من

مآثر خليفة العصر (103) الذى رفع من أعلام العدل ما انتكس ، وأحيا من رسوم الاستقامة ما اندرس ، فإنا بمقتضى ما خوله الله من الحزم الناجح ، والرأى الراجح ، نؤمل أن نرى منه ـ لا سيما بعد اطلاعه على أحوال أوربا بالعيان ، وتطبيقها على ما كان معلوما / لديه بالبيان ـ مزيد العناية بكل ما يتيسر به [37] إطلاق الحرية على الوجه الأكمل ، باعانة رجال دولته وعلمائها المتعاضدين على إنجاح مصالح الدين والوطن، والعارفين بأسباب التقدم ما ظهر منها وما بطن .

27 ـ الامتيازات الاجنبية

ثم إن من عوائق نجاح التنظيمات فى سائر الممالك الاسلامية تقاعس الدول الأورباوية عن إدخال رعاياهم المستوطنين بها ، تحت أحكامها .

ـ استنادا للشروط القديمة(104) التى لا تليق بهذاالوقت، بل لا ينبغى أن تسمى شروطا لانبنائها على ما يخل بالشرط . وعلى فرض تسليم بعض الشروط وتسليم ما يوجب دوامها ، فانهم

(103)خليفة العصر : السلطان عبد العزيز . انظر أعلاه : تعليق (96) .

(104)الشروط : هى الامتيازات الاجنبية التى تنظم علاقات الرعايا الاجانب المقيمين بالخلافة العثمانية وتمكنهم من امتيازات فى جميع الميادين السياسية والاجتماعية والقضائية والاقتصادية ، عقدت اهمها سنة 1535 بين السلطان سليمان القانونى وملك فرانسا فرانسوا الاول واحرزت الدول الاوربية الاخرى على ما يماثل هذه الامتيازات وقد الغتها معاهدة لوزان (1923) .

لا يقفون عند نصها ، بل يستخرجون منها ما ليس فيها مما هو مناف لحقوق المساواة بين الأمم ، ولحقوق سلطنة الأرض على كل وارد لها ؛ بمعنى أن من دخل مملكة من الممالك فلا بد أن تجرى عليه أحكامها •

ـ وادعاء بأن معارف حكام الاسلام غير كافية لحفظ حقوق رعاياهم ، وأن كراهيتهم للنصارى تحملهم على الحيف عليهم •

28 ـ الدعوى الاولى : معارف حكام الاسلام غير كافية

والجواب عن الدعوى الأولى ؛ أن مدعيها لا يمكن أن يظن به تعميمها فى حكام المسلمين مطلقا • أعنى سواء كانوا حكام شريعة أو سياسة لما هو معلوم عند كل عاقل ـ خصوصا من هو منصف ـ أن علماء شريعة الاسلام فى غاية المعرفة بأحكامها أصولا وفروعا ، فلم يبق إلا أن يريد هذا المدعى حكام السياسة منهم ، وهذا غير مسلم لما هو ظاهر من بطلان دعوى من يدعى جهل جميع أهل مملكة من الممالك ؛ بحيث لا يوجد بها من يقوم بأعباء أحكام تنظيماتها •

نعم هناك شىء واحد وهو أن جميع الأمور فى ابتدائها ، قبل التمرن عليها والاعتياد بها ، يقع فيها نوع اضطراب وارتباك حتى يحصل الاستئناس بها ، وتأخذ مأخذها • وهذا أمر طبيعى لا يقدح به فى التنظيمات ؛ فانا نرى دول أوربا لم تكن من أول الأمر حاصلة على هذا النجاح فى تنظيماتها / المشاهد لها اليوم ، [38]
وإنما حصلت على ذلك بواسطة إعانة السكان لها على إجرائها بعدم

المخالفة والشقاق ؛ إذ بدون ذلك لا يطمع فى الحصول على شىء من نتائجها ، بل لم نزل نرى الى الآن تفاوت الدول المذكورة فى تهذيب تنظيماتها ، ومعارف حكامها وعفتهم • ولم يمنع هـذا التفاوت دخول المتقدم منهم فيها تحت أحكام المتأخر •

فلم يبق حينئذ إلا أن نقول إن هـذه الدعوى مجرد توهـم ، وليست مستندة الى شىء من الأدلة والتجارب لأنه لم يدخل أحد من رعاياهم تحت أحكام تنظيماتها حتى يلحقه الضرر منها ، بل لنا أن نقول إنهـا مجرد مكابرة •

29 ـ الدعوى الثانية : كراهية المسلمين للنصارى

وأما دعوى الكراهية فـلا يخفى أنها بعد تسليمهـا مشتركة الالزام ؛ إذ للمسلمين أن يظنوا أن النصارى أيضـا تحملهـم العداوة على الحيف عليهم وقت حلولهم ببلدانهم ، لكن الحق أن العداوة الدينية لا تستميل الحاكم عن الانصاف المؤسسة عليـه الشريعة، وعن الوقوف مع الحق حيث يجب، حتى لو وجب على الحاكم نفسه لأنصف طالبه منه كائنا من كان؛ عملا بما هو من قواعد الدين الذى هو أعظم وازع حتى لم يبق معه لايثار النفس أثر ، فقد ورد أن زيد بن سعنة جاء قبل إسلامه يتقاضى من النبىء ـ صلى الله عليه وسلم ـ دينا له ، فجذبه من ردائه حتى أثر فى عاتقـه الشريف ، ثـم قـال : « إنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل » • فانتهره عمـر وشدد عليـه فى القول حيث لم يتوخ الرفق فى الطلب • فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنـا

وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر؛ تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي » • ثم قال : « لقد بقي من أجله ثلاث » ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روعه ؛ فكان سبب إسلامه ـ رضي الله عنه ـ •

وورد أيضا أن يهوديا أتى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يطلب عليا ـ كرم الله وجهه ـ في حق ، وكان علي عنده ، فقال له عمر : « قم يا أبا الحسن / واجلس مع خصمك »؛ فرئ في وجه [39] علي الغضب • فلما انفصلت النازلة قال له عمر ما معناه : « تغضب لطلب أن تساوي خصمك ! » فقال له علي : « ما غضبت لذلك ، وإنما كرهت تكنيتك لي بمحضر خصمي » •

فالحاكم إذا كانت ديانته تلزمه الاتباع للشريعة بمقتضى الوازع الديني ، والاقتداء بمن سلف من الخلفاء الراشدين ، الذين هم نجوم الاهتداء ، كيف يتوهم منه ترجيح جانب المسلم على غيره •

وبعد هذا لم يبق لمن له إنصاف من الأورباويين أن لا يرى فيما ذكرناه ضمانة (105) كافية لحفظ الحقوق ، كما أنه لا يتأتى له أن يرى إمكان إجراء القوانين على وجه يثمر النتائج المقصودة منها ، مع امتناع بعض السكان من المساواة فيها ؛ لا سيما والممتنع بيده غالب الصناعات والمتاجر •

---

(105) ضمانة : استعمال عامي تونسي للضمان •

30 ـ تنفير النصارى للرعايا المسلمين من قبول التنظيمات

ثم إنهم لم يكتفوا فى التعطيل بذلــك الامتنــاع ، حتى صار بعضهم ينفر رعايا بعض الممالك الاسلامية من قبول التنظيمات التى رام ملوكها تأسيسها ؛ بأن يقولوا لهم : « إن هذه التنظيمات لا تليق بحالكم ، فرجوعكم الى ما كنتم عليه أولى بكم » ؛ مع أن ذلك مخالف لقواعد سياسة بلدانهم ٠

وبعضهم يقول لهم : « إن الحرية التى منحتموها من دولتكــم لا تفى بحفظ حقوقكم » ، مع أنهــا فى الواقع أكثر مما منحتها رعايا بلدانهــم ٠

فلذلــك نضطر أن نعتقد أن لا داعى لذلــك إلا قصد دوام التحيير فى الممالك الاسلامية لتعطيل نجاحها ٠

وبالجملة فسياسة الدول الأورباوية فى ممالكنا متناقضة فان منهــم من ينصح بعض الممالك بالاعانة على التراتيب المناسبة ؛ ومنهم من يعطل ذلك بتلك المملكة ، ويبذل النصيحة المــذكورة لغيرها على حسب اختلاف أغراضهم ٠

31 ــ ضرورة تنقيح الامتيازات

هذا وإن سياسة غالب الدول الأورباوية ولو كانت كما ذكرنا، لكن من الحق أن نقول ــ فى خصوص مبحث الشروط ــ إنا رأينا عند المحادثة مع رجّال بعض الدول الغربية منهــا أنهم يسلمون عدم لياقة / تلك الشروط بهذا الوقت ، ولا يمتنعون من تبديلها [40]

بما يناسب ، لكنهم يطلبون منا قبل ذلك إعطاء الضمانة الكافية فى حفظ حقوق رعاياهم ؛ بترتيب مجالس للحكم ، وتمشيتهـا مدة من الزمان حتى يثبت عندهم بالتجارب حسن إجراء الأحكام؛ بحيث يتيسر لهم تسليم رعاياهم على التدريج بحسب ما يرونه من نجاح التراتيب ، حتى يتم دخولهم تحت أحكامنا .

ونحن نقول : « لما كان بقاء حال الأجانب على مـا هو مشاهد اليوم مضرا بالممالك الاسلامية ، والدول الأورباوية لا تساعف على تبديل الشروط إلا بما ذكرناه ، وجب على الدول الاسلامية السعى فى ازالة هذا الضرر ، باعطاء تلك الضمانة وإبرازهـا للخارج » .

32 ــ معارضة الموظفين العثمانيين

ومن العوائق للتنظيمـات ــ وهـو أعظمهـا ــ تعرض بعض المتوظفين فى تأسيسها وإجرائها ، لما لهم فى تعطيلها من المصالح الخصوصية ، التى منهـا دوام تصرفاتهم فى الخطط بـلا قيـد ولا احتسـاب .

33 ــ وجوب التعاون بين رجال الدين ورجال السياسة

هذا وإن الأمة الاسلامية لما كانت مقيدة فى أفعالهـا الدينيـة والدنيوية بالشرع السماوى والحدود الالهية الواردة على الميزان الأعدل المتكفلة بمصالح الدارين ، وكانت ثمـة مصالـح تمس الحاجة إليها بل تتنزل منزلة الضرورة يحصل بها استقامة أمورهم

وانتظام شؤونهم ، لا يشهد لها من الشرع أصل خاص كما لا يشهد بردها ؛ بل أصول الشريعة تقتضيها إجمالا وتلاحظها بعين الاعتبار ، فالجرى على مقتضيات مصالح الأمة والعمل بها حتى تحسن أحوالهم ، ويحرزوا قصب السبق فى مضمار التقدم متوقف على الاجتماع ، وانتظام طائفة من الأمة ملتئمة من حملة الشريعة ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمة ، متبصرين فى الأحوال الداخلية والخارجية ومناشىء الضرر والنفع، يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الأمة بجلب مصالحها ودرء مفاسدها ؛ بحيث يكون [41] الجميع كالشخص الواحد / كما قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»(106) • وكما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد » (107) • فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشىء الضرر ، والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة •

وأنت إذا أحطت خبرا بما قررناه علمت أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور ، من أهم الواجبات شرعا لعموم المصلحة، وشدة مدخلية(108) الخلطة المذكورة فى إطلاع العلماء على الحوادث ، التى تتوقف إدارة الشريعة على معرفتها •

---

(106)حديث نبوى شريف •

(107)حديث نبوى شريف •

(108)مدخلية : استعمال عامى تونسى لتداخل او دخول •

ومعلوم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب •

وبيان ذلك أن إدارة أحكام الشريعة ، كما تتوقف على العلم بالنصوص ، تتوقف على معرفة الأحوال التى تعتبر فى تنزيل تلك النصوص ؛ فالعالم إذا اختار العزلة والبعد عن أرباب السياسة فقد سد عن نفسه أبواب معرفة الأحوال المشار إليها ، وفتح أبواب الجور للولاة ، لأنهم إذا استعانوا به فامتنع صاروا يتصرفون بلا قيد •

نعم يعاب على العالم شرعا وعقلا التكلف فى الدين ، والتمحل فى النصوص الظاهرة فى خلاف ما أراد منها ، وارتكاب الأقوال الضعيفة ليوافق الأهوية والأغراض ؛ لا لاجل مصالح تتنزل منزلة الحاجة والضرورة ، حتى ينقلب ذلك الضعيف قويا •

وحيث كانت إدارة المصالح السياسية مما لا يتيسر لغالب الولاة إجراؤها على الأصول الشرعية لأسباب شتى يطول شرحها ، وتقدمت الأدلة على ما يترتب على إبقاء تصرفاتهم بلا قيد من المضار الفادحة ، رأينا أن العلماء الهداة جديرون بالتبصر فى سياسة أوطانهم ، واعتبار الخلل الواقع فى أحوالها الداخلية والخارجية ، وإعانة أرباب السياسة بترتيب تنظيمات منسوجة على منوال الشريعة ، معتبرين فيها من المصالح أحقها ومن المضار اللازمة أخفها ؛ ملاحظين / فيما يبنونه على الأصول الشرعية ، [42] أو يلحقونه بفروعها المرعية ، ذلك المقال الوجيز ، المنسوب لعمر ابن عبد العزيز : « تحدث للناس أقضية بحسب ما أحدثوه من الفجور » ، وما فى معناه من أدلة أن الشريعة لا تنسخها تقلبات الدهور •

34 ـ رسالة بيرم الاول في السياسة الشرعية

ومن تصفح رسالة أستاذ المشائخ الحنفية ، ومحط رحال الاستفتاء بالديار التونسية ، من لم يزل على نقوله وأفهامه المعول ، الشيخ سيدى محمد بيرم الأول ، (109) وجد بها من الأدلة ما يشهد لما ذكرناه ، فانه عرف السياسة الشرعية : بأنها ما يكون الناس معه أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي • ثم أشار الى ذم ما كان من التصرفات السياسية في احد طرفي التفريط والافراط بقوله : « ان من قطع النظر عنها إلا فيما قل فقد ضيع الحقوق ، وعطل الحدود ، وأعان أهل الفساد • ومن توسع فيها فقد خرج عن قانون الشرع الى أنواع من الظلم » •

ثم قال : « ونقل ابن قيم الجوزية (110) عن ابن عقيل (111)

---

(109)محمد بيرم الاول (1130 ـ 1214 / 1718 ـ 1800) شيخ الاسلام الحنفي بتونس • صاحب تآليف عديدة منها : **رسالة في السياسة الشرعية** •
انظر : ابن ابي الضياف ، **اتحاف** ، VII ، 30 ـ 35 •
اما هذه الرسالة فطبعت بمصر بمطبعة الاعلام سنة 1306 / 1886 تحت عنوان : **نبذة في بعض القواعد الشرعية لحفظ الادارة الكلية** • انظر : سركيس **معجم** ، 612 •

(110)ابن قيم الجوزية (691 ـ 751/1291 ـ 1330) حنبلي كان ابوه قيما للمدرسة الجوزية ، صاحب تآليف كثيرة نحا فيها نحو استاذه احمد ابن تيمية ، من بينها **الفوائد ومدارج السالكين** في التصوف **واعلام الموقعين** في اصول الفقه **والطرق الحكمية** في الحسبة **والسياسة الشرعية** •
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، III ، 845 ـ 847 •

(111)ابن عقيل : أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الزفري : (431 ـ 513/1040 ـ 1119) اصولي حنبلي صاحب **كتاب الفنون وكتاب الواضح** في اصول الفقه
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، III ، 721 ـ 722 •

مخاطبا لمن قال : « لا سياسة إلا ما وافق الشرع » • إن أردت بقولك : إلا ما وافق الشرع ، أى يخالف ما نطق به الشرع ، فصحيح ، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع ، فغلط وتغليط للصحابة ــ رضى الله عنهم ــ وسرد أمثلة من سياستهم » •

« ولابن قيم الجوزية هنا كلام حاصله : « إن أمارات العدل إذا ظهرت بأى طريق كان فهناك شرع الله ودينه ، والله تعالى أحكم من أن يخص طرق العدل بشيء ثم ينفى ما هو أظهر منه وأبين » •

« وسئل القرافى (112) عن الأحكام المرتبة على العوائد « إذا تغيرت تلك العوائد ، هل تتغير الأحكام لتغيرها ؟ أو يقال نحن مقلدون ، وليس لنا إحداث شرع جديد لعدم أهليتنا للاجتهاد ؟ » فأجاب بأن إجراء الأحكام التى مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الاجماع وجهالة فى الدين ، بل الحكم التابع للعادة يتغير بتغيرها • وليس هذا بتجديد اجتهاد من / المقلدين بل هى قاعدة اجتهد فيها العلماء واجمعوا عليها » • انتهى •

[43]

« وعد ابن القيم من الجهل والغلط الفاحش توهم أن الشريعة المطهرة قاصرة عن سياسة الأمة ومصالحها • قال : « ولأجل هذا

---

(112)القرافى : شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن ادريس الصنهاجى : مصرى مالكى •

انظر : محمد مخلوف : **شجرة النور** ، ا ، 188 ــ 183 •

ذكره ابن ابى الضياف : **اتحاف** ، ا ، 50 و IV ، 260 •

الغلط تجرأ الولاة على مخالفة الشرع ، فخرجوا عن حدود الله الى أنواع الظلم والبدع فى السياسة »؛ يعنى وسبب ذلك تمسكهم أو تمسك العلماء الذين يفتونهم بظواهر النصوص فيضيقون ما وسعه الله عليهم ، فيضطرون الى خلع القيود وهتك الحرمات والحدود » .

« وبناء على ما تقرر يظهر أن اللائق بأولئك الهداة أن يتوسطوا بين التفريط والافراط ؛ بحيث لا يبعدون من رجال السياسة بعدا يتسبب عنه تبعيد تصرف الولاة عن الشريعة ؛ وما لا يدرك كله لا يترك قله (II3) ولا يقربون منهم قربا ينشأ عنه تقريب شهواتهم بتسهيل طرقها لهم » .

35 ـ شبه المعترضين على التنظيمات

وحيث تقدم بيان الأدلة الكافية لوجوب التنظيمات السياسية التى لو لم يكن إلا تنفير الأجنبى والمتوظفين منها لكان كافيا فى الدلالة على حسنها ولياقتها بمصالح المملكة ، كان من أهم الواجبات على أمراء الاسلام ووزرائهم وعلماء الشريعة الاتحاد فى ترتيب تنظيمات مؤسسة على دعائم العدل والمشورة ، كافلة بتهذيب الرعايا وتحسين أحوالهم ، على وجه يزرع حب الوطن فى صدورهم ويعرفهم مقدار المصالح العائدة على مفردهم وجمهورهم ، غير معتبرين مقال بعض المجازفين أن تلك

(II3) قله : قليله ولعله خطأ والصواب : جله .

التنظيمات لا تناسب حال الأمة الاسلامية ، مستندافىذلكإلىأربع شبـــه :

الأولى : أن الشريعة منافية لها ·

الثانية : أنها من وضع الشىء فى غير محله لعدم قابلية الأمة لتمدنـــاتهـــا ·

الثالثة : أنها تفضى غالبا الى إضاعة الحقوق بما تقتضيه من التطويل فى فصل النوازل ، كما يشاهد ذلـــك فى سائر الخطط القـــانـــونيـــة ·

الرابعة : أنهـــا تستدعى مـــزيـــد الضرائب على المملكـــة بما تستلزمه من كثرة الوظائف لاداراتهـــا المتنوعة ·

[44] / ولا يخفى على المتبصر أن جميع ما استند إليه مردود ·

36 ـ الشبهـــة الأولى

أما الشبهة الأولى فيكفى فى ردها ما أسلفناه مما يدل على أن الشريعة تقتضى التنظيمات ، لا سيما بعد اعتبـــار أحوال ولاة الوقت · وعلى فرض أن يوجـــد فى التنظيمـــات بعد تأسيسهـــا وتهذيبها من رجال العلم والسياسة شىء لا مسوغ له ، فلا مانع من تبديله ، ولا يكون توقعه سببا فى ترك تأسيس التنظيمات من أصلـــه ·

وأما بقية الشبه فلو أردنا الاكتفاء فى ردها بمـــا تقدم لكفى أيضا ، لكن رأينا أن نزيده إيضاحا وبيانا فنقول :

37 ـ الشبهــة الثانيـة

أمـا الشبهــة الثانيــة فجوابها أن عامة غيرنا ، الذين بلغوا بالتنظيمات غاية التمدن ، كانوا فى مبدإ الأمــر أسوأ حالا مــن عامتنا وإن كنا نسلم أن معارفنا الدنيوية الآن أقل مما أنتجتــه التنظيمات لبعض الأمم الأورباوية ؛ لكن عند التأمل يثبت عندنا أن الأمة الاسلامية بمقتضى ما شهد به المنصفون من رجحان عقول أواسط عامتها على عقول غيرها مــن الأمم ، تقتدر أن تكتسب بما بقى لها من تمدنها الأصلى ، وبعاداتها التى لم تزل مأثورة لها عن أسلافها ، ما يستقيم به حالها ويتسع به فى التمدن مجالها . ويكون سيرها فى ذلك المجال أسرع من غيرها كائنا من كان ، إذا أذكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل فى أمور السياسة ؛ وذلك أن الحرية والهمة الانسانية اللتين هما منشأ كل صنع غريب غريزتان فى أهل الاسلام مستمدتان ممـا تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب ؛ بخلاف غيرهم ممن لم تحصل لهم الغريزتان المذكورتان إلا باجراء التنظيمات فى بلدانهم .

نعم من الواجب على مؤسس أصول الحرية السياسية اعتبار حال السكان ومقدار تقدمهم فى المعارف ليعلم بذلك متى يسوغ إعطاء الحرية التامة ومتى لا يسوغ ، ومتى يعمم المقــدار المعطى فى سـائر السكـان ، ومتى يخص بمن قامت به شروط معتبــرة ، ثم / توسيع دائرتها بحسب نمو أسباب التمدن شيئا فشيئا . [45]

ثم لو سلم عدم القابلية للتنظيمات ، وأن الأمـة كمـا يزعمه أولئك القادحون بمثابة الصبى غير الرشيد الذى يلزم التقديم عليه ، فهل ينهض لهم دليل على جواز أن تكون تصرفات المقدم خالية عن مراعاة مصلحة المقدم عليه ؟ وهل تتيسر تلك المراعاة بدون توقع احتساب مؤسس على الشرع ؟

38 ـ الشبهـة الثالثـة

وأما الشبهة الثالثة فجوابها أن التطويـل الذى يمكن عروضه فى فصل النوازل يرجع إلى قسمين : لأنه إما أن يكون ناشئا عن صعوبـة تصور النازلة وتعيين مـا ينطبق عليهـا من النصوص المتجاذبة لها ، أو يكون ناشئا عن قصور المتوظفين أو تقصيرهم .

أ) أما القسم الأول فلا يتشكى منه إلا الجاهل أو المتجاهل، وذلك أن إعطاء النوازل حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحكم، يستدعى فسحة ضرورية لفهمها على الوجـه المطلـوب ، وتلـك الفسحة المتفاوتة بتفاوت النوازل فى التشعب من لوازم البشرية، فى حق كل من الحاكم والمحكوم عليه ؛ إذ الحكم سواء كان مبنيـا على القواعد الشرعية أو القوانين العقلية لا يكون حكما معتدا به إلا إذا كان مسبوقا بأخذ المحكوم عليه مهلة لتحرير حججه التى يدافع بها عن نفسه ، وأخذ الحاكم مثلها لامعان النظر فيها، وتعيين ما ينطبق من الأصول عليها ؛ فالحاكم إذا نقص من إحدى المهلتين شيئا فقد ظلم المحكوم عليه ونفسه .

وحيث كان التطويل المشار إليه طبيعيا للنوازل ، ومما تعاضد على لزومه الشرع والعقل ، يسوغ لنا أن نقول إنه لامنشأ للقدح به فى التنظيمات إلا إرادة تنفير الأهالى منها ، بتحسين ما تعودوه من حكامهم السياسيين الذين كثيرا ما ينشر لديهم من النوازل ما لو نشر لدى أحذق القضاة لاحتاج فى تصوره إلى عـدة أيـام ، فيبادرون الى فصلها فى عدة دقائق بحكم لا يتعقب ، بل لو فرض الترخيص منهم فى تعقبه لما أمكن ذلك ، / حيث لم يكن الحكم [46] مسجلا بظهير لأن التعقب يستدعى استناد الحكم المتعقب الى شىء من الأدلة يمكن اطلاع المتعقب عليه ؛ بحيث يجد محلا للتخطئة فى تنزيل الحكم أو نحو ذلك ، إذا كان الحكم مسجلا • وما يصدر من هؤلاء حكم شفاهى غير معلل باستناده إلى شىء فى الخـارج ، فهو لا يخلو إما أن يكون أمرا اتفاقيا بحسب ما يسنح لأحدهم فى ذلك الوقت ، ولذلك ترى كثيرا من النوازل متفقـة فى المعـنى وأحكامها مختلفة ، أو مستندا الى دليل لا يتجاوز صدر ذلـك الحاكم ، فلا يمكن الاطلاع عليه • وفى الحالتين لا يمكن التعقب •

ثم إنا لا ننكر أن يقع فى ابتداء العمل بالتنظيمات شىء مـن التطويل زائد على المقدار الطبيعى ، ناشىء عن عدم التعود بها والتمرن عليها ، لكن نرى الخطب فى ذلك سهلا ، لأنه مما يزول باعانة الله فى أقرب وقت ، عند حصول ملكة التجريب وتخفيف أعمال الحكام فى الأحكام الخفيفة ارتكابا لأخـف الضررين ، وتحريض الدولة سائر متوظفى السياسة على المبـادرة باتمـام

مأموريتهم بجلب المدعى عليه ، ونحو ذلك مما تتوقف عليه الأحكام حتى لا يبقى من أسباب التطويل إلا ما يستدعيه حال النازلة ·

على أنا نقول — تنازلا مع هؤلاء المنفرين — إن الغرض من التنظيمات ليس محصورا فى فصل النوازل الشخصية على وجه الانصاف المأمول منها ، بل هناك مصالح أخرى من أهمها ضبط كليات السياسة القابض لأيدى الولاة عن الجور ؛ فأين مضرة التطويل فى النوازل الجزئية من مضرة إطلاق أيدى أولئك الولاة فى التصرف فى الأبدان والأعراض والأموال ؟

فهذه الشبهة على فرض نهوضها لاتنتج إلا تعطيل مجالس النوازل الشخصية ·

أما ضبط أصول السياسة الذى هو أساس خير المملكة فلا نظن دليلا ينهض على تعطيله بوجه من الوجوه ·

[47] ب) وأما القسم الثانى فظاهر أنه لا يقدح به فى حسن / التنظيمات فى نفسها ، وإنما يتوجه التشكى من مضرته على الدول حيث لم تمعن النظر فى أحوال المتوظفين وتمتحنهم بمزيد المراقبة والتجربة ·

39 — أصناف الموظفين

وبيان ذلك أنا نرى المتوظفين فى الممالك الاسلامية على ثلاث فرق :

الفرقة الأولى يستحسنون ترتيب التنظيمات استحسانا صادقـا ويؤثرون ما تنتجه من الهمة والحرية ، وتوفير مصالح الرعية ، على ما عسى أن يكتسبوه بالاستبداد من المنح الخصوصية •

الفرقة الثانية يجهلون مصالح التنظيمات بحيث لا يرون كبير فرق بينها وبين السيرة الاستبدادية ، بل يعدونها من بدع آخر الزمان ، ويؤثرون عليها البقاء على ما كان ؛ ولا منشأ لذلك إلا القصور ، وعدم الاطلاع على نتائج التنظيمات فى غالب المعمور •

الفرقة الثالثة لا يجهلون مصالح التنظيمات وتوفيرها لخيـر البلاد والدولة ، ولكنهم يؤثرون على ذلك فوائدهم الشخصية التى تتوفر لهم بالاستبداد ؛ ولا منشأ لذلك إلا نقص الديانة والهمـة الانسانية ، وعدم ملاحظة العواقب الدنيوية والأخروية •

إذا تمهد هذا فنقول : إن التنظيمات وإن بلغت بحسن الترتيب والتهذيب غاية المطابقة لمقتضى الحال ، لا تظهر فائدتها المقصودة من تأسيسها إلا إذا كان المكلفون باجرائها من الفرقة الأولى ؛ فهم الذين توكل مصالح العباد الى أمانتهم ، ويعتمـد فى تأسيسهـا وتمشيتها على إعانتهم • وأما الفرقتان الأخيرتان فلا يحصل مـن تكليفهما إلا اخلاف المقصود ؛ لا سيما الفرقة الثالثة لمزيد انبعاث همتها الى تعطيل التنظيمات •

فعلى الدولة التى عزمت على تأسيسها إذا علمت ما ذكرمن أحوال الفرقتين المذكورتين أن لا تنيط بأمانتها حفظها ولا إدارتهـا ، حتى يثبت عندها بالتجارب صدق رجـوع الأولى الى استحسـانها

بالقلب والقالب ، وإيثار الأخيرة المصالح العمومية على الحظوظ الشخصية ، واكتسابها المروءة الانسانية ، / المانعة من قبول [48] الانسان خطة لا يباشرها بصدق نية •

وبالجملة فاسناد الشيء الى عهدة متمنى زواله من أقوى موجبات اختلاله واضمحلاله •

40 ــ الشبهة الرابعة

وأما الشبهة الرابعة وهى اقتضاء التنظيمات لمزيد الضرائب على المملكة ، فجوابها أن هذا القائل المسكين لو علم ما ينشأ عن حالة الاستبداد وحالة التقيد بالتنظيمات ، لما صدرت منه هذه القولة الوهمية المبنية على عكس القضية ؛ فان حالة الاستبداد هى التى تقتضى كثرة الضرائب ؛ إذ يؤخذ فيها اللازم وغير اللازم ليصرف فيما هو فى الغالب غير لازم ، بخلاف حالة التقيد فانها بضبط الدخل وصرفه في خصوص الأمور اللازمة لا تكلف فيها أهل المملكة إلا بضرائب تسمح بها نفوسهم ، حيث يرون لزومها وصرفها فى مصالح وطنهم •

فاذا قابلنا ما يلزم صرفه على إجراء التنظيمات ، بما ينقص بها من المصاريف والخطط غير اللازمة ، التى لم تكن محدودة قبل التنظيمات بعدد ولا ضابط ، مع ما يرتفع بها من المظالم التى لا تقف بدونها عند حد ، لم يبق للمنصف شك فى أن التنظيمات ــ على فرض كثرة خططها ــ من أقوى أسباب الاقتصاد والتوفير ؛ لاسيما والمباشرون لاستخلاص المجابى متقيدون بالقوانين أيضا •

فشتان بين حالة المستبد الذى يأخذ ويعطى بمقتضى الشهوة والاختيار ، وحالة المتقيد بالقوانين الذى يفعل ما ذكر بمقتضاها متوقعا تعقب آراء كثيرة يخجل من تنزيلها إياه منزلة القاصر فى تصرفه ، فضلا عن الخائن فيه ٠

فبان بهذا أن المصاريف البالغة التى تكلف المملكة ما لاطاقة لها به إنما تكون فى حالةالاستبداد ، وأن الاقتصاد الذى هو منشأ خيرها إنما يحصل بضبط سائر التصرفات بقيود التنظيمات ٠

وفى هذا المقدار كفاية لمن تبصر فى الفرق بين الحالتين ٠

ولو أطلقنا عنان القلم فى بيان حال بعض الدول فى مصاريفها، وفى سيرة المباشرين لها قبل تأسيس / التنظيمات ومعها وبعدها [49] حين تيسر تعطيلها لأهل الأغراض والشهوات من ارباب الخطط ، ورجعوا للتصرف بلا قيد ولا احتساب باعانة أمثال هذا القادح ، لتبين له أن قلة معرفته بنتائج التنظيمات هى التى غرته وأغرته على القدح فيها بمثل ما أسلفناه ، وعلى إعانة الساعين فى تعطيلها لفوائدهم الخصوصية المضرة بالدولة والمملكة ، لكن سعة مجال الكلام فى ذلك تخرجنا عن المقصود ٠

هذا وإذا كانت الدولة العثمانية التى هى مركز الخلافة الاسلامية مع ما أشرنا إليه سابقا من العوائق الخاصة بها ، لم تزل مجتهدة فى رفع تلك العوائق اجتهادا يرجى منه تمام نجاحها، بتأسيس ما يتم به خير ممالكها ، وحفظ حقوق رعاياها ، فغيرها

أحرى وأولى لانتفاء تلك العوائق عنها ؛ فلا يظهر لملوكها سبب قوى فى الامتناع إلا حب الاستبداد الموصل للشهوات ·

ثم نقول كما كان ترتيب التنظيمات واجبا على من تقدم بمراعاة حال الوقت ، فمن اللائق أيضا بمن يدعى من الدول الأورباوية المتمدنة حب الخير للنوع الانسانى أن يعينوا فى هذا الشأن ، ولو بالكف عن التعطيل ، خصوصا من له فائدة فى دوام استقلال الامة الاسلامية ·

41 ـ خاتمة : الشريعة لا تنافي تأسيس التنظيمات

هذا ما دعت الحاجة الى تحريره من أسباب التقدم والتأخر للأمة الاسلامية ، ملخصا جله من الكتب الاسلامية والافرنجية · وبه يعلم من لاخبرة له بأحوال الاسلام من الأورباويين وغيرهم ما كان للأمة من التقدم فى المعارف وغيرها ، وقت نفوذ الشريعة فى أحوالها ودخول الولاة تحت قيودها ، وأن الشريعة لاتنافى تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران، كما يعتقده الكثير ممن ذكرنا ، حتى صاروا يدرجون ذلك فى صحف أخبارهم ومستحدثات تآليفهم : ولا سبب لذلك ـ يمكن اعتذارهم به عن سريان ذلك لاعتقادهم ـ إلا ما يشاهدونه فى ممالك الاسلام من اختلال التصرفات / والأحكام ، وما نشأ عنه [50] من سوء حال الرعايا · وهذا ونحوه من مضار تقصير الأمراء فى حماية الشريعة ، واستبدادهم بالتصرف بمقتضى شهواتهم ، مع إغفال العلماء القيام بما أهلهم الله له ، باعراضهم عن مقتضيات أحوال الوقت ـ كما اشير اليه سابقا ـ ولا يخفى أن البقاء على هذه الحالة مما يعظم خطره ، وتخشى عواقبه ·

سمعت من بعض أعيان أوربا ما معناه : « إن التمدن الأورباوى تدفق سيله فى الأرض ، فلا يعارضه شىء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع ، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار إلا إذا حذوه وجروا مجراه فى التنظيمات الدنيوية ، فيمكن نجاتهم من الغرق » •

وهذا التمثيل المحزن لمحب الوطن مما يصدقه العيان والتجربة، فان المجاورة لها من التأثير بالطبع ما يشتد بكثرة المخالطة الناشئة عن كثرة نتائج الصناعات ، بحيث تلجىء لاخراجها والانتفاع بأثمانها • وهو سبب ثروتهم كما تقدم •

42 ـ رجوع الى التمدن الاروبى

ولنقتصر على هذا المقدار من الاشارة الى أسباب التقدم والتأخر فى الأمة الاسلامية ، ونرجع إلى ذكر أطوار التمدن الأورباوى من أيام الامبراطور شارلمان الى هذا التاريخ ، على وجه إجمالى يقتدر به على الاحاطة بأنواع التمدن المكتسب بالمعارف ، ويستفيد منه من يريد معرفة الأشخاص الذين اشتهروا بكشف كنوز الطبيعة ، وأسرار التهذيب ، ورسوم معالم السياسة (114) •

(114)هنا ينتهى الاستطراد الذى جر خير الدين الى الاطناب فى الحديث عن الحضارة الغربية ويستأنف الحديث عن الاخيرة وقد لمح اليها فى حديثه
الحضارة الغربية ويستانف الحديث عن الاخيرة وقد لمح اليها فى حديثه
عن الملك الفرنسى شارلمان •
انظر اعلاه : تعليق (26) ــ من قوله : « ولما كان الغرض من هذا الكتاب لا يتم الا ببيان احوال البلدان الاورباوية لزم ان نثنى العنان اليه مدرجين فى اثنائه ما يناسب الامة الاسلامية فنقول ان الحالة الراهنة فى ممالك اوربا •• الى زمن ولاية الامبراطور شارلمان ملك فرنسا ••• »

[51] / التمـــدّن الأوربّـــاوي

43 ـ شرلمـــان

اعلم أن الامبراطور شارلمان الذى أســس دعائـم السياســة والاحكام ، كان أشهر ملك ظهر بأوربا ؛ من وقت سقوط الدولة الرومانية إلى سقوط دولة الاغريق (115) التى كان تحت مملكتها القسطنطينية العظمى · وهو الذى أدخل العلوم والاعمال لممالكه وكان يفنى غالب أوقاته فى قراءة العلــوم ، وكــان مجلســه محفوفا بالعلماء · وأسس بباريس مدرسة جامعة لسائر المعارف·

44 ـ انحطــاط أروبــا

وبمثل هاته المآثر حصل له من السمعة فى أقطار الأرض مـــا استمال الخليفة هارون الرشيد (116) الىصحبته ، ومهاداته بتحف منها منقالة (117) لم تزل الى الآن فى أحد قصور فرنسا ·

ثم بعد وفاة الامبراطور المذكور وفقدان تدبيره تعطلت تلك المصالح ، وتنازلت أوربا وبقيت مغمورة فى دجى الجهل مـــدة

(115)الاغريق : البيزنطيون او الروم ·

(116)هارون الرشيد : (149 ـ 193 / 766 ـ 809) خامس خلفاء بنى العباس وثالث ابناء المهدى ، شهد عصره ابتداء الانحلال السيـاسى وانقســام الخلافة العباسية الى دويلات وامارات ، وتكفى الاشارة الى ظهور دولـــة الاغالبة بافريقية ، والادارسة بالمغرب الاقصى ، والامويين بالاندلس ، لكن كانت له مواقف مشهورة ضد البيزنطيين ·
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط· 2 ، III ، 239 ـ 241 ·

(117) ساعة : آلة توقيت ·

ستمائة سنة · وفى هاته المدة كانت موطئا لأقدام البرابرة الذين كانت دولتهم تتداول عليها · ومع ذلك الفشل التام فان أهل الكنيسة منهم كانوا محافظين على كتب المعارف ، وعلى اللسانين اللذين لولاهما ما انتفع بتلك الكتب ، وهما اليونانى واللاتيني؛ فالناس ممنونون لهم بذلك ·

45 ـ القرن الحادى عشر

ثم فى القرن الحادى عشر الذى هو خامس قرون الهجرة النبوية ظهرت مبادى علوم وصناعات وهندسة فى الأبنية ، فأنشئت بها هياكل فى الناحية الغربية من أوربا ، وأخذ علم الفلسفة فى النمو بين محاورات كلامية ومنازعات جدلية ، وظهر حزب الفرسان الذين اشتهروا باسم الكوليير (118)،وهم جماعة من وجوه الناس [52] تحالفوا على أن يحاربوا فى الله / للمدافعة عن حرية النسوة ، والمستضعفين من سائر الأهالى ، وأن لا يلاحظوا فى أفعالهم ـ لاسيما المحاربة ـ إلا مقتضيات الشرف الانسانى ، وعلو الهمة ولو مع أعدى الاعادى ، مثلا : يرحمون من يسترحمهم ، ولا يجهزون على جريحهم ، ولا يبتزون سلب قتيلهم ·

---

(118)الكوليير (ايطالية) : الفرسان وهم الأسياد الذى ينتمون الى طبقة النبلاء باوربا فى القرون الوسطى ·
والكلمة تحريف لـ : Chevaliers ← cavaliers نسبة الى الايطالية : Cavaliere

46 ــ القرنان الثاني والثالث عشر

ومن أواخر هذا القرن الى أواسط القرن الثالث عشر كانت حروب الصليبيين مع المسلمين لافتكاك بيت المقدس ، وقطع استيلائهم على الأمم فى زعمهم .

وإنما أشرنا لهاته الحروب والفرسان لبيان ما لها من الدخل فى التمدن الأورباوى ، فان مؤرخيهم يقولون إن تلك الحروب وإن هلكت فيها نفوس عديدة ، وأموال غزيرة بدون الحصول على المقصود بالذات ، فانها أعقبت نتائج نافعة لهم . منها أنهم من ذلك الوقت شرعوا فى ترتيب العساكر ، وتعلموا بمواصلتهم لأهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك، وتخلقوا بأخلاق الحضر ، وتعودوا بالأسفار لاستكشاف أحوال الأقطار ؛ فاطلعوا على أحوال آسيا المتوسطة وأحوال الصين كما ذلك مبين بتأليف ماركو بولو (119) .

وبالجملة فبالسبب المذكور ــ وهو مخالطة الأورباويين للأمة الاسلامية المتقدمة عليهم فى التمدن والحضارة ــ كان ابتداء التمدن عندهم ، لاسيما فى القرن الثالث عشر . ثم تهذب حتى وصل إلى ما هو مشاهد اليوم .

---

(119) ماركو بولو : MARCO POLO (1254 ــ 1324) : رحالة ايطالى من مواليد البندقية، كتابه دائرة معارف جغرافية مشهورة. ونحن نثبت فيما يلي اعلام الاوربيين الذين يذكرهم خير الدين مقتصرين على رسم اسمائهم بالحروف اللاطينية حتى يتمكن القارىء من قراءة اسمائهم قراءة صحيحة .

وانتهت إذ ذاك رئاسة العلوم والآداب والفلسفة الى صبان برنار (120) بفرنسا ، وصان توماس (121) بايطاليا ، والبرت الكبير (122) بألمانيا ، وريموندو لولو (123) باسبانيا ، وجن دونسكوت (124) بانكلترة . وظهرت الشعراء والمهندسون والكنائس الأصولية والهياكل الفخيمة المنسوبة للقرون المتوسطة .

47 ـ القرن الرابع عشر

وفي القرن الرابع عشر نالت تلك الأمور شرفها ، خصوصا فى إيطاليا فان دانتى (125) حرر اللسان الطليانى وقرره فى شبه أراجيز يتخلد ذكرها . وجيوتو (126) وتشيمابوى (127) أحييا صناعة الدهن ، وبتراركا (128) وبكاتشو (129) سلكا طريقة دانتى فى النظم والنثر .

48 ـ القرن الخامس عشر

[53] ثم فى / أواسط القرن الخامس عشر ، وهو الوقت الذى لا ينسى لغرابة حوادثه ، اخترع غتمبرغ (130) من آهل ميانس

(120 Saint Bernard
(121 Saint Thomas
(122 Albert Le Grand
(123 Raymond Lulle
(124 John Duns Scotus
(125 Dante
(126 Giotto
(127 Cimabué
(128 Petrarque
(129 Boccaccio
(130 Gutenberg

بألمانيا طبع الكتب ، الذى حصل به من تنمية مواد العلوم وسرعة انتشارها فى أقطار الأرض ما يغنى فيه العيان عن البيان • وأول ما طبع منها كتاب فى أشعار اللغة اللاتينية التى عاد الى استعمالها أهل ايطاليا ، وتكاثرت بها أشعارهم بعد أن تناسوها • وهى وإن لم تأخذ مأخذها فى التوصل بها الى المعانى الدقيقة واللطائف البديعة، فقد رجعت الى ما كانت عليه من الطلاوة وحسن السبك •

ثم أخذ التمدن فى الترقى بمدارج العلوم والأعمال • وكانت المزية فى ذلك لجماعة الميدشى (131)، الذين كانوا رؤساء الدولة الجمهورية بفلورنسة ، ثم صاروا أمراءها ؛ فهم الذين مهدوا سبلها للناس • وكان اشتهارهم بذلك فى القرن السادس عشر ، المعبر عنه بالقرن الكبير ، الذى كانت أيامه تضاهى بأولئك الرؤساء أيام أغسطوس أول قياصرة الرومان ، فى الأشعار وحسن هندسة البناء وبديع أشكاله ، اقتداء بالرومانيين الذين اقتدوا فى ذلك باليونان •

ومن حوادث القرن الخامس عشر أن جماعة الميدشى المشار إليهم ، والبابا ليون العاشر الذى هو منهم ؛ بحثوا فى الخزائن عن الكتب القديمة ، وطبعوها لاستكثار نسخها ، وجعلوا عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة • وبذلك ارتفع عن محاسن الأقدمين القناع الذى تكاثف بتطاول السنين •

Médicis (131

وفى تلك المدة ظهر الشاعران أريوستو (132) وتاسو (133) اللذان أشهرا اللسان الطلياني المستعمل الآن • وهما فى الطبقة الأولى من مشاهير تلك اللغة •

فأولهما خلد ذكره باختراع معان لم يسبق إليها ، فى ألفاظ مهذبة مستعذبة •

والثانى نال شهرة أميرس (134) الشاعر اليونانى ، وفرجيل (135) الشاعر اللاتينى •

وبالجملة فاللسان الطليانى أخذ فى ذلك الوقت مأخذه من السلاسة وحسن السبك ، وألفت به تآليف عديدة فى فنون شتى •

[54] ومن مشاهير القرن / المذكور مكيافلى (136) الذى كان أول من بين القواعد السياسية بعد سقوط الدولة الرومانية ، وغويتشر دينى (137) الذى بلغ بجودة الفكر وحسن التعبير الى إتقان التصنيف فى التاريخ ، وفراباولو (138) الذى اشتهر بالمدافعة عن حرية الوطن بقلم غيور منصف فى ضدسياسةالبابواتالدائرة رحاها على إيثار الشهوات •

(132 Arioste
(133 Le Tasse
134 Homère
(135 Virgile
(136 Machiavel
(137 Guicciardini
(138 Fra Paolo

وفى ذلك الوقت ظهر بمملكة إسبانيا التى كانت اكتسبت من المسلمين أنواعا من الظرف كالفروسية واللعب بالرماح ، وتعاطى المعانى الغريبة من الأشعار ، الناظمان المجيدان لوبس دفيغا(139) وكالدرون (140) ، اللذان أظهرا من التراكيب الشعرية ما حسن إلقاؤه فى المجامع المعدة لتهذيب الأخلاق المسماة عندهم بالتياطرات (141) .

كما ظهر فى ذلك الوقت عند الانكليز الناظم الشهير شكسبير (142) وهو وإن لم يخل كلامه عن الهفوات ، فله النفيس من جوهره ، ويتوصل بفصاحته الى الكشف عن كنه ما يروم وصفه ، والاحاطة بكيفيته الحسية والمعنوية ، لا سيما فى وصف الحروب بحيث إن سامع كلامه يكون كالمشاهد لما يصفه .

وأما أهل شمال أوربا فلم يشتهروا الى ذلك الوقت بشىء من أعمال الفكر ، غير أن منهم من لاتنكر منته على العرفان مثل كبرنيك (143) من أهل بولونيا ، المولود سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة والف [1473] وهو الذى حرر القول بأن الشمس فى مركز العالم ، وأن الأرض والكواكب تدور حولها . قيل ، وليس

(139 Lope de Vega

(140 Calderon

(141) التياطرات : المسارح ، اول من استعمل هذا اللفظ من التونسيين : ابن ابى الضياف ، **اتحاف** ، ١٧ ، 102 .

(142 Shakespeare

(143 Copernic

هو أول قائل بذلك ، وإنما الأول فيلولاوس (144) أحد تلامـذة فيثاغورس (145) ، وذلك قبل وجود كبرنيك المذكور بألفى عام لكن وقع الانفصال على أن كبرنيك هو الذى ينبـغى أن ينسـب إليه مزية الابتكار لهذا القول ، وان انتفع فى الاهتداء إليه بقول فيلولاوس المذكور ·

وممن حرر الدليل على تلك الدعوى بما يقرب مـن المشاهدة غليلاو (146) الطلياني ، وأعانه على ذلك ما اخترعه مسيـوس [55] (147) من أهل هولاند من آلة البلور التى تكبر الأشياء / فكانت مرآته تكبر الشيء مائة وستين مرة زيادة على مقدار جرمه ، ثـم تهذبت تلك الآلة حتى صارت تكبره من ألفين إلى ثلاثـة آلاف وأكثر · ولم تزل تلك الدعوى تترجح عند أهل أوربـا الى أن صارت مسلمة لديهم ، وبواسطة تلك الآلة اطلع غليلاو المذكور على كواكب لم تكن معهودة · وهو وتلميذه توريشلى (148) أول من عرف وزن الهواء ، وأن طلوع الماء فى الطلنبة (149) مسبب عن ضغط الهواء لسطح الماء ، وأن نهاية صعوده اثنان وثلاثون قدما ؛ حيث أن قوة عمود الهواء النازل على سطح الماء لا تتجاوز المقدار المذكور ، فلا ينجذب بها الماء الى أكثر من ذلك ·

---

144) Philolaus
145) Pythagore
146) Galilée
147) لم نتوصل الى التعرف على اسمه فى المعاجم ·
148) Toricelli
149) دخيلة محرفة : trompe ، وهى ضرب من المضخة الكبيرة ·

والحاصل أن أهل إيطاليا اغتنموا فى ذلك الوقت شهرة بالآداب والصناعات المستظرفة المسماة عندهم **بوزار** (150) ، وهى صناعة الدهن والنقش ، وهندسة البناء ، والموسيقى • وحصلوا على ما أمكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة •

وأما ألمانيا فقد اشتهر فيها تيخوبراهى (151) وكوبلر (152) •

فالأول أفنى عمره وماله فى طلب العلم واقتناص شوارده حتى سمى بالمحسن إلى العلـم •

والثانى صرف المهجة الى علم الفلك حتى قيـل لـه صاحـب الاحكـام •

وأما انكلترة فانها صارت بقرب ذلك العهد ذات يد فى العلوم الرياضية والحكمة الكلامية ، وممن اشتهر فيهافرنسس باكن(153) ذو الفكر الوقاد ، والجد والاجتهاد• وقد صحت تسمية تأليفه **بحالة العلوم الجديدة** • واستند فى دعاويه الى التجـارب المفرغـة فى قالب الأسلوب الفلسفى ، حتى قيل : « إن فن الطبيعيات صـار بقواعد الكتاب المذكور كما ينبغى أن يكون » •

49 ــ القرن السادس عشر

وفى القرن السادس عشر امتاز أهل فرنسا بعلـم الأحكـام

(150 Beaux arts
(151 Tycho Brache (1546 ــ 1601) وهو دانماركى لا المانى •
(152 Kepler
(153 Francis Bacon

الآتى بيانه ، واشتهر منهم بذلك عدد كثير مثـل كوجـا (154) ودوملان (155) وميشال دولبيتال (156) الذين عمروا مكاتـب الأحكام • والماهر الفصيح فرنل (157) المتسلطن فى علم الطب ، وآمبرواز برى (158) أعرف أهل وقته بأحـوال الجراحـات ، وفيات (159) الذى اختصر كتب / الجبر بوضع حروف نائبة عن [56] الأعداد ، وصيره لعلم المساحة كالمنطق لسائر العلوم ، وبيـار لسكو (160) الذى هندس بناء اللوفر (161) ، وفلبار دلورم (162) الذى هندس قصر مودون (163) وقصر التويلرى (164) ، والأول والثالث بباريس يسكن بهما ملوكها ، والثانى بقربها •

ثم إن فرنسا وإن بلغت فى هذا الوقت ما بلغته مـن التمـدن والتهذيب ، وفاقت أمما كثيرة ممن تقدمها إلا أنها لـم تضـاه نظائرها، حيث لم يكن لسانها فى ذلك الوقت خالصا من الشوائب•

ومن مشاهيرها فى تلك المدة آميو (165) ومارو (166) فالأول

Cujas (154
Dumoulin (155
Michel de l'Hôpital (156
Farnal (157
Ambroise Paré (158
Vieta 159
Pierre Lescot (160
Louvre (161
Philibert Delorme (162
Medon (163
Tuileries (164
Amyot (165
Marot (166

فى الانشاء والثانى فى النظم تميزا بسلامة السليقة وقلة التعقيد . ومنهم ربلى (167) متقن صياغة مثالب الهجو ، وموتتان (168) الفيلسوف الذى سهل طرق المعانى وأداءها بألفاظ راشقة ، وشرح ماهية الانسان غير محمول بعين الرضى على تحسين معائبه ، ولا بعين السخط على تقبيح محاسنه .

وفى هذا القرن اشتهر بايطاليا بين أرباب الصناعات رفايل (169) وميكلانج (170) وليوناردو داو ينشى (171) وأشخاص آخرون فى صناعة الدهن ، والنقش ، والبناء ، فبهم وبتلامذتهم تجدد **البوزار** فى سائر نواحى أوربا .

50 ـ القرن السابع عشر

وفى القرن السابع عشر بلغت العلوم الرياضية والأدبية فى أوربا الى الغاية القصوى ، وذلك بكثرة العلماء الذين نمت بهم المعارف ، حتى صار من كان يعد من مشاهير العلماء فى القرون الماضية ، يعد من عامتهم فى هذا القرن ، خصوصا أهل فرنسا الذين ترقوا فى سائر المعارف وتقدموا من عداهم من أهل أوربا فى الفصاحة نظما ونثرا ، وفى صناعة **البوزار** المتقدم بيانها .

---

167) Rabelais
168) Montaigne
169) Raphaël
170) Michel-Ange
171) Léonard de Vinci

فمن مشاهير هذا القرن باسكال (172) المشتهر بفن الحساب والطبيعيات والانشاء ، ألف كتابا سماه بما ترجمته « **مكاتيب أهل القرى** » وهو من أشهر ما ألف فى الارسال ، وتعرض فيه للقدح فى سيرة الجزويت (حزب يعرف باليسوعية ، دأبهم جلب الناس بكل وجه ممكن الى الديانة النصرانية ، والمدافعة عن [57] السياسة / (البابوية) .

ومنهم دكارت (173) المعدود فى الطبقة الأولى من مخترعى العلوم الرياضية باستعمال قواعد الجبر فى المساحة ، وإتقان التصرف فى علم الفلسفة، وهو من أشهر العلماء الذين هذبوا أخلاق البشر .

ثم بوردلو (174) وماسليون (175) اللذان أظهرا فصاحة لم تكن لأحد قبلهما من خطباء ديانتهم .

ثم بوسوى (176) الذى بلغ فى حسن التأبين ، وفى خطبته على التاريخ العام السائرة مسير المثل عند أهل أوربا ، درجة لم يبلغها أحد بعده .

ثم بوالو (177) الذى بين قواعد الشعر عندهم .

ثم لا برويار (178) المعدود من السابقين فى علم التهذيب .

---

172) Pascal
173) Descartes
174) Bourdaloue
175) Massillon
176) Bossuet
177) Boileau
178) la Bruyère

ثم فنلون (179) صاحب التأليف المشهور المسمى **تلماك** (180) الجامع لأسباب التهذيب البشرى .

ثم كرنيل (181) وراسين (182) اللذان لا يقاسان فى التراجيديا إلا بمشاهير اليونان (وهى محاكاة الحروب والوقائع) والكوميديا (وهى محاكاة أمور فى قالب الهزل) .

ثم موليير (183) فى الكوميدات ، ولافونتين (184) فى الأمثال تقدما من كان قبلهما .

وفى القرن المذكور ظهر بألمانيا الحكيم ليبنتس (185) وكان له شهرة فى علم التاريخ والطبيعيات ، لاسيما الرياضيات والفلسفة فقد كان له فيهما اليد الطولى .

وفى هذا القرن تميز علماء الانكليز عن غيرهم باتقان علم الهيئة والفلك ، فمنهم هالى (186) الذى شرح خواص الهواء ، وأسرار مد البحر وجزره ، وأسرار المغناطيس ، وحركات ذوات الأذناب . وارتكب المشاق والأخطار فى تطلب العلم من نوازح الأقطار ، حتى بلغ جزيرة صانت الآن (187) فى البحر المحيط ،

Fenelon (179
Telemaque (180
Corneille (181
Racine (182
Molière (183
La Fontaine (184
Leibniz (185
Halley 186
Sainte Hélène (187

ورسم على صخورها خريطة نجوم القسم الجنوبى من الهيئـة ·
وبذلك ارتفع شأن رصد غرينتش (188) فى انكلترة ·

ثم المنجم فلامستيد (189) الذى بين ملاحظات عديدة فى علـم الفلك تلقاها الناس بالقبول ·

ثم نيوطن (190) المشتهر اشتهارا أنسى به ذكر سابقيه ، وله تأليف كبير أحدث به فى الفلسفة تغييرا غريبا ، وقع من الناس موقـع الاعجـاب ·

[58] وفى ذلك الوقت ظهر من شعراء الانكليـز / درايـدن (191) وبوب (192) ، ومن كتبة الانشاء أدسون (193) ·

51 ـ القـرن الثامن عشر

وفي القرن الثامن عشر حازت فرنسا خمسة أشخاص من مشاهير الكتبة ، بذلوا الجهد فى إيضاح طرق الفلسفة وتشييد مبانيها ·

وهم : فونتنيل (194) الذى انسجمت مكاتيبه فيها ·

---

188) Greenwich
189) Flamsteed
190) Newton
191) Dryden
192) Pope
193) Addison
194) Fontenelle

ثم بوفون (195) مشفع أفلاطون ، وبلين (196) الذى كسا علم الفلسفة رقة التعبير فى كتابه الذى خلد ذكره ، وأعرب عن رقة طبعه ودماثة أخلاقه ٠

ثم مونتسكيو(197) الذى صرف همته الى كتب السياسة،وأبانت تصانيفه عن غاية معرفته بها ٠ وكفى شاهدا على ذلك ما كتبه فى **السبب الذى كبرت به الدولة الرومانية وتعاظمت ، والذى سقطت به وانقرضت** ، وهو كتاب عجيب يحتوى على تعليقات صادقة وعبارات محررة راشقة ٠ وكتابه الآخر المسمى **بحكمة القوانين** الذى بين فيه الحقوق الانسانية ، وقسمها الى ثلاثة أقسام : أولها الحقوق المعتبرة بين الأمم فى خلطتها السياسية والمتجرية ، وثانيها حقوق الدول على رعاياها وبالعكس ، وثالثها حقوق الاهالى فيما بينهم ٠ ثم قسم حالة الدول الى ثلاثة أقسام أيضا : الأول الدولة الوراثية خلفا عن سلف المطلقة التصرف بلا قيد ٠ الثانى الدولة الوراثية كذلك المقيدة بالقوانين ٠ الثالث الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين أيضا ٠ والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الأمة رئيسا لدولتهم يتصرف فى إدارتها بمقتضى القوانين مدة حياته ، أو لمدة معلومة ، ثم ينتخب غيره ٠ وبين ما ينشأ من الخير والشر عن الأحوال الثلاثة ٠ وهو معدود عند أهل أوربا قانونا صحيحا فى الأحكام ٠ ومن تمثيلاته البديعة

(195 Buffon
(196 Balin
(197 Montesquieu

تشبيه المستبد فى تصرفاته بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطـع الشجرة من أصلها • وله فى غير ذلك تآليف عديدة تلقاها الناس بالقبـول •

ورابعهم دلمبير (198) صاحب التأليف المحلى بقلائد القواعد ، الحاوى بأوضح بيان ما كاد يأتى على سائر الفوائد •

[59] وخامسهم كندلياك (199) الذى بسط أشعة / التحقيـق عـلى تأليف لوك (200) الانكليزى فى علم الفلسفة •

ومن مشاهير القرن الثامن عشر ولتير (201) وهوممن أخذراية الكتابة باليمين والشمال ، واشتهر فى سائر فنونهـا اشتهـار الدجال (202) فى الأجيال ، ولو لم يحمله انحلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته أتم ، والنفع بمعارفه أعـم •

ومنهم جانجاك روصو (203) وهو نظير ولتير فى الشهرة ، وله من حسن التعبير ما لا تستقر معه الأوهام • وهـذان الكاتبـان المجيدان هما اللذان أنشآ ثورة أهل فرنسا سنة تسع وثمانيـن

(198 D'alembert

(199 Condillac

(200 Look

(201 Voltaire

(202) الدجال : فتنة الدجال الذى سيملأ الدنيا جورا قبيل ان يقتله المهـدى المنتظر فيسود الاسلام جميع انحاء العالم •
انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط• 2 ، II ، 77 ـ 78 •

(203 J. J. Rousseau

وسبعمائة وألف [1789] الموافقة لسنة مائتين وألف هجرية [1200] وهيآ أسبابها واستعجلا وقوعها ٠

ومنهم جان باتيست روصو (204) صاحب الأشعار والمعـانى الرائقـة ٠

ومنهم لوساج (205) مؤلف جلبلاس (206) الكتاب المحتوى على المقامة الفلسفية ، الذى هو من أحسن ما ألف فى بابه ٠

ومن مشاهير هذا القرن لناوس (207) من أهل السويد ، اشتهر فى الطبيعيـات ٠

وفيه ظهر بألمانيا الشاعران غوتى (208) وشلر (209) ، فالأول فان أقرانه فى محاسن الآداب، والثانى استحق اسم المجدد لتياطرات الألمان ، فانه ركب ألعاب معتبرة ينشد فيها مستظرفات الأشعار ٠ وله تآليف فى التاريخ شاهدة بتقدمه فى ميدان الأفكار ٠

كما ظهر فيه بانكلترة المؤرخون الثلاثة الذين تشرف بـهم وطنهم ، وهم غيبون (210) وهيوم (211) وروبرتسون (212) ٠ ثم ظهر بها أيضا آدم سميث (213) الـذى فاق أقرانـه فى علـم

(204 J. B. Rousseau
(205 Lesage
(206 Gil Blas
(207 Linnaeus
(208 Goethe
(209 Shiller
(210 Gilbon
(211 Hume
(212 Robertson
(213 Adam Smith

الرياضيات والاقتصاد السياسى • والمعلم الطبيعى بانكس(214) والجراحيان وليم هنتر (215) وأخوه جن (216) وكاوندش (217) الذى حلل أجزاء الماء • والفلكيون برادلى (218) وهرشل (219) وبنجمن فرانكلن (220) الذى خلد اسمه ببيان الأمور المتعلقة بالجاذب المغناطيسى •

ومن مشاهير انكلترة فى القرن المذكور أركرايت (221) الذى اخترع آلة غزل القطن ، ثم خرج عن صف العامة ثلاثة أشخاص استنبطوا لهذه الآلة ما أكسبها قوة غير محصورة ، وهم سميطن (222) وفلطن (223) وجامس وات (224) •

[60] / وهذا الأخير هو الذى اخترع الكيفية العجيبة فى الانتفاع بالآلة البخارية ، التى اخترعها أولا نيوكمن (225) •

كما ظهر بهذا القرن الخدمات العجيبة الهائلة على يد المهندس برادلى (226) ، فتضاعفت طرق المواصلة بانكلترة ، وفتحت الخلج

(214 Banks
(215 William Hunter
(216 John
(217 Cavendish
(218 Bradley
(219 Herschel
(220 Benjamin Franklin
(221 Arkuright
(222 Smeaton
(223 Fulton
(224 James Watt
(225 Newcomen
(226 Bradley

العديدة فى الأماكن التى كانت معطلة • وبذلك نمت نتائج الأيدى واتسعت دوائر متجر الانكليز وثروتهم ، وارتفع شأن السياسة • فمن النتائج كثرة استخراج معادن الأرض بسهولة المناولة والمواصلة ، وكذا جلب القطن والكتان وغيرهما ، واصطناع الأقمشة منها فى أسرع وقت ، كل ذلك بمعونة الآلات المذكورة • وقد كبرت بلدانها الصغيرة لاتساع نطاق المتجر فيها ، حتى صارت من البلدان المعتبرة •

وهاك مثالا جزئيا تعلم به التبديلات الخطيرة الواقعة فى أحوال المتجر ، وهو أن قيمة ما كان يخرج من سائر بلدان انكلترة من القطن المصنوع لم تكن فى أوائل القرن الثامن عشر تتجاوز خمسمائة ألف فرنك فى السنة ، وفى أواسط هذا القرن بلغت قيمة ما يخرج من ذلك فى السنة خمسمائة مليون فرنك •

ولنمسك عنان القلم هنا حيث بلغنا الى القرن التاسع عشر الذى صار فيه المشاهير بالعلوم والصناعات أكثر من أن يحصوا ، والساعون فيما يزيد نوع البشر تحسينا أجل من أن يضبطوا • ولم يزل الملوك يرغبون الناس فى أسباب التمدن وينشطونهم بالجوائز وعلامات العناية ، وبوضع صور مشاهيرهم بمجامع العامة لتوفير دواعى البحث عما يمكن أن ينفع جنسهم ويخلد ذكرهم •

[61] / تلخيص المكتشفات والمخترعات

52 ـ أهم المكتشفات والمخترعات من القرن 14 الى 18

فى أوائل القرن الرابع عشر استعمل أهل أوربا فى سفنهم البوصلة المنقولة عن العرب كما تقدم • وكشف أهل البرتغال عدة جهات من شطوط إفريقية الغربية ، وأحاطوا بالجهة الجنوبية من رأس الزعزعة المسمى من ذلك الوقت رأس الرجاء الصالح • ووجدوا بذلك طريق الهند فى البحر ، وأحدثوا فيها عدة مستعمرات •

وفى سنة ست وثلاثين وأربعمائة وألف [1436] ، اخترع المطبع بألمانيا • وفى سنة ست وستين وأربعمائة وألف [1466] ، وجدت فبريكة الحرير بمدينة ليون من فرنسا • وفى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وألف [1492] ، كشف كريستوف كولومب أميركا •

وفى القرن السابع عشر حدثت فبريكة القطن بانكلترة وفرنسا وظهرت المرآة التى تكبر الأشياء المتقدم ذكرها ، وظهرت البوسطة أى بيت المكاتيب ، وتحرر ميزان الهواء بالوجه المتقدم • وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف [1648] ، ظهر استعمال الكينا (227) بأوربا • وفى سنة سبع وستين وستمائة والف [1667] استعملت فبريكة نسج البسط (228) الرفيعة بباريس •

---

(227) الكينا : دواء ضد الحمى : quinine

(228) البسط : ج بساط : الزربية •

وفى سنة أربعين وسبعمائة وألف [1740] أنشئت فبريكة الذكير المذاب بانكلترة • وفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وألـف [1752] اخترع فرنكلن جواذب الصاعقة التى تجـذب القـــوة الكهربائية من السحاب وتدخل بها فى الأرض •

وفى سنة ستين وسبعمائة وألف [1760] ، تأسس بباريس محل تعليم الصم البكم والعمى القراءة والكتابة والرياضات، ثم اقتدى بذلك بقية ممالك أوربا ، حتى أنه يوجد اليوم بها من الأماكـن / المخصوصة بتعليمهم نحو مائة وخمسين ، وكيفية ذلك فى الاصم الأبكم أن يروه صور الحروف ويصطلحوا معه على تخصيص كل حرف منها باشارة مخصوصة فى الأصابع ، ثم يحضروا له الشىء المراد تعريفه إياه ، ويكتبوا اسمه له على مقتضى تلك الحروف الاشارية فبهذه الواسطة يصير قابلا للتعليم لتيسر الكلام معه بسهولـة • وفى الأعمى بجعل حروف له ذات أجرام ، فبذلك يقبل تعلـــم القراءة والكتابة • وإذا أريد تعليمه الجغرافيا ترسم له الخريطة أجراما محسوسة ، فيسهل تعمله إياها جدا ، حتى يصير بحيــث متى طلب منه تعيين محل من الأرض ، أو بلد من البلدان ، وضع يده عليه بدون مشقـــة •

وفى سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف [1776] ، اخترع الطبيب جنر (229) الانكليزى من مدينة بركلى (230) كيفية تلقيح الجدرى

(229 Jeuner

(230 Berkley

53 ـ الآلــة البخاريــة

وقد تنازع مؤرخو الانكليز والفرنسيس وأميركا في اختراع الآلة البخارية ، فكل يدعى ذلك لأهل مملكته • والــذي حــرره أراغو (231) الفلكي الفرنساوي هــو أن المــاكينــجي هيــرون الاسكندراني (232) فكر في قوة البخار ، والمنافع الــتي يمكــن تحصيلها به ، وكان ذلك قبل الميلاد المسيحي بمائة وعشرين سنة ، لكن بقي هذا الرأي عقيما عدة قرون ، ثم في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وألف [1543] من الميلاد المذكور كتب بلاسكودي غراي (233) الاسبنيولي الأصول التي يمكن حصولها عن تلك القوة وفكرة استعمالها، وكتب مثل ذلك سلمون دوكوس (234) الفرنساوي في سنة خمس عشرة وستمائة وألف [1615] ، ثم في سنة ثلاث وستين وستمائة استقل بهذا الشأن ورشتر (235) الانكليزي ، إلا أن ما أنتجته فكرته لم يكن كافيا في حصول الانتفاع بتلك القوة • ثم في سنة تسعين وستمائة وألف [1690] فكر في شأنها المهنــدس دنيس بابين (236) الفرنساوي الى أن ركــب في سنــة خمــس وتسعين وستمائة وألف [1695] ، الآلة البخارية بالبستون (237) (وهو شيء يشبه مدق المكحلة) وهــو أول مــن ظهــر لــه

(231 Arago
(232 Hero d'Alexandrie
(233 Blasco de Garay
(234 Salomon de Cüze
(235 Worcester
(236 Denis Papin
(237) دخيلة : piston

[63] جعل القوة القابلة للبسط فى آلة / نارية ، حيث إن البخار ينبسط عند شدة الحرارة وينقبض عند البرودة • ثم اعتنى بذلك الماكينجى الانكليزى جامس وات المتقدم الذكر ، الذى ظهرت أعماله فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، بتوجيهه العناية الى هذه المأثرة ، وبحثه عن سائر أجزاء الآلة البخارية ، حتى ارتقى فى ذلك درجة تنيله منصب الاختراع لها • وقد كان دنيس بابين المذكور أشار الى إمكان السفر بها فى البحر وبين كيفية ذلك بغاية الايضاح •

وفى سنة ست وثلاثين وسبعمائة وألف [1736] ، أخذ جونتان هلس (238) الانكليزى السراح من الدولة فى استعمال الآلة المذكورة بسفينة ، لكن لم تتم له الموجبات فكانت جدوى فعله قليلة • وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف [1775] ، صنع الماكينجى بريا (239) الفرنساوى السفينة الأولى البخارية • وبعد ثلاث سنين اخترع جوفروى (240) الفرنساوى الآلة المذكورة وألقاها على وادى دوب (241) بفرنسا وفى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة والف [1781] القى على وادى صون (242) بفرنسا أيضا سفينة كبيرة من ذلك النوع وسارت • ثم استقل بالمأثرة المشار إليها جماعة فى انكلترة نجح سعيهم فيها وهم ميلر (243) فى سنة

---

238) Jonathan Hulls
239) Perier
240) Jouffroy
241) Doubs
242) Saône
243) Miller

إحدى وتسعين وسبعمائة وألف [1791] ، ثم لورد ستنهوب (244) في سنة خمس وتسعين وسبعمائة وألف[1795]، ثم سيمنغطن(245) سنة إحدى وثمانمائة وألف [1801] ، وفى السنة الثالثة من القرن التاسع عشر [1803] جرب الأميركانى فلطن (246) بباريس عمله بتلك الآلة ، فرأى مخائل النجاح ، وكان معه من أهل وطنه ليونسطن (247) فوضعا على وادى سون أول فابورتام بالعجلات ، وذلك في تاسع أغشت من السنة المذكورة ، لكن لم يتفق إنجاز المأثرة المذكورة بفرنسا ، لعدم اعتناء الدولة بها فى ذلك الوقت. فلما أيس فلطن من نجاح سعيه هناك حمل مخترعه الى وطنه أميركا وأشهره بها . ويقول أهل فرنسا إن من سوء البخت عدم انجذاب بال الدولة فى ذلك الوقت لهذه النتيجة / الباهرة . وفى السنة السادسة من القرن المذكور [1806] سافرت السفينةالبخارية المسماة كلرمونت (248) من نيويورك إلى فيلادلفيا فى الممالك المتحدة بأميركا . وفى سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف [1814] شرع المذكور فى اصطناع الفرقاطة (249) البخارية الأولى فمات قبل إتمامها . وفى حياته صنع بتلك المملكة عدة فابورات صغار منها المسمى فلطن ، الذى التقى بالسفينة الحاملة لنابوليون الأول الى جزيرة صانت الآن ، التى بقى فيها بعد سقوطه ، فلما رأى

Lord Stanhopet (244
Symmington (245
Fulton (246
Civingstone (247
Clermont (248
Frégate (249

الفابور المذكور وذنب دخانه شائل فى الجو ندم على إعراضه عن تلك المأثرة التى تم ظهورها فى غير بلاده • وجميع التحريرات البخارية مستنبطة من قواعد فلطن المذكور لأنه كان مهندسا حاذقا لبيبا • ثم انتشر هذا المخترع بسائر جهات أوربا على التعاقب شيئا فشيئا •

54 ـ آلـة الذنـب

وأما استعمال آلة الذنب المسماة آليس (250) بدلا من العجلات فأول من فكر فيها دوكى (251) الفرنساوى سنة سبع وعشرين وسبعمائـة وألف [1727] وبوكتون (252) سنـة ثمـان وستين وسبعمائة وألف [1768] • وفى سنة ثلاث وثمانمائة وألـف [1803] أخذ شارل دلرى (253) الرخصة فى عمل الآلة المذكورة إلا أن سعيه إذ ذاك لم ينجح لعدم وجود المبالغ اللازمة مـن المـال ، فاغتنم التفرغ لهذا العمل المهندس أريكصون (254) الشهير من أهل السويد فى الممالك المتحدة بأميركا من سنة سـت وثلاثـين وثمانمائة وألف [1836] الى سنة أربع وأربعين وثمانمائة وألف [1844] الى أن تم واستعمل فى سنة خمس وأربعين وثمانمائـة وألف [1845] وقد شاع العمل به الآن •

(250 Hélice
(251 Du Quet
(252 Paucton
(253 Charles Dallery
(254 Ericson

55 ـ الطيران ومكتشفات اخرى

وفى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف [1783] ارتفع فى الهواء بالبالون مونغولفى (255) الفرنساوى . والبالون قبة من الحرير مصنوعة بكيفية لا ينفذ بها من مسامها الغاز الذى هو ألطف من الهواء ، فتملأ القبة بتلك المادة ، فتصعد فى الجو لصيرورتها أخف من الهواء . وفى سنة أربع وتسعين وسبعمائة وألف [1794] اخترع ولتا (256) البيل (257) / الذى يستعمل للتذويب [65] وللتلغراف الكهربائى . وفى سنة إحدى وثمانمائة وألف [1801] اختراع جكار (258) الحائك آلة النسج التى تنسج بدون واسطة اليد ، وهذه الآلة أورثت تبدلا كبيرا فى أمر النسج ، وارتفع بها شأن فبريكات ليون بفرانسة ، التى تصنع الأقمشة الحريرية وغيرها . ولذلك رفع أهلها صورة المخترع المذكور ببطحاء المدينة إظهارا لممنونيتهم له .

وفى سنة ست عشرة وثمانمائة وألف [1816] ظهر بلندرة حادث اسراج الغاز ، كما ظهر بها فى السنة المذكورة الستينوغرافى (وهى كيفية تسهل استيعاب الكاتب جميع ما ينطق به اللسان السريع باصطلاح مخصوص ، والواضع لها رامزى (259) من أهل سكوتلاند . وفى سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف [1829] ظهرت أول كروسة تامة تجرى على

(255 Montgolfier
(256 Volta
(257) البيل : pile
(258 Jacquard
(259 Ramsey

طريق من الحديد وهى من مخترعات المهندس ستيونصن (260) الانكليزى • واخترع ويتصطون (261) الانكليزى أيضا الكيفية المستعملة فى التلغراف المذكور • واخترع نيبس (262) وداغير (263) الفوتغرافى أى ارتسام الصورة بواسطة المرآة وبقاءها ، ولهذه الصناعة فوائد جمة فى الطبيعيات والفلك •

56 ـ التعليم بفرنسا

ولما كان تقدم أهل أوربا فى ميدان التمدن الذى من نتائجه الاختراعات المشار إليها ، إنما كان بتمهيد طرق العلوم والفنون. وتسهيل أسباب استحصالها ، وكان للمملكة الفرنساوية مزيد شهرة بحسن التنظيم فى أطوار التعلم والتعليم ، رأينا أن نبين تراتيبها الناجحة ليقاس عليها بقية الممالك لاقتداء بعضهم ببعض فى مثل ذلك •

فنقول : اعلم أن طبقات المتعلمين عندهم ثلاث ، لأن المتعلم إما مبتدى أو متوسط أو منته • وانقسام الفنون على هذه الطبقات باعتبار سهولة الفن وصعوبته •

57 ـ الابتدائى

فالفنون الاولية مثل علم الأخلاق ، وأصول الديانة ، والقراءة والكتابة ، والمفردات اللغوية ، وأصول الحساب ، والوزن والكيل

260) Stevenson
261) Wheatstond
262) Niepce
263) Daguerre

[66] وأصول التاريخ والجغرافيا ، ومبادى سر / الطبيعة؛ والاستدلال بالموجودات الأرضية ، ومبادى الفلاحة والصناعات ، وقانون حفظ الصحة ، وأصول المساحة ورسم الأرض والتصوير الخطي، والألحان ، وكيفية تقوية الأعصاب بالحركات الرياضية ، فهذه الفنون الأولية تدرس فى المكاتب العمومية المقامة من الدولة ، أو الايالة ، أو البلدة ، أو القرية • وفى المكاتب المطلقة (264) ومحال المرحمة (265) المقامة من خصوص أشخاص من الناس وجمعيات من المحسنين •

58 ــ الثانوى

وأما فنون الطبقة المتوسطة التى ينتقل إليها بعد تحصيل ما يجب تحصيله من المعارف الأولية ، فهى علم اللغات القديمة والحادثة ، وعلم البيان والمنطق ، والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ • وجميع هذه العلوم تدرس في مكاتب للدولة ، ومكاتب لأهل البلدان ، وأماكن خصوصية ، ومحال صغيرة لتعليم الرهبان •

59 ــ العالى

وأما الطبقة المنتهية فمنهم من يتعلم بالمكاتب العالية ، ومنهم من يحضر مجامع مدرسى العلوم والانشاء ، الذين يجيزون الطلبة بعد امتحانهم بحضرتهم •

---

(264) المكاتب المطلقة : الحرة •

(265) المرحمة : الاحسان ، تعريب لـ : Charité

والمجامع (266) المشار إليها مشتغلة بدراسة العلـم الالـهى ، وأحكام النوازل ، وصناعة الانشاء ونحو ذلك •

وتتنوع الى خمسة أصناف :

أحدها يحتوى على ثمانية مجامع وظيفتها تعليم العلم الالهى ، ستة منها على مقتضى العقيدة الكاثوليكية ، واثنان عـلى مقتضى العقيدة البروتستانية • ومن شعب هذا العلـم عندهـم فروض الديانة ، وعلم الأخلاق ، ونظام الكنيسة ، والكتاب الموصـوف عندهم بالمقدس ، واللسان العبرانى •

والصنف الثانى يحتوى على تسعة مجامع وظيفتها تدريس علم النوازل المنقسم عندهم الى القواعد العمومية ، وأحكام الرومان ، والقانون المدنى ، وأحكام الجنايات ، وأعمال المجالس ، وقياس العقوبات بأحكام البلدان ، والقانون المتجرى ، وأحكام الادارة العمومية ، وأحكام ما يقع بين الأمم ، والاحكام الفرنساوية •

[67] والصنف الثالث يحتـوى عـلى ثلاثة مجامـع / وظيفتهـا دراسة علم الطب المتناول للتشريح ، وتركيب الحيوان ، وتاريخ الطبيعة المتعلق بالطب ، وقانون الصحة ، ومعرفـة الأمـراض الظاهرية والباطنية ، وكيفية المعالجة ، ومواد الأدوية ، وعـلاج الجراحات ، وأحوال الولادة • وهناك مكاتب كبار لتعليم كيفية تركيب الأدوية ومكاتب أخرى للاستعداد لتعاطى فن الطب •

(266) مجامع : معاهد ، تعريب لـ : Collège

والصنف الرابع يحتوى على مجامع وظيفتها دراسة علـــوم مختلفة كعلم الهيئة والفلك ، وعلم الجبر والمساحة ، وعلم المكنيك أى التصرف بالآلات كجر الاثقال ، وعلم استعمال الآثار الطبيعية كالتصوير بالمرآة ، وعلم الكيمياء ، وعلم طبيعة الأرض ، والنبات وتركيبه ، وعلم طبائع الحيوانات ٠

والصنف الخامس يحتوى على مجامع وظيفتها تعليم الانشـــاء وسائر العلوم الأدبية ، وعلم الفلسفة وتاريخها ، وآداب اليونان والشعر اللاتينى والفرنساوى ، وآداب الأجانـب ، والنحـو ، والتاريخ قديمه وحديثه ، والجغرافيا ٠

وهناك مكاتب للاستعداد للفنون المذكورة ويقرأ فيها تاريـخ فرنسا كالجغرافيا الطبيعية والسياسية ، وعلم الرسم ٠

ومن عوائدهم أن يختموا كتبهم فى المكتب العالى المشتهر بمكتب فرنسا (267) ٠ وهناك مكتب لتعليم الألسنة المشرقية ٠ ومحل مخصوص بتعليم أخذ الأطوال ٠ ومحل الرصد السلطانى بباريس ، والمحل المعد لوضع الحيوانات المصبرة على اختلاف أنواعهـا ، وأنـواع الأحجار ٠ والمكتب السلطانى المعد للخريطات الجغرافية ٠ ومكتب البوزار أى الصناعات المستظرفة ٠ ومكاتب أعمال اليد ٠ ومكتب التصوير السلطانى ٠ ومحل تعلم قواعد الموسيقى ٠ ومكتب تعليم مخاطبات التياطرات ٠ وجميع المكاتب المشار إليها تحت رعاية وزير المعارف . وما عداها من المكاتب الخصوصية فانها وإن كانت

خارجة عن دائرة الادارة العمومية إلا أنها لا تخرج عن دائرة المراقبة ، حيث يجب تفقدها فيما يتعلق بتهذيب / الاخلاق ، [68] وحفظ الصحة . وموافقة التعليم لمقتضى قوانين البلد .

60 ـ الاكدميات

ثم إن هناك خمس جمعيات (268) من كبار علمائهم ، يسمى كل منها بالأكدمية ، وتسمى الجمعية الأولى آكدمية فرنسا ، والثانية أكدمية الخطوط القديمة (269) والثالثة آكدمية العلوم، والرابعة أكدمية البوزار ، والخامسة آكدمية السياسة وتهذيب الأخلاق .

فوظيفة الجمعية الأولى الاعتناء بتصفية اللغة وتحرير أوضاعها .

ووظيفة الثانية تحرير الأقلام القديمة ، واستخلاص الألسنة العلمية ، والنظر فى الهياكل القديمة والتواريخ .

ووظيفة الثالثة نشر رسائل فى سائر أنواع العلوم . وهذه الجمعية بمثابة مجلس لتحرير سائر العلوم .

ووظيفة الرابعة النظر فى أحوال الأبنية والأدهان والنقش والتصوير والموسيقى ، وهذه الجمعية هى التى تعين من يستحق الدخول فى مكتب البوزار .

ووظيفة الخامسة النظر فى أحوال علوم الفلسفة والأحكام ،

---

(268) خمس جمعيات : المعروفة باسم جامع وهو : Institut de France

(269) الخطوط القديمة : النقائش . تعريب لـ : Inscriptions

والحقوق العامة ، والاكونومى بوليتيك أى الاقتصاد السياسى ، والاستاتستيك ، وتاريخ الفلسفة العمومى ، والادارة السياسية والماليـــة ٠

ولكل من هذه الجمعيات تعيين جوائز المؤلفين من مقدار مال ، أو نيشان من الصنف المعروف عندهم بالمداليا ٠ والجوائز تـارة تكون من الدولة وأخرى من بعض أعيان البلـد ، ترغيبـا فى الاختراع ٠

وهناك مكاتب أخرى لتعليم سائر العلوم والفنون الحربية ٠ البرية والبحرية وجمعيات أخرى وظيفتها الاعانـة فى أسبـاب التقدم فى المعارف ، والفلاحة ، وسائر الصنائع ، منها جمعيـة الطب ، وإدارة الموزيات (270) السلطانية ، وجمعية الترغيب فى الصناعات الأهلية ، والجمعية السلطانية المركزيـة فى الخـضر والنباتات ، المتكفلة بجلب غير الموجود منها من سائر الأقطار ، وتدبيره بما يكون سببا فى بقائه عندهم ،حتى صار بهذه الواسطة يوجد عندهم غالب ما يوجد فى سائر المعمـور ٠ وجمعيـة فى الجغرافيا ، وأخرى فى بنية الكرة الأرضيـة ، / وأخـرى فى [69] حوادث الجو ، والآثار القديمة ، وأحوال الأمم ٠ وأخـرى فى خصوص أحوال آسيا ، وأخرى فى الاقتصاد السياسى ، وأخرى فى مبادى العلوم ، وأخرى فى الجراحات ، وأخرى فى تركيب الانسان ، وأخرى فى تواريخ فرنسا ٠

---

(270) الموزيات : تعريب اللفظ الفرنسى : المتحف

كما أن بايالات فرنسا كثيرا من هذه الجمعيات ·

ويوجد كثير من المدارس لتعليم كيفيات التصوير ، وأعمال اليد · وهناك مكاتب تتعلق بالمعادن ، ومكتب كبير لأصول التجارة ، وأماكن خصوصية لذلك تحت رعاية الدولة · وثلاثة مكاتب سلطانية لتعليم البيطرة ، ومثلها لتعليم فنون الفلاحة ، واثنان وخمسون جريبا (271) لامتحان قواعد الفلاحة · والعارفون بقواعد الفلاحة متوزعون في بلدان المملكة · ومن مكاتب الفلاحة ما هو دائم التعليم ، ومنها ما لا يفتح إلا في أوقات مخصوصة ·

ومن تاقت نفسه الى تفاصيل العلوم والفنون المشار إليها فعليه بمطالعة الفصل الثالث عشر من المقالة الثالثة من رحلة العالم البارع الشيخ رفاعة (272) أحد علماء مصر المسماة **بتخليص الابريز الى تلخيص باريز** · فقد كشف فيها الغطاء عن تدبير الامة الفرنساوية التي رفعت راية التمدن، وأجاد في ذلك وأفاد·

---

(271) جريب : ج اجربة وجربان : حقل مزروع ، مساحة من الارض مزروعة ·

(272) رفاعة بدوي رافع الطهطاوي : (1801 ـ 1873) احد زعماء حركة النهضة العلمية بمصر في القرن التاسع عشر ، بعد انتهاء تعلمه بالازهر ، سافر في بعثة علمية موفودة من قبل محمد علي الى فرانسا واقام بها 4 سنوات (1826 ـ 1831) وسجل مشاهداته في كتاب لقي رواجا عظيما في عصره **تخليص الابريز الى تلخيص باريز** ·
انظر ابن ابي الضياف : **اتحاف** ، ا ، (متفرقات) وخاصة ص· 45 ·

61 ـ تقرير وزير المعارف الايطالى :

كثـرة المكتبـات

ومن آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان ، الـذى هـو أساس التمدن والتهذيب لنوع الانسان ، كثرة خزائن الكتب الجامعـة لسائر الفنون ، وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الادارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق ، كما يتضح ذلك بالتفصيل الآتى :

ولنقتصر فى بيان كثرة الكتب بالبلدان الأورباوية المعتبـرة على ما حرره نتالى (273) وزير المعارف العمومية بايطاليا ، بعـد تمام بحثه عن ذلك سنة سبع وستين وثمانمائة وألف [1867] فذكر أن الموجود بخزائن إيطاليا من الكتب المجلدة أربعة ملايين، ومائة وأربعون ألفا، ومائتان، وواحد وثمانون (4٠140٠281) مجلدا ، غالبها من الكتب القديمة المتعلقة بالديانة ٠ وبخزائن بريطانية العظمى مليون ، وسبعمائة ، وواحد وسبعون / ألفا ، وأربعمائة [70] وثلاثةوتسعون (1٠771٠493) مجلدا، فيكونلكلمائة (100) نفس من الأهالى ستة مجلدات ، وعلى قياس هذه النسبة يكون لكل مائة (100) نفس من أهالى إيطاليا أحد عشرمجلدا وسبعةأعشارالمجلد ٠ ويوجد ببلاد النمسة مليونان ، وأربعمائة ، وثمانية وثمانون (2٠000٠488) مجلدا ، وبالنسبة للأهالى يكون لكل مائة نفـس ستة مجلدات وتسعة أعشار المجلد ٠ ويوجد بالبروسية مليونان، وأربعون ألفا ، وأربعمائة ، وخمسون مجلدا (2٠400٠450) ، فيكون لكل مائة نفس من أهاليها أحد عشر مجلدا ٠ وفى الروسية ثمانمائة ألف ، واثنان وخمسون ألف (852٠000) مجلد ، فيكون لكل مائة من أهاليها مجلد واحد وثلاثة أعشـار المجلـد ٠ وفى

(273 Natoli

البلجيك خمسمائة ألف ، وتسعة آلاف ، ومائة (509٠100) مجلد، فيكون لكل مائة من الأهالى عشرة مجلدات وأربعة أعشار المجلد٠ وفى باواريا مليون ، ومائتان وثمانية وستون ألفا ، وخمسمائة (1٠268٠500) مجلد ، فيكون لكل مائة من أهاليها ستة وعشرون مجلدا وخمسا المجلد كما يوجد أربعة ملايين وثمانمائة وتسعون ألف (4٠890٠000) مجلد ، فيكون لكل مائة من أهاليها أحد عشر مجلدا وسبعة أعشار المجلد ٠ (فهى مثل ايطاليا ، قال) ٠

وبهذه النسب يظهر أن مملكة باواريا أكثر كتبا من غيرها بالنسبة الى عدد الأهالى ، وإن كان الموجود بفرنسا لا يوجد بغيرها من الممالك ٠

وفى مدينة باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة فرنسا كلها ، ففى **قاموس العلوم** المؤلف فى هذه السنين الأخيرة أن الخزانة السلطانية بباريس بها من الكتب على ما تحرر فى سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف (1863) ، مليون كتاب مطبوع وثمانون ألفا (80٠000) بخط اليد ٠ وغاية ما كان بها وقت تأسيسها فى سنة ثمانين وثلاثمائة وألف (1380)، تسعمائةوعشرة (910) مجلدات، وصار بها فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة وألف (1547) ، ألف وثمانمائة وتسعون (1890) مجلدا ٠ ثم فى سنة أربعين وستمائة وألف (1640) صار مقدار ما بها ستة عشر ألفا ، وسبعمائة ، وستة أربعين (16٠746)/مجلدا ٠ وفى سنة أربع [71] وثمانين وستمائة وألف (1684) صار قدر ما بها خمسين ألفا ، وخمسمائة، واثنين وأربعين (50٠542) مجلدا ٠ وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (1775) صار بها مائة وخمسون ألف

(150·000) مجلدا · وفى سنة تسعين وسبعمائـــة وألف (1790) صار بها مائتـــا ألف (200·000) مجلد · واليـــوم بهـــا مليـــون (1·000·000) مـــن الكتـــب المطبوعة ، وثمانـــون ألفـــــا (80·000) بخط اليد كما تقـــدم · كمـــا بها أربعـــون ألـــف (40·000) خريطة فى فن الجغرافيا ، وعدد كثير من الرسائـــل ونحوها مما لا يطلق عليه اسم المجلد » (274) ·

وبهذا التفاوت الكبير الواقع فى مواد المعارف يعلـــم مقدار تأثير الحرية فى الممالك ، فانا نرى الخزانة المذكـــورة فى مـــدة أربعمائة وعشرة أعوام ، من مبتدا تأسيسها الذى هو سنة ثمانين وثلاثمائة وألف (1380) إلى سنة تسعين وسبعمائة وألف (1790) لم يتحصل بها إلا مائتا ألف (200·000) مجلد · ومن ذلك التاريخ الذى هو مبدأ الحرية بفرنسا الى سنة ثلاث وستيـــن وثمانمائـــة وألف (1863) التى هى تمام أربع وسبعين سنة من ذلك الوقـــت ازداد فى الخزانة المذكورة ثمانمائة وثمانون ألف (880·000) مجلد ، دون ما لم يمكن حصره من الرسائل المشار إليها ·

وعلى هذا يقاس سائر أسباب التمدن ·

ويوجد بباريس ثلاثون (30) خزانة سوى الخزانة المذكـــورة متفاوتة فى الكبر ، كما توجد خزائـــن معتبرة فى سائر تخوت الممالـــك ·

---

(274) انتهى تقرير الوزير الايطالى نتالى Natali ·

62 ـ حسن ادارة المكتبات

وأما بيان حسن إدارتها المسبب لغاية سهولة الانتفاع بها ، فهو أن أماكن الخزائن المشار إليها تفتح كل يوم قدر خمس أوست ساعات ، ومنها ما يفتح بالليل أيضا قدر ثلاث ساعات • وذلك فيما عدا يوم الأحد وأيام الأعياد التى لا تتجاوز مدتها شهرا فى السنة ، وأيام التسريح للاستراحة • وإنما تفتح فى سائر الأيام للطلبة الراغبين في الاستفادة ، وأما الذين يأتون بقصد مجرد الاطلاع فلا يسوغ لهم ذلك الا فى يومين من الأسبوع • وللخزائن المشار إليها نظار وخدمة بقدر الكفاية ، وحولها بيوت للتعلم تسخن فى الشتاء •

[72] وهى / محتوية على آلات الكتابة عدا الكاغد فيأتى به مريد الاستنساخ • ويطلب من المكلف الكتاب الذى يريده ببطاقة يدفعها إليه ، وإذا احتاج الى أكثر من كتاب يبين السبب فيها ، فيدفعها المكلف للخدمة فيحضر له فى الحين ما طلب • وحين خروجه من ذلك المحل يسلم للمكلف ما أخذه من الكتب • وهذه المنحة مبذولة لكل راغب سواء كان من الأهالى أو الأجانب • أما من كان من المؤلفين المشهورين فيسوغ له نقل الكتب للانتفاع بها فى مهلة أقصاها عام إذا طلب ذلك بالكتابة ، وبين السبب الداعى لأخذ الكتاب • وعند مضى المدة إما أن يرجع ما أخذ ، أو يطلب تجديد التسويغ مدة أخرى •

63 ــ تهذيب ابناء العائلة المالكــة

ومما يناسب سوقه هنا اعتناؤهم بأسباب تهذيب أبناء العائلة الملكية ، وتوسيع دائرة معارفهم ، ولاشك أن ذلك من الأصول المعتبرة النافعة فى إدارة المملكة غاية النفع •

فنقول من عادتهم أن من يبلغ من أبناء العائلة سن التربيــة ينتخب له رئيس تلك العائلة معلمين مهرة ، يعلمونه من فنــون العلم ما يناسب حاله والمراد منه من كل ما يهذب أخلاقه ، ويوسع فى المعارف نطاقــه •

فاذا بلغ من التعلم أشده يوجه الى الممالــك الأجنبيــة لمشاهــدة أحوالها ، ومطالعة سياستها وأحكامها ، وما لهــا مــن التقــدم فى العمران وغيره ، ليتحقق بالمشاهدة ما بينها وبين بلادهمن التفاوت ليعتبر أسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة ، فيتجنــب مــا تأخرت به بلاده ، إن رأى غيرها خيرا منها ، ويعتنى بما تقدمت به إن رآه دونها •

فاذا بلغ من العمر نحو ثمانى عشرة (18) سنة يصير من أعضاء المجلس الأعلى (275) ، يحضره ولا يكون له كلام فيه إلا إذا بلغمن العمر خمسا وعشرين (25) سنة • وفائدة ذلك التدرب على الأمور السياسية ومثافنتها حتى يستكمل الملكة فيها ، مع ما يحصل لــه بذلك من الخبرة بطبقات رجال السياسة ، المتأكد / معرفتها عــلى [73]

---

(275) المجلس الاعلى : السيناتو وهو مجلس الشيوخ •

من يترشح للرئاسة ، التى هى أعظم الخطط البشرية وأصعبها ، فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات الأحـوال المختلفة ما لا يجب على غيره ، لا سيما معرفة أهل الخبرة والمروءة والنجدة من رجال المملكة لينتخبهم للخطط المعتبرة ، مع التفطن لدسائس الحساد والمفسدين ، فان المطلوب من الملوك ليس هـو مجرد فصل النوازل الشخصية ، كما هو مشاهد فى بعض الممالك الاسلامية ، ولا مباشرة جزئيات الادارة التى يمكن إجراؤهـا بغيرهم من المتوظفين وإنما المطلوب منهم النظر فى كليات الأمور من معرفة الرجال اللائقين بالخطط ، وامتحانهم وتعقبهم بالمراقبة لارشاد جاهلهم وزجر متجاهلهم ، وتفقد أحوال الرعايا، والاعانة على تكثير الصنائع ، والعلوم الموصلة الى تهذيب الأخلاق ونمـو الأرزاق ، والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية ، وتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة لحفظ الدين والوطن، وإصلاح أحوال الخلطة السياسية والمتجرية مع الدول الاجنبية ، بما ينمو به عز المملكة وثروتها الى غير ذلك من الكليات ٠

فان سعادة الممالك وشقاوتها فى أمورها الدنيوية إنما تكـون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك وبقدر ما لهـا مـن التنظيمـات السياسية المؤسسة على العدل ، ومعرفتها واحترامها من رجالهـا المباشرين لهـا ٠

نقل عن المؤرخ بوليبيوس (276) اليونانى الذى تكلم على سياسة

(276) Polybe, Polybius .

الأمة الرومانية ، وما وقع بينها وبين أهل قرطاجنة من الحروب ، أنه قال ــ في معرض الاستدلال على أن المباشر للأمر يلزمـــه أن يكون عارفا بأصوله ــ ما معناه : « إذا كان المريض لا يرتجى له حصول العافية على يد طبيب يجهل نوع المرض والدواء المناسب له ، فكذلك المملكة لا يرجى خيرها واستقامتها إذا كان وزراؤها المباشرون يجهلون أصول سياستها، وقوانين شرائعها وعاداتها »٠

64 ــ معنى الحرية في أوربا

ولا يخفى أن حصول خير المملكة إذا كــان يمتنــع بسبــب / الجهل بأصول السياسة فامتناعه إذا انضم لذلك عدموجود تلك الأصول بالكلية أحرى وأولى ، لأن السبب في الحالة الأولى دائر بين الجهل والتجاهل ، وكلاهما أمر عارض تمكن إزالته بتبديل المباشريــن ، أو إرشــاد جاهلهــم وإلــزام متجاهلهـــــم بالجريان على الأصول المحفوظة ٠ أما إذا لم يوجد من تلك الأصول شيء يرجع إليه ، وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه، فان هاته الحالة يتسع فيها مجال الأغراض والشهوات من الآمــر والمأمور ، وربما يؤول أمر الدولة الى الاضمحــلال والدثــور ، (ولله عاقبة الأمور) (277) ٠ [74]

هذا ولما تضمن ما أوردناه في هذا المجال الاشارة الى أن الحرية هي منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأورباوية ، رأينا من المتأكد بيان معنى الحرية عرفا لدفع ما عسى أن يقـــع مـــن الالتباس فيهـــا ٠

---

(277) القرآن الكريم سورة الحج ، الآية : 41 ٠

65 ـ الحريــة الشخصية

فنقول : إن لفظ الحرية يطلق فى عرفهم بازاء معنيين ٠

أحدهما يسمى الحرية الشخصية ، وهو إطلاق تصرف الانسان فى ذاته وكسبه ، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ، ومساواتــه لأبناء جنسه لدى الحكم ، بحيث إن الانسان لا يخشى هضيمة فى ذاته ولا فى سائر حقوقه ، ولا يحكم عليه بشىء لا تقتضيه قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس ٠ وبالجملة فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية ٠ والحرية بهذا المعنى موجــودة فى جميــع الدول الأورباوية إلا فى الدولة البابوية والدولة المسكوبية(278) لأنهما مستبدتان ، وهما وإن كانتا ذواتى أحكام مقررة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة لأن نفوذها موقوف على إرادة الملك ٠

66 ـ الحريــة السياسيــة

المعنى الثانى الحرية السياسية ، وهى تطلب الرعايا التداخل فى السياسات الملكية ، والمباحثة فيما هو الأصلح للمملكة عــلى نحو ما أشير إليه بقول الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : « من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومــه » ، يعــنى انحرافا فى سياسته للأمة وسيرته معها ٠

ولما كان إعطاء الحرية بهذا المعــنى / لسائر الأهــالى مظنــة

(278) المسكوبية : نسبة الى موسكو : moscovite .

لتشتيت الآراء وحصول الهرج ، عدل عنه الى كون الأهالى ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الأورباويين بمجلس نواب العامة ، وعندنا بأهل الحل والعقد ، وإن لم يكونوا منتخبين من الأهالى .

وذلك أن تغيير المنكر فى شريعتنا من فروض الكفاية ، وفرض الكفاية إذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقين . وإذا تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص .

ومجلس النواب المشار إليهم موجود فى سائر الممالك الأورباوية ماعدا المملكتين المتقدم ذكرهما ، وله أن يتكلم بمحضر الوزراء وغيرهم من رجال الدولة بما يظهر له فى سيرة الدولة من استحسان وضده ، وغير ذلك من المصالح العمومية كما يأتى .

67 ــ حرية المطبعة

وبقى وراء ذلك للعامة شىء آخر يسمى حرية المطبعة ، وهو أن لا يمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح فى الكتب ، والجرنالات التى تطلع عليها العامة ، أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها .

وفى هذا المقدار افترقت الممالك الاورباوية .

فمنهم من ناله مع الأول فتمت له الحرية المطلقة ، ومنهم من ناله بشروط معتبرة عند الملوك التى لم ترخص لرعاياها ما تيسر لغيرها إعطاؤه من الحقوق ، وذلك أن أحوال الممالك متفاوتة

بتفاوت مقاصد رعاياها ، فمنهم من لا ينازع الملوك إلا لقصد الحصول على ما يسوغ لهم معارضة الدولة إن حادت عن سواء السبيل ، واستجلابها لما فيه صلاح المملكة ، وحينئذ تيسر للملوك إعطاء تمام الحرية لتوارد مقصد الراعى والرعية على المصلحة ٠

ومنهم من يظن به أن الباعث له على المناضلة فرط التعصب والحمية ، حيث تفترق الرعايا أحزابا ، كل حزب يروم السياسة التى يراها أصلح للمملكة فى نظره ، كأن يرى البعض أن تكون الدولة جمهورية ، والبعض يختار أن يكون الملك فى عائلة غير [76] / التى يختارها الآخر ، فينشأ عن ذلك ظن الدولة أن معارضة الأحزاب لها وإن كانت بحسب الظاهر لالجائها الى طرق المصلحة ، لكن الغرض منها وراء ذلك ٠ وبذلك الظن الناشىء عما ذكر استباح الملوك الامتناع من إعطاء تمام الحرية الموصل لما أشير إليه ٠

هذا وإن من واجبات الممالك التى تنال الحرية ولو خصوص الشخصية أن يقابلوا تلك النعمة باظهار آثارها ، واستجناء ثمارها بتعاطى المعارف ، وأنواع الصناعات الراجعة الى الأصول الأربعة : الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية ٠

وبهذه الأصول قوام السعادة الدنيوية المربية للهمة الانسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن نظام الجماعة ، حتى يكون المحترف مثلا آمنا من اغتصاب شيء من نتائج حرفته ، أو تعطيله فى بعض أحوال خدمته ، فما ينفع الناس كون أرضهم

خصبة كريمة المنابت ، إذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع ومن الذى يقدم حينئذ على ازدراعها ٠

ولضعف آمل الناس فى كثير من أراضى آسيا وإفريقية تجد أخصب مزارعها بورا معطلة ، ولاشك ان العدوان على الاموال يقطع الآمال ، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال الى أن يعم الاختلال المفضى الى الاضمحلال ٠

68 ــ ما اجتناه الاروباويون من دوحة الحرية

ومن أهم ما اجتناه الأورباويون من دوحة الحرية تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية ، وتعاضد الجمعيات المتجرية ، والاقبال على تعلم الحرف والصنائع ٠

فبالطرق تستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات إبان الانتفاع بها ، بعد أن كان جلبها متعذرا لطروء الفساد عليها فى الطريق ، أو لزيادة كرائها على أضعاف قيمتها ٠

وبالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتى الأرباح على قدرها ، وتتداول على المال الأيدى المحسنة لتنميته ٠

وبتعلم الحرف تكتسب الأموال الذريعة عن غير رأس مال ٠

[77] وقد / رأينا بالمشاهدة أن البلدان التى ارتقت الى أعلى درجات العمران ، هى التى تأسست بها عروق الحرية و **الكونستيتوسيون** المرادف للتنظيمات السياسية ، فاجتنى أهلها ثمارها بصرف الهمم الى مصالح دنياهم المشار الى بعضها ٠

ومن ثمرات الحرية تمام القدرة على الادارة المتجرية ، فان الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى إخفائها، فيتعذر عليهم تحريكها ٠

وبالجملة فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ، ويستولى على أهلها الفقر والغلاء ، ويضعف إدراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة ٠

69 ــ الشركات الاقتصادية

وما أشرنا إليه من أن الشركات الجمعية من أسباب نمو النتائج المتجرية معقول مجرب ، فان قوة الاجتماع معهودة فى سائر الأمور العادية وغيرها ٠ وكلما تمكن حب الاشتراك من قلوب أهل المملكة يشاهد نمو المكاسب فيها بالعيان ٠

ولذلك كثرت الجمعيات بأوربا فى سائر المعاملات المدنية والمتجرية وغيرها ، وتكاثرت الخدمات برا وبحرا ، وكثرت مجامع العلوم وجمعيات المحسنين للضعفاء والمساكين ، وتكرر التعاون على استخراج المعادن واصطناع الخلج (279) ومجارى المياه التى تصعد بها السفن الى الجبال ثم تنزل ، وطرق الحديد الى غير ذلك من المهمات التى لم تكن تحدث لولا وجود تلك الجمعيات ٠

فمن الذى كان يقدر وحده على اصطناع طريق حديد ، أو يخاطر بجميع ماله ــ على فرض قدرته ــ فى إحداث ما لم يتيسر

(279) الخلج : ج٠ خليج ٠

لهم إلا باشتراك مائتى أو ثلاثمائـــة ألــف (300٠000) نفس ، بخلاف مخاطرة الواحد منهم بنزريسير من ماله ، فانهــا غيـــر مجحفة ولا مستبعدة ٠

ثم إن الجمعية إذا كانت كبيرة وكان فيها فائدة عمومية فــان الدولة قد تضمن لها ربحا معلوما فى المائة ٠

وإدارة الجمعية تكون بيد أناس ينتخبون من أرباب الحصص (280) [78] لهم مزيد شهرة ومعرفة باجراء قانون الشركة / وحفظ فوائدها وعند تمام السنة يقدمون حساب ذلك مع سائر متعلقات الادارة ، ويعينون الفوائد لأرباب الحصص المشار إليهم ٠

ومن أعظم مآثر المشاركة شق خليج السويس ، وطريق الحديد الجامع بين طرفى البحر المحيط بأميركا ، وثقب جبل آلب (281) الكائن بين إيطاليا وفرنسا ، وقطع جبل البرينى (282) بيـــن فرنسا وإسبانيا لمرور طريق الحديد بهما ، وإحداث السرداب تحت وادى تامس (383) بلندرة وعقد الجمعية المسماة بمسجرى أمبريال التى لها من السفن الجليلة ما هو مشاهد فى سائر البحور ووضع سلك التلغراف تحت البحر المحيط من انكلترا الى أميركا، ونحو ذلك من الاعانات التى وجدها فى المشاركة رجال الدول وأرباب الاختراع وحذاق المحترفين ٠

ومعلوم أن قوة المجموع أشد بكثير من قوى الجميع ٠ والناس

---

(280) الحصص ج٠ حصة وهى الاسهم ٠

(281) Les Alpes .

(282) les Pyrénées

(283) Tamise .

إذا تعاضدوا على شيء توصلوا الى المقصود منه ولو كان من أصعب الأمـــور ٠

وكفى حجة لذلك الحادثان الهائلان وهما **بنك فرنسا** المشهور **ومستعمرات الانكليز** بالهند ، فان دولة انكلترة تملكت بجمعية من تجارها تسمى **كومبانية الهند** مسافة ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف (3٠500٠000) ميتر مربعا ، بها من السكان مائة وخمسة وثمانون مليون (185٠000٠000) نفس ٠

70 ـ تاريخ بنك فرنسا

وأما بنك فرنسا ، فانه كان في سنة ثمانمائة وألــف (1800) رأس ماله ثلاثون مليون (30٠000٠000) فرنك متجمعة من ثلاثين ألف (30٠000)سهم ، وفي سنـة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف (1848) بلغ ما به من النقود واحدا وتسعين مليون(91٠000٠000) فرنك ، وبلغت كواغده المالية الرائجة بين الناس وفي المعاملـة رواج المسكوك مقدار اثنين وخمسين وأربعمائـة مليـــون (452٠000٠000) فرنك ٠ في أواخر سنة تسع وأربعين وثمانمائة وألف (1849)، رخص من الدولة للبنك المذكور أن يزيد في كواغده الرائجة إلى أن تبلغ مقدار خمسة وعشرين وخمسمائـة مليون (525٠000٠000) فرنك ٠ وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة وألف (1857) طلب البنك من الدولة تجديد المدة الى تمام أربعين سنة مستقبلة فأذنت / له بشرط تضعيف ما به من النقود ، حتى يصير [79] تقريبا مائتي مليون (200٠000٠000) فرنك ، فضاعف ذلـــك وتممت له الدولة مطلوبه ٠

ثم إن من تصرفات البنك عندهم صرف كواغد الحوالات التي

تكون مصححة بخط ثلاثة أشخاص يعرف مجموعهم بالملا الـذى يناسب المعاملة بذلك المبلغ الذى تضمنته ، وقبض ما كلف البنك بقبضه من الحوالات لأربابها بأجر معلوم ، إلا اذا كانت فى البلد الذى هو به فانه يفعل ذلك بلا عوض ، وقبول ودائع الناس لمجرد حفظها ، ومراسلة من يضع فيه مالا وتتميم المحاسبـة معـه ، وإقراض المال لمن يريده إذا دفع رهنا ثقة غيرالربعوالعقار (284) من كل ما يصير عينا (285) بسهولة،كسهام طرق الحديد،والكواغد التى تباع من اقتراض الدول ، والسبائك ونحوها • وإعطـاء كواغد الحوالات على نوابه ، كما يحيل عليه النواب أيضا •

وله خمسة وخمسون (55) نائبا فى بلدان متفرقة وإذا أردت أن تعرف كيفية تدرجه الى هذه الحالة الراهنة ، وكيف اتسعت دائرة المعاملات بأوربا فى هذه المدة الأخيرة منذ ثلاثين سنـة ، فاعلم أن البنك المذكور لم يكن به من الكواغد فى سنة ثلاثيـن وثمانمائة وألف (1830) إلا مقدار ثلاثمائة وخمسيـن مليـون (350•000•000) فرنك ، واليوم به من النقود ما تقدم آنفا،وهو ما يقرب من مائتى مليون (200•000•000) فرنك ، ومن الكواغد الرائجة مع ما فى الصندوق من الحوالات وغيرها مقدار ألـف وستمائة مليون (1•600•000•000) فرنك • هذا مع أن البنك كان فى الزمن السابق مستقلا بمعاملة الناس ، وأما الآن فقد زاحمه كثير من الجمعيات ، كجمعية معاملة الصناع والتجار ، والكريدى (286) المعينة لمعاملة أرباب الأراضى ، والكريدى المعينة لمعاملة

---

(284) الربع والعقار : المنزل والممتلكات غير المتنقلة •

(285) عينا : مالا مسكوكا صالحا للصرف •

(286) Crédit

أرباب المنقولات ، والجمعية العامة ، وصندوق الودائع ، ونحوها من الجمعيـات ٠

وبالجملة فاذا قال القائل إن الملايين التي كانت الناس تتعامل بها سابقا صارت اليوم آلوف ملايين فلا يكون قوله بعيدا عـن الصـدق ٠

71 ــ المعـارض التجارية (287)

[80] / ومن أسباب تقدمهم العناية بمن اخترع شيئا لم يسبق إليه ، أو أجاد في عمل مفيد ، فمن ذلك أن بتخوت الممالك المشار إليها مواضع معتبرة ، تعرض فيها نتائج المملكة من نباتات وحيوانات ومصنوعات مستغربة ونحوها ، بعد كل خمسة أعوام أو أقل أو أكثر بحسب مقتضى حال المملكـة ٠

وينعقد لذلك مجمع مركب من العارفين بحقائق الأشياء ليتأملوا فيها ، فان وجدوا شيئا منها مستبدعا أعطى مخترعه قطعة مـن نحاس أو فضة أو ذهب تسمى **المداليا** ، على شكل المسكوك مرسوما في أحد وجهيها صورة الملك وفي الآخر مكان العرض وتاريخه ٠ وقد يستحق متقن صناعته **نشان الافتخار** ٠ فان قيل : « مـا فائدة هاته القطع التي أعلاها قطعة ذهب ، وهي لاتفي ببـذل الجهد والمكابدة في الاختراع ؟ » فالجواب أن آخذ تلك القطع ــ زيادة على الشهادة له بالكمال والتقدم فيما هـو بصـدده مـن الأعمال ــ يتوصل بذلك الى ما يؤمله من الرغبة في سلعته المثمرة لنمو مكاسبه ، لأن سائر ما يقع في ذلك المجمع يطبع في صحف

(287) المعارض التارية : شاركت تونس في معرضي فرنسا سنة 1855و1867٠

الأخبار ليشيع فى الناس · وربما أعطى المخترع مبلغا من المال · وقد كان نابوليون الأول أصدر أمرا باعطاء مليون فرنك لمن يحدث آلة تغزل الكتان وحدها ·

ومن عناية ملوكهم بهذا المجمع أن الملك يحضره بنفسه مع رجال دولته حضورا رسميا عند فتح المعرض وعند انتهائه ، ويعلن للحاضرين بخطبة تتضمن مدح من أتى بشىء مستبدع لتتوفر الدواعى ويتنافس الناس فيما ينمى منافع الوطن · وإذا طلب أحد المخترعين من الدولة ـ ولو خارج المعرض قبل إشهاره مخترعه ـ الرخصة فى الاستبداد باصطناعه مدة لا يصطنعه غيره فيها إلا باذنه ، تعطى له الرخصة فى ذلك بشرط أن لا تتجاوز المدة خمس عشرة سنة ، وأن يدفع للدولة شيئا معلوما فى مقابلة الاختصاص ·

[81] وأما المؤلفات فانها تبقى ملكا لصاحبها مدة / حياته ، ويختص بها ورثته بعد موته سبع سنين ، وفى بعض الممالك ثلاثين سنة ، ثم يرتفع التحجير المشار إليه · ولولا هذا التخصيص ما انبعثت رغبات الناس الى الاختراع والتأليف ، لأن المخترع يلزمه ما لا يلزم المقتدى من اقتحام شاق الأعمال ، والمخاطرة بمصاريف التجريب ، وإضاعة غالب الأوقات فى التدبير ، فاذا لم يعط هذا الاختصاص كانت أعماله المذكورة بلا عوض ، حيث شاركه غيره فى فائدتها ·

ومن وجوه الترغيب عندهم أن من اخترع أمرا مهما تجعل صورته من رخام أو نحاس وتوضع فى الأماكن المعدة لاجتماع

الناس ، أو يسمى باسمه ما يتفق حدوثه فى تلك المدة من قنطرة أو طريق جديد أو نحو ذلك ليبقى بذلك ذكره ٠

وحاصل سياستهم فى هذا الشأن اعتبار ما حقه أن لا ينسى بأى نوع يقتضيه حاله من وجوه الاعتبار ، كما اعتبرت ذلك الدولة العلية عند تأسيسها سوقا بدار الخلافة لعرض نتائج المملكة ، وقد وقع العرض المذكور فى سنة ثمانين ومائتين وألف هجرية (1280 هـ٠) * وفى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة وألف (1851) وقع بانكلترة للمعرض المشار إليه ترتيب عجيب ، وهو أنهم أسسوا محلا فى غاية الاتساع والضخامة ، وأعدوه لعرض نتائج الممالك من سائر المعمور ، ثم وقع مثله فى فرنسا سنة خمس وخمسين وثمانمائة وألف (1855) ثم تكرر بانكلترة ، ثم أعيد فى فرنسا بمزيد اعتناء سنة سبع وستين وثمانمائة وألف (1867) كل ذلك ليقتدى المتأخر بالمتقدم فى الصناعات ونحوها ، مع ما يحصل لتجار تلك المملكة من الأموال الغزيرة ، الناشئة عن معاملة ملايين من النفوس الأجانب الوافدين عليها لذلك ٠ وإدارة هذه المجامع ، وتعيين المنازل لأرباب الصنائع والبضائع ، وتعيين من يستحق الجزاء ونحو ذلك موكولة لنظر مجلس مرؤوس بأمير من البيت الملكى ، اظهارا لمزيد الاعتبار ٠

72 ـ التنظيمات بأروبا

وقد آن أن نبين أصول تنظيماتهم السياسية ، التى هى أساس التمدن / والثروة المشار الى بعض آثارهما آنفا ، فنقول : [82]

(*) [/ 1863 ـ 1864] ٠

اعلم أن الأمم الأورباوية لما ثبت عندهم بالتجارب أن إطلاق أيدى الملوك ورجال دولهم ، بالتصرف فى سياسة المملكة دون قيد ، مجلبة للظلم الناشيء عنه خراب الممالك ، حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على أسباب التقدم والتأخر فى الأمم الماضية ، جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد الآتى بيانهم ، فى كليات السياسة ، مع جعل المسؤولية فى إدارة المملكة على الوزراء المباشرين (288) ، وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم الى نوعين : أحدهما قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية ، والثانى قوانين حقوق الأهالى فيما بينهم .

فمرجع الأول الى معرفة ما لصاحب الدولة وما عليه ، ويندرج تحته أمور منها : حرية العامة الكافلة بضمانة حقوقهم ، ومنها تعيين أصول تصرفات الدولة جمهورية أو وراثية ، كتنفيذ القوانين الحكمية ، وإدارة السياسة الداخلية والخارجية ، كعمل الحرب وعقد شروط الصلح والتجارة ، وتعيين الوظائف ونصب المتوظفين من الوزراء وغيرهم ، وتأخير من لم تكن وظيفته مؤبدة (وانما عبرنا بالتأخير لأن عزل المتوظف عن الخطة التى أفنى أطيب عمره فى خدمة المملكة لنيلها ، عزلا يقتضى طرحه من خدمتها بالمرة ، لا يكون إلا بذنب يثبت لدى مجالس الحكم بمقتضى القوانين !) (289) وكذا صرف المجابى لما عينت له الى غير

(288) لا ننس أن خير الدين تقلد خطة « وزير مباشر » من 1870 الى تقلده الوزارة الكبرى سنة 1877 .

(289) يشير هنا خير الدين الى ابعاده عن الحكم سنة 1862 .

ذلك من إدارة المملكة بما لا يخرج عن مقاصد قوانينها • كل ذلك من حقوق صاحب الدولة باعانة وزرائه •

وتأسيس أصول هذا النوع يكون فى دولة فرنسا بموافقة غالب رشداء أهل المملكة ، المتصرفين فى حقوقهم الخصوصية والسياسية • وفى غيرها يزاد على الشرط المذكور إما العلم ، أو ملك عليه مبلغ محدود من الأداء ، أو الوجاهة المسماة عندهم بالنوبليس (290) • وموافقتهم إما بأنفسهم أو بواسطة وكلاء ينتخبونهم لذلك •

[83] والنوع الثانى : القوانين المحررة لفصل / نوازل السكان والتسوية بينهم فى المجابى والمنح ، بحسب المكاسب والاستحقاق، الى غير ذلك من أحوالهم الداخلية • وتأسيس هذا النوع أو تبديله بما هو أليق بالحال يكون بموافقة المجلسين ، أعنى **المجلس الأعلى** (291) المركب من أمراء العائلة الملكية ، ومن ينتخبه الملك من أعيان المملكة مؤبدا وظيفته ، **ومجلس الوكلاء** (292) المركب ممن ينتخبهم الأهالى للمناضلة عن حقوقهم والاحتساب على الدولة • فأهل هذين المجلسين هم أهل الحل والعقد عندهم، فكل ما وافقوا عليه مما لا يخالف تلك الأصول اللازم فيها مشاركة العامة يصير من شرائع المملكة •

---

(290) دخيل : Noblesse •

(291) المجلس الاعلى : مجلس الشيوخ •

(292) مجلس الوكلاء : مجلس النواب •

73 ـ مسؤولية الوزراء المباشرين

وأما مسؤولية الوزراء فمعناها أن يكونوا تحت احتساب مجلس الوكلاء مباشرة ، كما هو موجود فى سائر الممالك الكونستيتوسيونية ، ماعدا الدولة الفرنساوية اليوم ، فان وزرائها مسؤولون للملك ، وهو مسؤول للمجلس •

ومن آثار المسؤولية المذكورة أن أمور الادارة المتقدم أنها من حقوق صاحب الدولة ، يتوقف إنجازها على إجازة الوزراء ، بحيث لا يبرم أمرا منها حتى يستشيرهم ، وانهم لا يمكنهم البقاء فى الخدمة إلا إذا كان غالب أعضاء مجلس الوكلاء موافقا فى سياستهم ، فعلم أن المجلسين المذكورين لا يتداخلان فى تفاصيل الادارة ، وإنما دأبهما وضع القوانين وحفظها بالاحتساب على الدولة • ومن أعمالهما عند الاجتماع النظر وإعطاء الرأى فيما يعرض على كل منهما من النوازل المهمة الداخلية والخارجية ، وسؤال الوزراء عما يظهر لهما متى شاءا ، والقدح فى سيرتهم خصوصا مجلس الوكلاء • وعلى الوزراء الجواب عن جميع ذلك ، وتقع المجادلة بالمجلس علنا بين القادح والمدافع ، ليتضح الحال ويظهر المصيب من المخطى ، فاذا اتفق غالب مجلس الوكلاء على تصويب سياسة الوزراء ، بعد التأمل فى أدلة القادح والمدافع ، تيسر للوزراء البقاء فى الخدمة ، وتحصل / حينئذ فائدة الدولة [84] والمملكة •

أما الدولة فيكون المجلس لا يتوقف بعد ذلك فى أن يسوغ لها أخذ ما تقتضيه المصلحة من المال والرجال ، لأن من وافق على المصلحة وعلى حسن سيرة مباشرها لا يمتنع من إعطاء ما يلزم لانجازها .

وأما فائدة المملكة فبثبوت استقامة سيرة المباشرين لمصالحها فيهون عليها صرف أموالها ودماء أبنائها حيث كان فيما يعود بالنفع عليها .

وبمثل هذا يستقيم حال الدولة والمملكة ولو كان الملك أسير الشهوات أو ضعيف الرأى كما تقدم .

وأما إذا اتفق غالب المجلس على عدم استحسان سياسة الوزراء فيجب على الملك عند ذلك أحد أمرين : إما تبديل الوزراء المشار اليهم ، أو حل مجلس الوكلاء ، على أن يعيد الأهالى الانتخاب فى مدة معلومة ، فاذا انتخبوا من يكون أشهر باللين والمساعدة للدولة دل ذلك على رضاهم بسياستها ، فيبقى الوزراء على خططهم ، وأما إذا انتخبوا الأولين أو من يكون مثلهم فى الشدة ، فيستدل بذلك على عدم رضاهم بها ، ويجب حينئذ خروج الوزراء من الخدمة وتعويضهم بمن سياسته ترضى المجلس . وللمجلس المذكور أن يدعى الخيانة على أحد الوزراء أو مجموعهم إذا رأى أدلة ذلك ، وتكون نازلة تفصل بالمجلس الأعلى . وظاهر أن الوزراء المشار إليهم كما تشدد عليهم القوانين المسؤولية عن تصرفاتهم تمنع

التعدى عليهم فى النفس والعرض والمال ، فيتيسر للنجيب الأمين منهم إجراء الأمور على مواقع المصلحة ، والفوز بما يستعقبه ذلك من جميل الثناء ، ولمن اتصف بالأمانة دون النجابة الخروج بالسلامة لا له ولا عليه .

وبما تقدم يعلم أن سلطة المجلسين تتحد تارة وتفترق أخرى ، إذ لكل منهما أعمال تخصه وأعمال يشارك فيها الآخر ، غير أن المعتبر فى تأسيس القوانين سيما المتعلقة بالمجابى ، والقوة العسكرية ، وفى الاحتساب على الدولة ، واستحسان سياسة [85] الوزراء / وضده اللذين ينبنى عليهما خروجهم أو بقاؤهم فى الخطة ، هو ما يتفق عليه غالب مجلس الوكلاء حسبما أشير إليه قريبا . كما أن إجراء القوانين المذكورة يتوقف على موافقة المجلس الأعلى على كونها غير مخالفة لأصول الكونستيتوسيون .

قلت فبتقرير ما ذكر يعلم أيضا أن صاحب الدولة عندهم مضطر الى موافقة إرادة المجلس ، التى هى فى الحقيقة إرادة أهل المملكة ، ولا يخفى ما يتبادر فيه من التشديدات التى تأباها نفوس غير المنصفين من الأمراء والوزراء ، لكن من بخت الأمم الأورباوية ، ونجاح مساعيها الدنيوية ، أن عرف ملوكها ووزراؤها ما ينشأ عن ذلك من الفوائد الجمة ، التى منها كف أيدى المأمورين عن التعدى على الرعية . ومنها سهولة اعتبار المكاسب فى توزيع الأداء على الأهالى بحيث لا ينقص من رؤوس

أموالهم ، إذ لا يتم مع ذلك نمو العمران • ومنها أن الرعايا إذا وافق وكلاؤها على أصل المصلحة فانها لاتشح باعطاء ما يلزم لانجازها كما تقدم • ومنها أن المفسد لا يجد مساغا للقدح فى تصرفات الدولة بقصد التنفير منها ، وتغيير القلوب عليها • ومنها أن الوالى المستبد ولو كان عادلا لا يمكنه الاطلاع على أحوال مملكته إلا بواسطة الوزراء وغيرهم من المتوظفين ، الذين أثبتت التجارب أن أكثرهم لا يعرفون الولاة إلا بما تقتضيه فوائدهم ، فيتوصلون بالنصائح العمومية إلى أغراضهم الشخصية خصوصا من يشير منهم على الملوك بالاستبداد ، لما له فى ذلك من المعونة على حصول استبداده هو أيضا فى مأموريته •

على أنه يمكن لنا أن نقول إن المأمورين فى دولة الاستبداد ، كل واحد منهم مستبد على قدر حال مأموريته ، فلهذه الفوائد ونحوها تجشم الملوك والوزراء ما فى التقييد فى مبدإ الأمر من المرارة ، نظرا لما يستعقبه من لذة السطوة والحضارة •

[86] وقد صح حدسهم فى ذلك بما لم نزل نشاهده / من تقدمهم فى العلوم والصناعات ، واستخراج كنوز الأرض بالزراعة ، والبحث عن المعادن ، وحصولهم من أمثال هذه المذكورات الناتجة من اتحاد الراعى والرعية ، على ما قوى حاميتهم فى البر والبحر ، حتى هابتهم الأمم واستولوا على ممالك كثيرة خارجة عن قسم أوربا ، ونالوا من نفوذ الكلمة فى غير ممالكهم ما هو مشاهد ، وصاروا فى التصرفات الدنيوية قدوة لغيرهم • وما ذاك إلا باجراء

القوانين السياسية ، التى مدارها على ما تقتضيه الحرية المشروحة سابقا ، من حفظ حقوق الانسان فى نفسه وعرضه وماله ، والاتحاد فى جلب المصالح ودرء المفاسد ، بمراعاة العادات والأمكنة والأزمنة التى تعتبر شريعتنا اختلاف أحكامها اعتبارا كليا ٠

ولتلك القوانين فى الممالك الأورباوية من الاحترام واستمرار النفوذ برعاية اهل الحل والعقد ، ما يحمى حقوق الرعية وحريتها ، ويؤمن الضعيف من بطش القوى ، ويدفع عن المظلوم سلطة الظالم ، مثل ما كان لأمة الفرس التى طال ملكها ودام حديث عدلها الى الآن ، وشهد لبعض ملوكها بالعدل سيدنا الصادق ــ صلى الله عليه وسلم ــ ٠ ومثل ما كان لأمة الرومان التى استولت على غالب جهات المعمور ، حتى كان يقال لها فى ذلك الوقت : « كرسى ممالك الأرض » ٠ ومثل ما كان لأمة اليونان التى لما استولى العدو على بعض بلدانهم ولزمهم الخروج منها ، سألوا حكيما لهم : « أين تصلح السكنى ؟ » فقال لهم : « فى بلد تكون الشريعة فيه أقوى من السلطان » ٠

الى غير ذلك من الأمم التى ما بلغت غاية الاستقامة إلا باحترام قوانين أحكامها المؤسسة على العدل السياسى ٠ كما أن عدم احترامها كان منشأ رجوعهم القهقرى ٠

ولا يتوهم أن ذلك بسبب بركة فى شرائع الأمم المذكورة ، إذ الواقع أنها قوانين عقلية مبنية على مراعاة الوازع الدنيوى ،

فاذا انضم الى ذلك وجود البركة والحرمة الالهية كما هو حال
شريعتنا المطهرة ، كانت / المخالفة مع ما تستعقبه من النكال [87]
الأخروى أجلب للانحطاط الدنيوى • ومن تتبع تواريخ الأمم
المشار إليها وتواريخ الأمة الاسلامية رأى ذلك عيانا •

74 ــ الدكتاتورية بأروبا

هذا وإن الضرورة قد تدعو الى تفويض إدارة المملكة لشخص
واحد مستبد لكن لغاية محدودة ، وبشروط عندهم معهودة •

وذلك أن من أصول السياسة المأثورة عن الأمة الرومانية أن
المملكة إذا اشتد الخطر عليها ، إما بكثرة الافساد الداخلى ، أو
بظهور مخائل التغلب عليها من الخارجى ، وصعب حسم مواد ذلك
بالأعمال القانونية ، لمكان تعدد الأنظار المتساوية ، وما عسى
يقتضى الترجيح بينها من طول المفاوضة المفضى الى عدم قمع
المفسدين ، ومدافعة المتسلط الأجنبى ، أو الى تأخير ذلك عن
وقت الحاجة ، فعند ذلك يطلب مجلس **السناتو** من أحد رئيسى
الدولة **الجمهورية** أن يختار من أعيان رجال المملكة من يسميه
باسم **دكتتور** (أى مطلق التصرف) تفوض إليه إدارة المملكة
بما يظهر له بمقتضى اجتهاده ، كعمل الحرب والصلح ، ونفى
أوقتل من يراه من أهل الفساد والخيانة ، أو عقابه بأخذ المال ،
أو غير ذلك مما يقتضيه الحال •

ولا يتوقف نفوذ حكمه على موافقة أحد إلا فى أمر المجابى ، فان أعماله فيها موقوفة على موافقة مجلس السناتو · وكل من له مأمورية عسكرية أو سياسية فهو ملزم بتنفيذ أوامره ، وكذلك سائر الأهالى ·

ولا يتجاوز التفويض المذكور ستة أشهر ، — ولو كان السبب باقيا — إلا بتفويض جديد · كما أنه إذا ارتفع السبب قبل انتهاء المدة فان التفويض ينتهى ، وترجع الادارة الى قوانينها ·

وعند خروج المفوض له تتوجه إليه المسؤولية اللازمة لكل من يخرج من خطة معتبرة عندهم ، فيطلب منه بيان السبب الداعى الى ما تصرف به من قتل وحرب وصلح وأخذ مال ، ونحو ذلك ، بمحضر أهل رومية المجتمعين لذلك · فان صوبوا تعليله استوجب شكرهم وثناءهم على سيرته فى موكب مخصوص ، وإن كانت [88] / الأخرى يحكم عليه بما يناسب سوء تصرفه · وأكثر ما يكون ذلك بالنفى من التخت ، أو أداء المال ·

ثم إن الأورباويين صاروا فى المدة الأخيرة يطلقون اسم الدكتتور على كل وال مطلق التصرف سواء كان محدودا بمدة أم لا كالجنرال كرونول(294) بانكلترة، ونابوليون الأول بفرنسا ، وغيرهما ممن كان استبداده من آثار حيرة تثور بالمملكة يشتهر

---

(294) Olivier Cromwell (1658-1599) .

فيها المشار إليه بمزيد الدراية والحزم ، فينصب نفسه منصب الدكتتور ، وتتعرف به العامة بقصد إخماد الحيرة ، وتخليص المملكة من مواقع الخطر ، واستصلاح حالها بتهذيب جفاة الأهالى وتقويم اعوجاجهم ۰ لكنهم لا يحصلون غالبا على هذا المقصود بل يتوصل المنتصب بذلك الى اغتنام الفرصة لاستمرار استبداده ، إما لاستمرار أسباب الحيرة وضعفه عن ازالتها ، وإما لكون المنتصب أزالها بحسن تدبير وقع من الأهالى موقع الاعجاب ، حتى اكتسب بذلك مزيد احترام عندهم أسس عليه سلطته ، وإيثار نفوذ إرادته على إجراء قوانين المملكة ، مرجحا بذلك حظ نفسه على المصالح العامة ۰

لكن ذلك مع ما يفضى إليه من المضار الاستبدادية ، لا ينكر أن المصير إليه واجب عند قيام سببه لاستبقاء راحة المملكة ، كما يشير إليه قول الحكيم مونتسكيو الفرنساوى : « إنا بمقتضى ما نسمعه من أعمال الأمم التى كانت حاصلة على الحرية التامة ، نرى أن الحال قد يقتضى إرخاء الستر على الحرية إرخاء وقتيا » ۰

قلت : وحيث كان التفويض المشار إليه إنما ساغ للضرورة ، وما أبيح للضرورة يتقدر بقدرها ، فلا جرم يجب الرجوع الى كشف حجب الحرية بعد زوال السبب (295) ۰

---

(295) انظر اعلاه ما قاله عن الحرية واحترازه فى منحها ما لم تتوفر الظروف المناسبة ۰ فقرة : 37 ۰

75 - الخاتمة

هذا وقد قررنا فى هذه المقدمة من الأدلة الناهضة الواضحة على ما فى التصرفات السياسية المضبوطة بالتنظيمات من المصالح العامة والخاصة ، التى يشهد العيان بآثارها الناجحة فى الممالك ، وما فى التصرفات السياسية الغير المضبوطة بها من المضار الفادحة ، ما / تقر به عين النصوح المحب لخير الوطن .
[89]

وإنى لا أزال أقول إن ترتيب التنظيمات المشار إليها من لوازم وقتنا هذا . كما أقول ـ صدعا بالحق ـ إن كل متوظف لا يرى الاحتساب عليه فى وظيفته ، فهو عديم الأمانة والنصيحة لدولته ووطنه ، ولو كان معتمدا فى ذلك على ما قد يجده فى نفسه من حب الانصاف ، لأنه تسبب فيما يستعقب الخراب بامتناعه من المراقبة والاحتساب ، حيث إن أكثر المتوظفين إنما يباشر خطته على مقتضى شهواته ومصالحه الخصوصية ، مؤثرا لها على المصالح الوطنية العمومية . فهب أنه كان مجبولا على حب الانصاف ، فان غيره لا يفعل مثله إلا بمراقبة الاحتساب ، ولأنه لو كان منصفا فى الواقع ما ضره الاحتساب حتى يمتنع منه ، بل اللائق بحاله مزيد الحث عليه ، إذ به تظهر براءته ظهورا لا يحصل بدون ذلك .

وفيما أودعناه فى غضون هذه المقدمة للمستبصرين كفاية ، والتوفيق بيد الله المحمود فى كل بداءة ونهاية .

التقاريظ

أحمد ابن أبي الضياف	أحمد بن محمد الأصرم
محمد الباجي المسعودي	علي بن محمد الطويبي
أحمد كريم	عبد الله السوداني
سالم بوحاجب	محمد بن الحسن التطاوني
محمد بيرم	محمد السرياجي
محمد العربي زروق	محمد عريف
محمد الصادق ثابت	محمد بن محمد الشريف
أحمد زروق	خليل الخنوري
يونس العروسي بن عياد	أحمد البصراوي
مصطفى رضوان	أحمد جمال الدين
أحمد الورتتاني	أحمد بلخوجة
حمودة بوسن	محمود قبادو

[2] / بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملهم للصواب ٠ المذلل لعباده الطرق الصعاب ٠ والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بأفضل كتاب ٠ وعلى آله وازواجه وذريته وكافة الاصحاب ٠ وبعد فلما نشر سابقا بعض هذا الكتاب بعث لحضرة المؤلف بعض السادة الاعيان من ذوى الخطط وارباب المراتب الدينية والسياسية بالحاضرة تقاريظ نفيسة اشعارا باستحسانه فخاطب مدير المطبعة (1) بما نصه :

اما بعد فان بعض اخواننا من اهل الحاضرة اطلعوا على ما نجز طبعه من كتابنا **اقوم المسالك فى معرفة احوال الممالك** الذى كلفتم بطبعه وكاتبونا بالمكاتيب الواصلة لكم المتضمنة استحسان ما اشتمل عليه وقد حصل لنا السرور العظيم بذلك حيث راينا مبادىء نجاح سعينا فى جمعه وتحصيله بتوجه همم مثل هؤلاء الفضلاء اليه ولاظهار شكرنا لفضل الاعيان المذكورين نرغب منكم أن تطبعوا مكاتيبهم وتضعوها بلصق كتابنا المذكور ٠

والسلام من محرره
خير الدين
وكتب فى 17 المحرم سنة 1285/10 ماى 1868 ٠

---

(1) مدير المطبعة سنة 1868 هو منصور كرليتى وهو مستعرب ايطالى المولد لبنانى سورى المنشا فرنسى الجنسية اصدر بمرسيليا سنة 1858 جريدة (عطارد) بالتعاون مع فارس الشدياق ثم واصل نشرها بباريس واستجلبه فى اوائل 1860 الجنرال خير الدين وعضده الجنرال حسين للاشراف على الرائد التونسى والمطبعة الرسمية ودام عمله بهما من ذلك التاريخ الى 1878 .

انظر ترجمته فى اطروحتنا : « الصحافة والطباعة بتونس وعلاقتها بالنهضة » .

1 ـ احمد بن ابى الضياف

[3] / فمن تلك التقاريظ ما لجناب حامل راية الكتابة باليمين ٠ السابق فى ميادين حلبتها بلا مين ٠ محيى رسومها بعد الاندراس ٠ ومؤسس قواعدها على امتن اساس ٠ الوزير الافخم ٠ والعلامة الاعظم ٠ سالك مناهج الرشد بدون اعتساف٠أبى العباس الشيخ سيدى **احمد بن أبى الضياف** (1) ونصه :

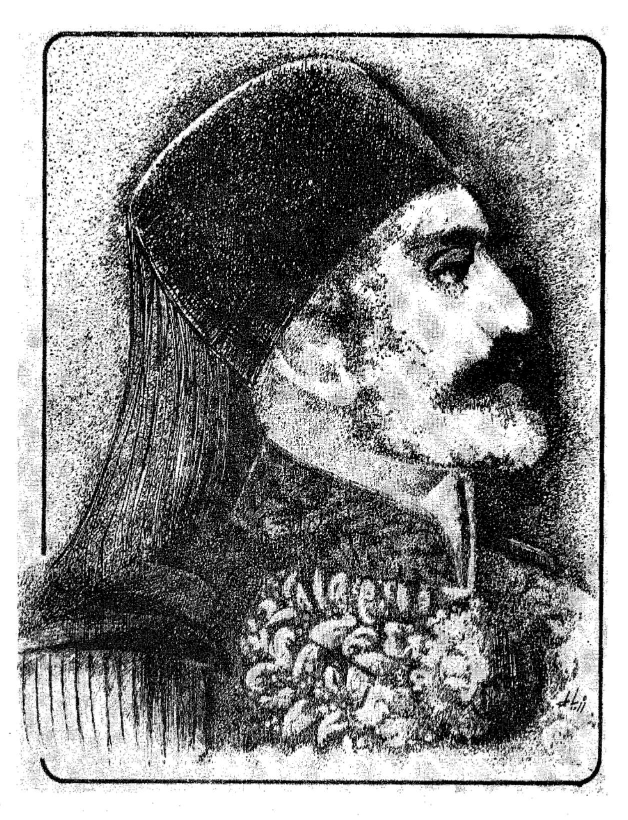
الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

نخبة الوزراء الاركان ٠ وعمدة اهل السياسة والعرفان ٠ ومن لا يفى بمحاسنه بيان سحبان ٠ الطائر الصيت فى هذا العصر والاوان ٠ السابق فى الميادين ٠ الناسج على منوال الاذكياء المهتدين ٠ ما ينفع فى الدنيا وفى الدين ٠ سيدى **خير الدين** ٠ لازالت اقواله ناجحة ٠ وسياسته صالحة ٠ وتجارته فى الخير رابحة ٠ وفطنته الوقادة للغوامض شارحة ٠ والالسن بالثناء عليها صادحة ٠

اما بعد السلام ٠ المؤدى لحق المقام ٠ فإنه وصلنى من فضلكم وصداقتكم ما سبى فكرى ولبى ٠ زيادة على كمية حبى ٠ وهو تاليفكم المسمى **باقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك** ٠ فرايته كالصبح فى الدجى الحالك ٠ يحذر السالك من مهاوى الغرور والمهالك ٠ فزادك والله كمالا على كمالك٠أوضحت فيه من قواعد شريعتنا المحمدية الصالحة لكل زمان ٠ بما فيها من اعتبار

---

(1) احمد ابن ابى الضياف : (1802 ـ 1874) كاتب ومستشار خدم البايات الحسينيين ابتداء من 1827 فى عهد حسين باى ، اضطلع بمهمات ديبلوماسية لدى الباب العالى سنة 1830 و 1840 وصحب المشير الاول احمد باى الى باريس سنة 1846 وشارك فى تحرير عهد الامان سنة 1857 والدستور سنة 1861 ورقاه المشير الثالث الصادق باى الى رتبة وزير مستشار دون وزارة معينة وحيث كان من انصار خير الدين التونسى واعضاده فان حياته السياسية والادارية اتسمت بنفس التقلبات التى اعترت نضال رجال الاصلاح فى تلك الفترة . توفى بتونس سنة 1874 ، من تآليفه : **اتحاف اهل الزمان و رسالة فى المراة** .
انظر **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط. 2 ، III ، 705 ـ 706 .
المنصف الشنوفى : **تقديم رسالة فى المراة لابن ابى الضياف** ، **حوليات الجامعة التونسية** ، عدد 5 ، 1968 ، 51 ـ 63 .
احمد عبد السلام : **تحقيق الباب السادس من الاتحاف** ، تونس 1971 ، 9 ـ 11 .



الشيخ أحمد ابن أبى الضياف



الشيخ سالم بوحاجب



الشيخ محمد بيرم الخامس

المصالح والاستحسان . ما يروى الظمآن بأبلغ بيان . حتى اتضح سرهـا للعيان . وبينت أسباب التقدم فى المعارف التى اساسها **العمران** . الـذى جاءت به / الشرائع والاديان . على اعذب اسلوب. جاذب للقلوب. وقمت فيه [4] بشهادة الله مقام علماء الدين . والائمة المهتدين . بنقل ما حررته عن اولئك المجتهدين . فكان كتابك فى ذلك كسراج المهتدين . ولكل وقت سراجـه . ولكل مطلوب منهاجه . ولكل داء علاجه . ولو رآه شيخنا الـذى مـلأ علمـه النواحى . سيدى **ابراهيم الرياحى** (1) لأعاد التمثـل فيـه مصادفـا محـز التنزيل . بقول الامام ابن مالك فى طالعة التسهيل . واذا كانت العلوم منحا الهية . ومواهب اختصاصية . فغير غريب أن يدخر للمتأخرين . ما عسر على كثير من المتقدمين . وانك والحمد لله من هؤلاء المتاخرين الذين قال فيهـم ما قال . ولكل علم رجال . ولكل مقام مقال . ولكل سابق مجال . حليـت به حاضرة تونس. وصيرتها كاسمها تونس. هذا ما اقوله فى كتابك وفيك. والذى ملأ العصر يكفيك. جزاك الله عن محبة وطنك وبلادك. منبت اسعادك. بما تجده يوم معادك . وكثر فى الامة الاسلامية من افرادك .

والسلام عليكم ورحمة الله من العارف بقدركم المبتهج بفخركم .

أحمد بن أبى الضياف

كتبه فى السادس والعشرين من ذى الحجة الحرام متمـم سنـة 1284/19 افريل 1868 .

---

(1) ابراهيم الرياحى : انظر ترجمته اعلاه ، تعليق (102) .

2 ـ الباجي المسعودى

ومنها ما لتاليه فيها بل المصلى • وواشى برودها والمحلى • الآتى من أغراضها بالصواب • ومن فنونها باللذيذ المستطاب • منور احلاك ظلامه الداجى • ابى عبد الله الشيخ سيدى **محمد الباجى** (1) • رئيس الكتبة بوزارة العمالة • سدد الله بمنه أحواله • ونصه :

بسم الله • ما شاء الله • لا قوة الا بالله •

[الطويل]

واخلاق خير الدين ان شئت مدحه   وان لم أشأ تملى على فاكتب

[5] / سيدى انسان المعارف ورجل السياسة • ومن قسمته كمالاته فى ميادين الرئاسة • المدافع ببراعة يراعه عن حوزتى الغيرة والحماسة • فتح الله تعالى اصداف آذان القلوب لاقتناء دررك المصونة ، الناظمة عقودها ابكار الكلام وعونه (2) • وصل عبد اياديكم • واقدم مؤيديكم • ما تشرف به من تاليفكم الطائر الصيت • المحيى مضمونه كل قلب مريض وميت • المسمى **باقوم المسالك • فى معرفة احوال الممالك** • فكحلت باثمده اجفانى • وملات بالمسرة به رحابى وجفانى (3) وحمدت الله تعالى على جميل اعتنائه بهذا العالم الانسانى • وودت والله لو طالعه لسان الدين ووليه (4) • وعرض عليهما وسميه ووليه (5) • ليقلدا نحره بما لديهما من نفائس الجواهر • ويعلما ما فى زوايا العصور من ذخائر المفاخر • ومصداق قول الشاعر :

كم ترك الأول للآخر

---

(1) محمد الباجى المسعودى : (1811 ـ 1880) من مواليد تبرسق ، من اشهر كتاب عصره ، له تاليف ، **الخلاصة النقة فى امراء افريقية** .
انظر ح- ح ـ عبد الوهاب : **مجمل تاريخ الادب التونسى** ـ تونس 1967 ، 282 ـ 285 .
محسن بنحميدة : **الباجى المسعودى** ، الشركة القومية للنشر والتوزيع د.ت. 87 ص.

(2) ابكار الكلام وعونه : ج بكر وعوان : والبكر : الفتاة لم تتزوج بعد . والعوان : المتزوجة .

(3) اثمد : عود الكحل . جناس بين اجفان ج جفن : غطاء العين من اعلى الى اسفل وجفان ج جفنة : القصعة الكبيرة .

(4) لسان الدين ووليه : تورية عن لسان الدين ابن الخطيب وولى الدين عبد الرحمان بن خلدون

(5) وسميه ووليه : الوسمى اول مطر الزبيع والولى ج اوليه المطر الذى يلى مطر الربيع . وهناك جناس بين ولى الدين وولى المطر .

فلئن سبقتم بالتاليف فى احياء علوم الدين • فقد فزتم باحياء علوم الدارين•
او احوال العمران والمعمور • فقد مننتم بجمع ما تقدم وما تاخر فى العصور •
ونبهتم من الهمم بما لونبه به الجماد • لاستفاد وافاد • او خوطب به الصم
البكم • لاذعنت للحق وانقادت للحكم • فليت الكواكب تدنو لى فانظمها فى
تقريظه عقودا • او الكواعب ترنو لى فتعيرنى سحر الحاظها ودر الفاظها •
فاصوغها لهامته اكليلا معقودا • واقول بعد تاكيد اليمين • لقد اخذت راية
الاحسان باليمين • وحق لك ان تلقب **بخير الدنيا والدين** (6) • جريا على
سنن الامم السالفين • فى زيادة الالقاب عند زيادة تبريز السابقين • وان
تفتخر بجلالكم الحضرة والايالة • على كل من هز فى مثل غرضكم يراعه
وعساله (7) • واوقد فكره واذكى ذباله (8) • فهنيئا بما اوتيتم من كمال قصر
[6] عن بعضه الانداد والاضداد • وجميل خلال تلعثم لسان اليراع / فى
سواد المداد • وجزيتم على ما ابديتم للعيان من وجوه النصيحة بالادلة
الشرعية والبراهين العقلية الصحيحة • جزاء لا ينفد مدده • ولا تنقضى مدده•
حتى يبقى جميل ذكركم فى الاقطار والممالك • اوضح من شمس النهار واشهر
من **أقوم المسالك** •

والسلام العاطر البدء والختام من خامد الفكر خامل الذكر معظم قدركم المحب

محمد الباجى المسعودى

ستر الله تقصيره المستفيض • ولا أخجله حين تزدحم بأبوابكم جواهر الثناء
فى عقود التقريظ •

وكتب فى السابع والعشرين من ذى الحجة الحرام سنة 1284/20 أفريل 1868•

(6) هكذا لقبه انصاره ولقبه اعداؤه بشر الدين والدنيا .

(7) عساله : رمحه .

(8) اذكى ذباله : اشعل فتيلته .

3 ـ أحمـــد كـــريـم

ومنها ما للعلامة الدراكة • من قدم الفضلاء فى حل المشكلات ادراكه • الفائق اقرانه بلا ريب • المنزهة فهومه عن كل وصمة وعيب • الفذ الذى ليس لـــه نظير • المحقق النقادة البصير الشيخ سيدى **احمد كريم** (1) احد المفتيين • من المشائخ الحنفية المرضيين • ونصه :

الحمد لله « الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » (2) • علمه البيان • وفتح له أبواب التبيان • وهداه بالعقل السديد والكتاب المجيد الى طريــق الرشاد • ومعرفة حكمة هذا الايجاد • المبنى على أساس العدل والاحسان • المقتضيين لتمام التمدن والعمران • على الوجه المحكم • والطريق الاقوم الاسلم •

وبعد فانه لما وافانى كتاب أقوم **المسالك • فى معرفة أحوال الممالك** • تاليف العالم العلامة النحرير • الجامع بين اسرار التنزيل وتحبير التحرير • أمير الأمراء السيد **خير الدين** لازال منبعا للعلوم والمفاخر • ومفخرا للاوائل والأواخر • اجلت فيه نظرى • وصرفت فيه بعضا من عمرى / وتدبرت فى معانيه • وفى مقاصده ومبانيه • فاذا هو كتاب جزل • وكلام فصل « وما هو بالهزل » (3) حيث كان اساسه الحض على العدل الذى من نتائجه ما صرح به صاحـــب الكتـــاب • وأهجت به اولو المعارف والالباب • ودون احصائها تكل الاقلام • ويضيق عن حصرها واسع الكلام • مع ما تضمنه من ضبط احوال الممالك • وبيان أسباب التقدم للسالك • وتأخر من هو فى المهالك هالك • بلفظ وجيز • وتحرير عزيز • واسلوب لم يسبق اليه • ومنوال لم ينسج ناسج عليه • فباسلوبه العجيب • يحرك ساكن الماهر اللبيب حين يضرب اخماسه فى اسداسه • ويرى بيد الغير ثمار [7]

---

(1) احمد كريم : (1826 ـ 1897) أصله من سلائل جنود الترك المنخرطين فى سلك الانكشارية بتونس ـ درس بالزيتونة ابتداء من 1848 .
وتقلد الفتيا الحنفية سنة 1863 وفى سنة 1895 تولى مشيخة الاسلام الحنفى وتوفى سنـــة 1897 . كان من انصار الاصلاح وساهم بعمله وتآليفه فى الحركة الاصلاحية فى عصره .
انظر : محمد الفاضل بن عاشور : **تراجم الاعلام** ، تونس 1970 ، ص. ص. 103 ـ 114 .

(2) سورة العلق ، الآيتان : 4 ـ 5 .

(3) سورة الطارق ، الآيـة 14 .

غراسه • ثم يقول : « يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله » (4) • ولا حول ولا قوة الا بالله • ثم عرض لى عارض الشك والريب • لقولهم ما سلمت مليحة من عيب • وقولهم من ألف • فقد استهدف • فاعدت النظر فيه عدة مرار • وشحذت له صوارم الافكار • فلم اجد فيما بيدى منه شائبة اعتراض • ورجع الفكر وهو عن جميع مقاصده راض •

[الوافـــر]

وهبنى قلـت هـذا الصبـح ليل   أيعـمى العالمـون عـن الضيـــاء

وجدير بمن يروم المراء فيه والجدال • ان يصغى الى ما اليه يقال (5) :

[الطويل]

وقال السها للشمس انـت خفيـة   وقال الدجى يا صبح لـونك حائـل

بل الواجب فى ذلك التسليم « وفوق كل ذى علم عليم » (6) غير ان الهمة الابية • حركتها سواجع الحان هاتيك الطريقة المرضية • لتدفع عنها اعتراض التفريط• الذىهو سبب البلاء المحيط• مع علم كلعالم، بانتارك الامربالمعروف والنهى عن المنكر آثم ، لكن قد قال امامنا أبو حنيفة رضى الله عنه : ووراء لم اسد جائم (7) •

[8] والسلام / من كاتبـه فقير ربـه

أحمـد كريـم

المفتى الحنفى لطف الله به آمين •

وكتب فى الحادى عشر من المحرم الحرام سنة 1285/4 ماى 1868 •

---

(4) سورة الزمر ، الآية 56 .

(5) البيت للمعرى .

(6) سورة يوسف ، الآية 76 .

(7) كذا بالاصل.

4 ـ سالم بوحاجب

ومنها ما للفاضل النحرير • ومن ليس له فى اقرانه نظير • نخبة اولى الفضل الاماجد • ومن اقر بنبله الاقارب والاباعد • مفترع ابكار العلوم على اختلاف أنواعها • والضارب بسهم مع كل شيعة من أشياعها • سيبويه (1) زمانه فأين ابن الحاجب (2) • الشيخ أبـى النجـاة سيـدى **سالم بوحاجب** (3) وهو من الطبقة العليا من مدرسى المالكية ، بجامع الزيتونة ابقى الله مهجته الزكيـة • ونصـه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم •

اما بعد اهداء لائق التحية • برفعة سدة السيادة الخيرية الدينية • صانها الله• فقد اطلعت لازال الله يطلعنا بكم على كل ماثرة تفوق الحدس• ومصلحة تهم سائر الجنس • على ما نجز طبعه من كتاب **اقوم المسالك • فى معرفـة احوال الممالك** • فشاهدت منه وان لم اكن من فرسان مجاله • اساسا سياسيا لـم تسمح قريحة بمثاله • بيد انه لم يسبق الى التاليف فى غرضه احد من علماء الاسلام • ولا استودعت لطائف مقاصده بشىء من صحائف الاعلام • فكل من يتصفحه بعين الانصاف • لا يشك فى انه ينبوع نصح صاف • نبع للامة الاسلامية عند اشتداد ظماها لمثله • واحتياجها لتقويم اودها (4) باتباع قوله•

---

(1) سيبويه : نحوى بصرى كان امام مدرسة البصرة .

(2) ابن الحاجب (570 ـ 646 / 1174 ـ 1249) فقيه مالكي ونحوى .
انظر **دائرة المعارف الاسلامية** ط 2 ، III ، 804 ـ 805 .

(3) سالم ابو حاجب : (1827 ـ 1927) من مواليد بنبلة من قرى الساحـل التونسى تعلـم بالزيتونة واتصل بكبار علماء عصره وابرز رجال السياسة كشيخ الاسـلام بيرم الرابـع والجنرال خير الدين ، اعان خير الدين على تحرير كتاب **اقوم المسالك** ، انتخب عضـوا فى المجلـس الاكبـر سنـة 1861 وسـافـر الى الآستـانـة سنـة 1871 مـع خيـر الـديـن للتفاوض فى شـان الفرمـان المشهـور وسافـر ايضـا الى ايطاليـا مـع الجنـرال حسيـن فى قضية القائد اليهودى نسيم شمامة سنة 1874 وزار باريس ومعرضها سنة 1879 . امـا تدريسه بالزيتونة فدام ثلاثين سنة من 1848 الى 1912 ، كان من المجتهدين المصلحين اتصل بالشيخ محمد عبده عند زيارتيه لتونس سنة 1884 و 1903 . وكان اول من افتتح الدروس بالجمعية الخلدونية سنة 1896 وشارك فى تحرير **جريدة الحاضرة** من 1888 الى 1912 ـ انظر محمد الفاضل بن عاشور : **تراجم الاعلام** ، تونس 1970 ، 221 ـ 233 .

(4) الاود : الاعوجاج من اود ياود اودا : اعوج .

فبمثله تخصب مراعيها • وتنجح في هذا الزمان مساعيها • واى شيء انجح لها
من استحصال السعادة الدنيويه • باعمال شريعتها الكافل بسعادتها الاخرويه •
فياله من مجموع ابدع فيه جامعه • حتى تاه في بيداء حسنه مطالعه • فتارة
يشبهه بسياج / حافظ لحقوق الامة • واخرى بسراج يضيء حنادس (5) [9]
السياسة المدلهمة • وتارة بمنهل سهل سبيله • منساب من مجاري الغيرة والعرفان
سلسبيله • وتارة ببدر يزيح ظلمات المظالم • معوذة اشعته من حيلولة الغمائم •
وتارة بمرآة تبدو بها تماثيل العواقب • مجلوة بادلة العقل والتجارب • وتارة
بطبيب عارف بامراض الدول • خبير بجبر ما يعرض لها من التوهين والخلل •
ومن فوائده التي بمثلها يتفاخر • تعريف كل منا والاجنبي بحال الآخر • اذ
لولا معرفتنا بحاله • ما امكن الاستعداد لنزاله • والنسج في تحصيل اسباب
المقاومة على منواله • ولو لا معرفته بحالنا • وان شريعتنا لائقة بسائر اجيالنا •
ما امكن رجوعه الى تصويب احكامنا • بعد ان كان يعدها من سفه احلامنا •

وبالجملة فنتائج الكتاب لا تحصى • ومصالحه العائدة على أمة الاسلام لا
تستقصى • كيف لا ومصدره فؤاد مشحون بحب الوطن ، مقرون بالنصح ، كل
ما ظهر منه وبطن ، جدير بان ينشد صاحبه • وان نأى عن مواقف الافتخار
جانبه •

[الوافر]

يكدر صفو عيشي هون قومي	ولو كان اعتزازي في ازدياد
ولا ارضى بان يهمي بارضي	سحاب لا يطوف على بلاد

الى غير ذلك مما لا يسعه نطاق المقام • من سجايا المجد وصفات الكمال •

كتبه عبد ودكم

سالم بوحاجب

في 14 المحرم سنة 7/1285 ماى 1868 •

(5) حنادس ج حندس : الليل الشديد الظلمة .

5 ـ بيـــرم الخـــامـس

ومنها ما للنجيب الاريب • والنسيب الحسيب • سلالة الاخيار • من عـلا صيتهم فى الاكوان وطار • فمزيتهم على الديار التونسية لا تنكر • بل هى من النار على علم اشهر • البيارمة المستشهد بكلام أولهم فى مقدمة هذا الكتاب(I) • ومن يرجى ان يكون هذا / الفاضل المترجم **خامسهم** فى الحساب • ألا وهـو [10] الماجد الاكمل • أبو عبد الله الشيخ سيدى **محمد بيرم**(2)ابن الافضل فالافضل الى الاول • وهو من مدرسى الحنفية بثانى طبقة • ابقى الله صحائف ثنائه اريجة عبقـة • ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم •

اللهم انا نحمدك ان اشرقت فى هاته الامة شمـوس المعارف والعلـــوم ، وارشدت افكار اهلها بتاييدك لاقتطاف ثمار الفهوم ، فكانت قدوة لسائر الامم فى التقدم بها يقتدون ، وعلى منوال عدلها ينسجون • كيف لا ومحكم اساسها الحكيم البصير « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (3) •

ونصلى ونسلم على طلعة الشرف الاعظم • الباث للشريعة بالميزان الاقوم • حتى غدت اكليل نور ساطع على جباه الدهور • وان اختلفت المعالم لاختـلاف العوائد على حسب الاقتضاء والميسور • محمد هادى الانام • وعلى آله واصحابه الكرام • القائمين فى تهذيب الامة على اعدل صـراط مستقيـم • البـاذلين وسعهم فى حمل الخلائق على سعادتهم بامتثال القرآن الكريم •

اما بعد فانى اهدى من عطر السلام والتحية ، أضوع النفحات الزهرية • وارفع التعظيمات الذاتية ، واخلص التقربات الودادية ، الى حضرة فخر هذا

(I) لقد استشهد خير الدين برسالة بيرم الاوم وعنوانها : **السياسة الشرعية** .انظر أعلاه،ص 154

(2) بيـرم الخـامس (1834 ـ 1893) ابـن أخـى شيـخ الاسـلام الـرابع تتلمـذ على الشيخ سالم ابو حاجب ودرس بالزيتونة ولكن غلب عليه العمل السياسى والاصلاحى بالتعاون مع الجنرال خير الدين فتراس الاوقاف **الرائد التونسى** والمطبعة الرسميـة وسافر كثيرا خاصـة ابتداء من 1878 ، مما مكنه من تحرير مؤلفه : **صفوة الاعتبار** فى خمسة اجزاء واستقر آخر حياته بمصر حيث اصدر جريدة **الاعلام** بالاسكندرية سنة 1884 .
انظر : محمد الفاضل ابن عاشور : **اركان النهضة الادبية بتونس** ، تونس 1965 ، 21 ـ 27 .

(3) سورة الملك ، الآية : 14 .

القرن ، الابية شمائله ان يلفى له في ميادين الكمال قرن (4) الناصح الامين امير الامراء سيدى **خير الدين** • لازالت ايادى افكاره تطوق العقول بقلائد الافادة • وجواهر عقوله تفيض على البرايا مبتكرات النصائح في حلل الاجادة•

واعلمه لا زال عالى العلوم • مشيدا من القواعد السياسية مندرس الرسوم• انه قد وصل ما انجزه الطبع• وجذبه لى مغناطيس الاكتساب والطبع• من كتاب **اقوم المسالك • في معرفة / أحوال الممالك** • ونور انصافه يسطر [11] عليه عنوان الحلل السندسية • المكسوة بها لباس انفخر الاقاليم التونسية • فاجلت النظر في كنوزه الفاخرة• وتقاريره الساحرة• وروقت الطرف في رياضه• وكرعت من نهل حياضه ، ودرجت الفكر في شامخ حصونه ، وتنورت بما بدا لى من افادات مكنونة • فاذا هو للملة الاسلامية الضالة المنشودة ، والذخيرة المفقودة ، والظلال الممدودة ، والنعم المحمودة ، والحياض المورودة ، والعزائم المشدودة ، والمآثر المعدودة ، والكعبة المقصودة • والآراء المنضودة ، كيف لا وقد حض على ما امر الله به • وحث على ما يجب التمسك بسببه• وانهض عزائم علماء الاسلام• لنشر ما اودعوه في صدورهم من العلوم والاحكام ، مع علمهم ان لا مساغ لكتمانها عند ذوى الاحلام • والرسول يقول « من كتم علما الجمه الله من النار بلجام » (5)• وبين المهيع (6) الذى به تحصل الاستقامة • وأوضح المنهج المسلوك لطرق السلامة • من ترك التضييق المفضى الى المفسدة التى هى ضد المقصود من الشريعة (7) • واعمال الجهد في استخراج احكام المصالح من اسرارها البديعة • بما لا يقال فيه ابتداع • خارج عن حكم الاجماع • وانما هو تطبيق للكائنات على كلياتها • واستحصال للمصالح التى هى اعظم مهماتها •

فلو رأته العلماء الحنفية • لأعلنوا ان لا مقصد لهم سوى ذلك بالحيل الشرعية • ودليل ذلك ما بينوه في اساغة البيوع الوفائية ، وعضدتهم على ذلك معاشر المالكية • وقال ترجمانهم الشاطبى (7) « هذا الذى عنيته •

---

(4) قرن : جناس بين القرن بالفتح وهو مائة سنة او الزمان والقرن بالكسر وهو النظير في الخصال الحميدة .

(5) حديث نبوى شريف .

(6) المهيع : الطريق الواسعة من هاع يهيع او يهاع انبسط على وجه الارض .

(7) فان هذه العبارة « من ترك التضييق المفضى الى المفسدة التى هى ضد المقصود من الشريعة بعبارة خير الدين تعليقا على ما ورد برسالة بيرم الاول « فيضيقون ما وسعه الله عليهم » انظر المقدمة طبعتنا ، I55 .

(8) الشاطبى أبو اسحاق ابراهيم ، من أشهر علماء الاندلس . عالم بالاصول والتفسير والفقه والحديث واللغة . من تآليفه « **الاعتصام** » و « **الموافقات** » .

من استصحاب المصالح المرسلة وفى **موافقاتى** طويته » • اذ الشريعة لا محالة باقية • ولأصولها واقية • وقد جرت عادة الله فى عباده • باختلاف عوائدهم ومنافعهم على حسب مشيئته ومراده • فلزم ان تكون احكام كل جيل على قدر / استعداده / • وهى الحكمة البالغة فى نسخ الشرائع • وبقاء خاتمتها لاشتمالها على كل حكم على ممر الدهور شائع • [12]

[الكامل]

ان التى جمعت كمال مصالـح الـ	ـدارين ويـك شـريعة العدنـان
ما شذ عنها حكـم حـال يعتـرى	جيـلا ولا حينـا مـن الاحيـان
فكـان كـل شريعة مـن قبلهـا	فى صلبها صنـو مـن الصنـوان
يشبهن حال فروعها مـن بعد فى	تبـع لعـادات وحكـم زمـان
فالنسخ فى هاتيك كالعمل الـذى	فيهـا مـع الحـالات ذو دوران

او لو طلع به البشير على ابن قيم الجوزية (8) • لأعلن بالشكر على بلـوغ الامنية • وقال : « فما وراء هذا من سياسات شرعية » • او لو رآه ابن خلدون • لأقر بقصور نظره عما شاهده من حال العصائب وان كان وراء ذلك ما هم عنه غافلون من اكتساب العلوم والفنون • ولزمه ان يعلن بيا ايهـا الناس هـذه السياسة التى عليها تعولون • لان ما اعترته وان كان ركنا عظيما • واغتنامه غنما كريما • غير ان منافعه قاصرة على ذوى الملك واتباعه • لا يفيد معرفـة اكتساب خير الامة على العموم وما تتراجع به لعز نخوتها وارتفاعه ، سيما مع خروج الامر من جنس الى جنس • وتطاول ذى اليد بما يتمنى معه مضاجعـة الرمس • مع الجهل بلغاته وعوائده • الموجب للنفرة والتباعد ولو عن فوائده • فمن اين لى بالافصاح عن هاته المنافع • او كيف لى ان ادعى فيها بالمقارع ؟ او كيف اطيق ملاجة (9) الاجانب • بالزام الدخول تحت ما لنا من الحكم الصائب • ودفع احتجاجاتهم عن ذلك بما تذعن لادلته ذوو المناقب ؟ » •

---

(8) ابن قيم الجوزية : انظر اعلاه ص .

(9) الملاجة : من لاج العدو : تمادى معه فى الخصومة .

او لو اطلع عليه الطرطوشي (IO) بعد انجاز سياسات ملوكه. لخجل من دبيبه بهذا النهج وسلوكه . اذ قصاراه الاعلام بما يلزم الملك من الفخامة . وبعض حكم ترشده الى الاستقامة . / بيد انه يتهلل وجهه سرورا . وينـال حظـا موفورا . بموافقته في الارشاد . الى ما يجب علمه لابناء الملوك والوزراء من العلوم التي عليها الاعتماد .

[13]

او لو اساغ الاطلاع عليه الامكان ، الى الامبراطور شارلمـان (II) . فاتـح باب التمدن بتلك الممالك والاوطان . لاتخذه هجيراه في صباحه ومسائه . وكفاه حمل عبء تلك الجماعات وعنائه .

وعلى الجملة فقد اعجزني وصفه وان اطنبت مقالي . وما عسى ان يقال في الجواهر واللآلي ؟ واوقعني في حيرة اوجبت لي العجز عن تعداد نعمه .

وباى فائدة ابتدى من مناقب كرمه؟ ابفتح بصائر اهل الاسلام. بعلم الاسباب الباعثة على تقلب العز في الانام ؟ ام بانهاض حمية اهل السيـاسة والعلمـاء لاقتناص شوارد النعمى . وارجاع سطوة الملة العظمى ؟ ام بنشر فضائل هذا الدين العظيم. لدى الامم الاوروبية التائهة في مجال التمدن المدعية لها وجوب التقديم ، حتى تخضع لحكمه وحسن نظم العدل في اراداته . وتندفع اوهام الامم الشاسعة عن الاذعان لكمالاته ؟ الى غير ذلـك مما لا اطيـق احصـاءه . وارجو من الله انجازه وابقاءه .

فلعمري انها لحيرة توجب التعجيز . ولا يفي ببيانها البليغ بمقاله المطنب فضلا عن الوجيـز .

والذي اراه الآن واجبا . ومن نحاه كان صائبا . ان اشكر اياديك بقـدر الاستطاعة . واعترف انك من ماصدقات قول الصـادق البالـغ النهـاية في الاشاعة . « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق الى قيام الساعة » (I2) .

(IO) الطرطوشي (ابن أبي رندقة) IO59 ــ II26) ولد بطرطوشة الاندلس وتوفي بالاسكندرية فقيه سرقسطة زار المشرق واقام به من مؤلفاته : **الحوادث والبدع و سراج الملوك** .

(II) شرلمان : انظر عنه اعلاه : تعليـق (26) .

(I2) حديث نبوي شريف .

لاغرو وانت المتحلى بكمال الدراية فى مهمات المسالك • فرحم الله الامام النقادة ابن مالك• حيث يقول فى طالعة **تسهيله** (13)• اعلاما بما للقادر المختار من العناية بتكريم العبد وتفضيله : « واذا كانت العلوم منحا إلهية • ومواهب اختصاصية • فغير / مستبعد ان يدخر لبعض المتاخرين • ما عسر على كثير من المتقدمين » •

[14]

فنرجو الله ان يبقيك ذخرا • فما لك فى البرية من نظير •

كتبه المحب الداعى • المعظم لقدركم المراعى

محمد بيرم

فى 14 المحرم الحرام سنة 1285/7 ماى 1868•

---

(13) ابن مالك (600 ـ 672 / 1203 ـ 1274) أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله ابن مالك الطائى الجيانى ، ولد بجيان ومات بدمشق . نحوى اندلسى . صاحب ارجوزة : **الالفية و تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** فى النحو ، انظر **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ، III ، 885 ـ 886 .

6 ـ العــربــى زروق

ومنها ما لنخبة اولى النهى والالباب • المكتسى من حلل الشـرف والعلـم بابهى جلباب • ذى الهمة العليا • والنفس الابية الراغبة فى العليا • الكاهية بالمجلس البلدى • ومن لآرائه يرجع المعاند وبها يقتدى • ابى عبد الله سيدى **محمد العربى زروق** • (1) لا زالت نفسه الى المعالى تتوق • ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم •

فخر الوزراء النقاد ، وعمدة الساعين الى سبل السداد، محرز ادوات السيادة• والجارى الى الغايات فى ميادين المجادة • الهمام المفخم أمير الأمـراء سيـدى **خير الدين** ادام الله مجده • ووالى عليه نعمه ورفده • آمين •

اما بعد اهداء سلام نشره عبيق • وملبسه من حلل البهاء انيق • فقد بلغنا تاليفكم الموسوم **باقوم المسالك • فى معرفة احوال الممالك** • وتصفحنا ما تضمنه من الابواب • الحاملة لمن اطلع عليها على غاية الاستحسان والاعجاب •

فانه قد حوى من تفاصيل احوال الدول • وانباء ما حصل للمشاهد منها الآن وما كانت عليه الاول • ما تقربه عين الحـريص على التمسـك باسبـاب العمران • وتنبعث به الهمم على سلوك الطرق الموصلة اليه دون توان • على وجه لا ياباه الشرع العزيز بل يقتضيه • ويرغب فى استجلابه ويحض عليه•

[15] وبالجملة فانه كتاب يتغالى فى اقتنائه / المحب للوطن • ويقع من النفوس الابية الموقع الحسن • ويشهد لمؤلفه بانه ممن سلك طرق الاجادة • وبالغ لاهل وطنه فى النصح والافادة • والله جل جلاله الكفيل بمكافاته • والمتولى رعيه بعين عنايته فى جميع حالاته •

والسلام من معظم قدركم
محمد العربى زروق •
وكتب فى المحرم الحرام
سنة 1285/افريل ــ ماى 1868 •

---

(1) محمد العربى زروق لا ينتمى بنسب الى سميه الجنرال احمد زروق ، ينحدر من عائلة تونسية اصلها من وسط الايالة التونسية . كان رئيسـا للمجلس البلـدى واول مديـر للمعهـد الصادقى الذى أسس سنة 1875 . تزوج بنتين من بنات الجنرال خير الدين ، انظر ڤانياج ، **اصول نشأة الحماية** ، 481 ــ 482 .

7 ـ محمد الصادق ثابت

ومنها ما لخلاصة اهل الفضل ٠ وصدر ذوى الوجاهة والنبل ٠ العالم الاديب ٠ من لا يخالف في كماله لبيب ٠ كيف لا وهو الآخذ من كل فن أوفر نصيب ٠ مع صدق وثبات تضمنهما اسمه ٠ فتطابق الموسوم ووسمه ٠ الشيخ ابو عبد الله سيدى **محمد الصادق ثابت** (1) ٠ افحم الله به كل عدو كابت ٠ ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم ٠

ركن المفاخر دون نزاع ٠ وطود السياسة الآتى من فنونها بعجيب الاختراع٠ الجامع لما افترق من اشتات المعارف ٠ والرافل من حلل السيادة في اجمل المطارف ٠ الهمام المفخم امير الامراء سيدى **خير الدين** ادام الله اجلاله ٠ وحرس بعين عنايته كماله ٠ آمين ٠

اما بعد اهداء سلام يحمله قرطاس الاحترام ٠ وتؤديه نائبة عن المشافهة ألسنة الاقلام ٠ فقد وفانا تاليفكم المسمى **بأقوم المسالك ، في معرفة أحوال الممالك** ٠ واجلنا الافكار فى اقتناء فوائده ٠ فراقنا ما احتوى عليه من عقود در السياسة المعجب للنفوس بفرائده٠ورأيناه الكفيل باستجماع شتاتها٠والموصل لطالبها بما تضمنه الى غاياتها ٠ والباعث لمحب الوطن على ما به ينمو عمرانه ٠ وتبدو به في جميع ساحاته مورقة افنانه على طريق لا ينافى الشرع العزيز ٠ ولا يخرج عن خالص / ذهبه الابريز ٠ [16]

فلله در مؤلفه البارع المجيد ٠ المحرض لابناء وطنه على استعمال كل سبب مفيد ٠ والباذل لهم من النصح ما يستحق عليه جميل الثناء٠ ويصلون بالتعلق به بحول الله تعالى الى غاية المنى ٠ والله سبحانه ولى مكافاته على ما بذل من جهده ٠ ومبلغه من الانتفاع به تمام قصده ٠

والسلام من معظم قدركم
محمد الصادق ثابت
عفا الله عنه آمين ٠
وكتب في المحرم
سنة 1285/أفريل ـ ماى 1868 ٠

---

(1) محمد الصادق ثابت ينحدر من عائلة ثابت وهى عائلة تونسية كان كسبها من تجارة الشاشية انظر : **اتحاف** ، VIII ، 86 .

8 ـ احمــد زروق

ومنها ما للاديب الذى هو على الخيــر نــاشى • وفى رضى اللــه ومحبتــه لا يحاشى • فرع النبعة الحسينية • ذات الاخلاق المرضية الزكية • من يؤمل ببركتهم كل خير • ويرجى بوجودهم كشف كل ضير • ابى العباس سيــدى **احمد زروق** (I) ابن المتقدم لازال فى مدارج الخير يترقى • ومن ساحات السوء يتوقــى • ونصــه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم •

الطود الكبير • والفاضل الشهير • عمدة اهل السياسة• وحاوى قصبات السبق فى ميدان الرئاسة • الهمام المفخم امير الامراء سيدى **خير الدين** حرس الله كماله • ووالى عليه نعمه وافضاله • • آمين •

اما بعد اهداء سلام محمول على كاهل المبرة • منوط بالبشر والمسرة ، فقد اتصل بنا تاليفكم المعنون **باقوم المسالك ، فى معرفة احوال الممالك** • وسرحنا الافكار فى رياض سطوره• فارتاحت لما تضمنه غريب مسطوره• ورأته الغاية فى بابه • الموصل الى تمام التمدن لمن اراد العمل باسبابه • قد حــوى على ايجازه الكثير من مهماته • وابرزها فى قالب يعين على الاحتواء عليه من جميع جهاته • مبينا ما حض الشرع العزيز على طلابه • وما حذر منه وامر باجتنابه• فالاول / لجلب المصالح الفخيمة • والثانى للكف عــن الوقــوع فى المفاســد الوخيمة • [17]

فمن امعن النظر فى اصوله • وتصفح ما تكفل بشرحها فى خلال فصوله • شهد لمؤلفه بامتداد الباع • وسعة الاطلاع • وبانه قد بالغ فى اتقانه وتهذيبه • واجاد فى ترتيبه وتبويبه • وان كان هذا منه ــ رعاه الله ــ غير مجهــــول • فانه ممن حصل له على مراتب السياسة الحصول •

والله سبحانه يجازيه على صنيعه الجميل • ويوالى عليه نعمه فى كل غداة واصيل •

والسلام من مقبل ايديكم ابنكم
احمــد
وكتب فى المحرم الحرام
سنة 1285/أفريل ــ ماى 1868 •

(I) أحمد زروق : ابن العربى زروق المذكور اعلاه .

9 ـ العروسى بن عياد

ومنها ما لمن غذى بلبان الذكاء والادب ٠ وحاز من السبق فى ميادين السياسة القصب ٠ القاطف من رياض المعارف ما فيه النفع وعليه الاعتماد ٠ ابى راشد الشيخ سيدى **يونس العروسى بن عياد** (1) ٠ ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم ٠

اما بعد فقد ظفرت بنسخة مما نجز طبعه من تاليف جناب الهمام المفخم امير الامراء سيدى **خير الدين** المسمى **بأقوم المسالك ، فى معرفة أحوال الممالك** ٠

وقد كنت سمعت لما شرع فى طبعه انه تاليف مفيد وموضوعه اغراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم الخ كما ذكر المؤلف نفسه ٠

ومن ذلك الوقت صرت متشوفا للاطلاع عليه حتى حصلت على النسخة المذكورة فبادرت بالتامل فيها مبادرة المشتاق لسماع ما فيه من حسن سير ونظام صدر الاسلام ٠

وبعد ما تأملت فى جميع ما إحتوى عليه من المطالب والفصول ناسب ان نذكر ما فيه من الفوائد حيث شرح صدرى وبين فيه اسباب تاخرنا/فى جميع [18] المعارف ٠ كما تعرض لجميع الاسباب التى قدمت غيرنا وعمت المعارف بها عندهم ٠

فيظهر للعبد الحقير انه اشتمل على فوائد ثلاث :

الفائدة الاولى : فى بيان اصول الادارة التى هى اساس العمران بأدلة واضحة يقتضيها الوقت والحال ولم ينكرها الا المتجاهل ٠

الفائدة الثانية : فى بيان ما كنا عليه من الشوكة والانتظام والتمدن والعمران وما نحن عليه اليوم فعسى ان تنهض همتنا حتى نقتدى بسير الاولين فى اخذ اسباب العمران واسترجاع ما اخذ من ايدينا ٠

---

(1) يونس العروسى بن عياد من اعيان الكتبة بالدواوين التونسية فى مدة وزارة الجنرال خير (1873 ـ 1877) ٠

الفائدة الثالثة : وهو الكتاب الاول حيث ادرج فيه اخبار الدول الاوروبية وبين ما هم عليه الآنمن الشوكةوالعمران بسببالتنظيم الملكى الذى هو اساس ذلك حتى يظهر لنا بالعيان والبيان ان التنظيم الملكى يعمر ما كان قفرا والاهمال يجحف بالعمران • واذا تاملت فى مواقع ممالكنا وممالكهم في الكرة علمت ان ارضنا خصبة بالخليقة وارضهم صماء واخصبت بالجهد والعمل بعد ما كانت قفرا وقت عنفوان صدر الاسلام •

ولما جاء هذا التاليف بالفوائد المناسبة للوقت والحال ويرجى منه عموم نفعه وجب علينا ان نعترف بالجميل لمؤلفه حيث بذل فيه الجهد والفكر وهو احسن ما ألف فى السياسة بكلام وجيز يؤثر فى الانسان ولا شك ان اخواننا المسلمين سيما العلماء والعارفين باحوال السياسة سيقع عندهم موقع الاستحسان وما اصدق قول المؤلف فى الخطبة سيما قوله (لا يتهيا لنا ان نميز ما يليق بنا على قاعدة محكمة البناء الا بمعرفة احوال من ليس من حزبنا لاسيما من حف بنا وحل بقربنا) وقوله (أفيحسن من اساة الامة الجهل بامراضها) ثم ما فى المقدمة جميعا •

وان شاء الله سيحصل به ما قصد فى الحال او المآل • وجزى الله عبدا ابدى النصيحة لاخوانه وصرح بها بالكتابة والفعل وان ما / ذكرناه من الاستحسان خالص من شائبة المبالغة عندى • والله شهيد على « أن هو الا ذكر » ما وجدته فى نفسى • [19]

ومنتهى املنا ان يصلح الله خللنا وينور قلوبنا باتباع اسباب العمران • آمـــين •

وكتبه المحب المخلص

العروسى بن عيـاد

فى غرة المحرم

سنة 1285/24 أفريل 1868 •

10 ـ مصطفى رضوان

ومنها ما حرره النحرير اللوذعي ، الجهبذ اليلمعي ، المحرز في ميادين البراعه ، قصبات سبق منها اشتق يراعه ، الفقيه النعماني ، والاصولي البياني ، مجمع حديث التهذيب وقديم العرفان ، ابو النخبة الشيخ سيدي **مصطفى رضوان** (1) أحد المدرسين بجامع الزيتونة ، لازال أمثاله يبث فنون المعارف يعمرونه ، ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم ،

حيا الله الجناب الذي محض للامة الاسلامية النصيحة ، ودافع عن حوزتها بالحجج القاطعة والبراهين الصحيحة ، وازال عنها الشبه بالاقوال المعتمدة والنصوص الصريحة ، ونهج لها سياسة هي من تبعة الله وتبعة العباد مريحة ، وارشدها لجمع الآراء لتكون في عداد الجموع الصحيحة ، وتاجر الله بهذا الصنع لتكون له التجارة الربيحة ، جناب الهمام المفخم العمدة المكين عين انسان الكمال وانسان العين ، امير الامراء سيدي **خير الدين** ، لا زال آخذا راية الاحسان باليمين ؛ طائر الصيت مع الطير الميامين ،

اما بعد فقد وصلتني ــ واصل الله اسباب نجاحك ، وأسمع القلوب داعي فلاحك ــ ، الشذرة التي نجز طبعها من كتاب **أقوم المسالك ، في معرفة احوال الممالك** ، الذي خاطركم المصيب أبو عذره (2) ، ومطلع هلاله وبدره ، فأردت ان يصدقكم مقالي فيه سن بكره ، ويؤدي لكم عني واجب شكره ،

---

(1) مصطفى رضوان : (1826 ــ 1905) من سلائل الجنود العثمانيين تعلم بالزيتونة كان من خاصة محمد خزندار وسافر معه كاتبا الى تركيا مدة حرب القرم . سمي مدرسا سنة 1868 واتصل بالوزير خير الدين وكان من اعضاده في وزارته .

انظر : محمد الفاضل ابن عاشور : **تراجم الاعلام** ، تونس 1970 ، 131 ــ 158 .

(2) بالأصل أبو عذره ، والأصح أبو عذرة وهي البكارة أي كون المرأة عذراء .

[20] وما انا ممن / يلز مع البزل فى قرن (3)٠ او يضرب من الاجادة بعطن (4)٠ لولا مكافاة المنن ٠ التي قلدتها لسائر ابناء الوطن ٠ فتربصت ريثما تفتق عن الزهر كمائمه ٠ ثم وقفت به وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه ٠ اغوص على مكنونه ٠ وأستنبط معينه من عيونه ٠ وأستثير مخبآته من غضونه ٠ واقتطف دانى قطوفه من غصونه ٠

[الوافـــر]

تكاثـرت الظبـــاء عـلى زيـــاد فما يدرى زيـاد مـا يصيـد

فلله انت فى ايراده واصداره٠ وعبره واعتباره٠ فقد عبرت **ديوان العبر** ٠ ونسخت منه حكم **المبتدا والخبر** (5) ٠ اعتبارا بتبدل العصور ٠ ونعيا على تلك السياسة بالقصور ٠

[الوافـــر]

فكان وقــد افاد بـك الامـــانى كمن اهدى الشفـاء الى العليـل

ثم انا اذا اعدنا فيه النظر ٠ وجدناه باكورة فن مبتكر ٠ عزيزا منحاه ٠ على قطب المصالح تدور رحاه ٠ اذ هو وان اختلفت اصــوله ٠ وتنوعت أجنـاسه وفصوله ٠ يرجع الى اصلين حفظ العدل بسياج الاحتساب والمشورة ٠ وتخريج الاحكام السياسية على قاعدتى جلب المصلحة ودفع الضرورة ٠ بتنزيل رجال ينظرون بعينين ٠ ويلاحظون فى آن واحد مصلحتى الدنيا والدين ٠

ولعمرى إن هذا لمنزع غريب ٠ وحق ما فيه ريب ٠ اذ كان هذا المقـدار ٠ مما يشهد له الشرع بالاعتبار ٠ وقواعده المدونة هى المحور لهذا المدار ٠

---

(3) يلز مع البزل فى قرن : لز الشيء : شده والصقه به .
البـزل : الشـدة .
قرن : حبل يقرن به البعيران .
معنى الجملة : يغامر بنفسه فى الاخطار .

(4) عطن : مبرك الغنم والعبير ومربضهما حول الماء .

(5) اشارة الى عنوان كتاب ابن خلدون في التاريخ .

نعم ان تحقق المناط هو معترك الانظار ٠ ولقد كشفت عنه اللبس بما هو اجلى من الشمس فى رابعة النهار ٠ وخليق لهذا الموضوع ان يكون علما مدونا وباسمكم معنونا ٠ تؤصل اصوله وتستخرج فروعه ٠ حتى تتحقق غـايته ، ويعرف موضوعه ٠ ويكون دستور العمل فى سياسة الدول ٠ فشان العلوم ان تكمل بتلاحق الافكار وتعاقب الانظار ٠ وتعاهد غرسها الى زمن الاثمار ٠

[الكامل]

[21] / كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا   لـم يهـدمـوا لبنـائهم أسسا

ولنعد لذكر الكتاب ٠ ونشر حديثه المستطاب ٠ فنقول :

انه عمل من طب لمن حب ٠ ووضع للهناء موضع النقب ٠ هذا مجمل القول فيه ٠ ورضى كرام العشيرة يكفيه ، حيث اجازته الملوك الكرام ٠ ونسجت على منواله السلاطين العظام ٠ وقرظته حملة السيوف والاقلام ٠ وشهدت بصحة براهينه حوادث الايام ٠

[الوافـــر]

وليس يصح فى الاذهـــان شيء   متى احتـاج النهار الى دليـــل

وحيث عقلنا عن المؤلف قوله ٠ وعرفنا ما يدندن حوله ٠ يسرنا ان يتمثل مجيبا ٠ لمن تشكك من اهل اوربا ٠ بما قيل :

[الطويل]

واعلنت نصحى بين قومى ولم أقل   الا ليت قومى يفقهـون حـديثى

ليعلموا ان النور الذى اقتبسوا منه ٠ والجنس الذى اخذوا عنـه ٠ لـم ينطف مصباحه ٠ ولا نسخ بالظلام صباحه ٠ وستندمل بلطف الله جراحه ٠ وتهب بعد السكون رياحه ٠

والله يحقق الامل ٠ ويصلح القول والعمل ٠ وهـو المسـؤول ان ينجح مساعيكم ٠ ويوفر فى الخير دواعيكم ٠

والسلام ممن نبه قصوره على قدره ٠
وأخلص لكم فى سره وجهره :

مصطفى رضـوان

وكتب فى صفر الخير
سنة 1285/ماى ـ جوان 1868 ٠

11 ـ احمد الورتتاني

ومنها ما نفث به قلم الفاضل العمدة • ومن اعلنت المروءة بان لا عطر لها بعده • اذ لا أرسخ على صراط العلوم من قدم ملكته • ولا اثبت على حروف التورع من سكونه وحركته • مع صفاء سريره وحسن عهد وسيره • حتى استوى في مودته القاصي والداني • فلا يذكر في ندى الا وكل لعنان الثناء اليه ثاني • الا وهو الشيخ المدرس ابو العباس سيدى **احمد الورتتاني** (1) ، حرس الله مجده • ونفعنا بما اودع عنده • ونصه :

[22] / الحمد لله الذى جعل العلوم مناهل موروده • يردها عللا (2) بعد نهل كل ذى نفس زكية مودوده • وخص كل نوع منها بطائفة من الحملة معدوده ، تؤديه لمن بعدها عن الطائفة المفقوده • والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صاحب الشريعة المحموده • التى هى ام الشرائع بما حوته من عظيم منافع الدنيا والاخرى الآجلة والمنقوده • وعلى آله واصحابه الذين شادوها ووقفوا عند حدودها المحدوده • صلاة وسلاما دائمين نجدهما من الاعمال المقبولة لا المردوده •

وبعد فان من اجل العلوم • لا سيما فى هذا الوقت الصعب المذموم • علم السياسة الشرعية • المنوط بقواعد الشريعة الزكية واصولها المرعية • وذلك لما آل اليه امر هذا الزمان • من اختصاص شؤون الحروب بالافكار والاذهان• حتى ان ما يرى من مخترع الآلات • انما المقصد به ارهاب الضد فهو اذا ضرب من السياسات • فلذلك لا يرى مستعملا فيما وضع له الا قليلا • بتقصير احد

---

(1) احمد الورتتاني (م 1885) أصله من قبيلة ورتتان بالكاف من أخص تلاميذ الشيخ سالم بوحاجب أشرف على تربية بنات خزندار ومن بينهن تلك التى تزوجها خير الدين . كان مدرسا من الطبقة الاولى سنة 1860 وصار العضد الايمن لبيرم الخامس مدة وزارة خير الدين الكبرى ولما هاجر هذا الاخير من تونس خلفه على رأس الاوقاف و الرائد والمطبعة الرسمية سنة 1880 الى 1883 . عزلته سلطة الحماية عن هذه المناصب سنة 1885 وهى سنة وفاته انظر : محمد الفاضل ابن عاشور : **تراجم الاعلام** ، تونس 1970 ـ 61 ـ 68 .
ـ المنصف الشنوفى : **اطروحتنا** 512 ـ 514 .
ـ والمنصف الشنوفى : **مصادر عن رحلتى الاستاذ الامام محمد عبده الى تونس** ، **حوليات الجامعة التونسية** ، تونس 1966 ، 90 .

(2) عللا : الشرب ثانية او تباعا .

الضدين فى سياسته فيوجد على نفسه سبيلا • وان من احفل ما صنف فيه ، ورمقه بعين الرضى الخامل والنبيه • **كتاب اقوم المسالك فى معرفة احوال الممالك** • تاليف جناب فخر الوزراء ذى الراى الرصين • امير الامراء سيدى **خير الدين** •

فانه كتاب ابان فيه مؤلفه عن باع فى السياسة مديد • ورأى بذ به جمع الآراء وهو فريد • حيث نهج فيه لسياسة الوقت الصعبة طريقا ، يامن السالك به من المخاوف وان لم يصحب رفيقا • وذلك بمراعاة حال الوقت من غير خروج عن حدود الشريعة • وما تقتضيه اصولها ولا تنافيه فروعها البديعة • وشرح فيه حال الاجنبى وما له من التراتيب والسير • التى انتجت لـه السطـوة المشاهدة والظفر • حتى ان الناظر فيه • المتامل فيما يحويه • كانه يشاهد على [23] / التفصيل حال الغير • بدون ضرب فى الارض ولا سير • كل ذلك ليتنبه من من كان من اولى الابصار باحوال الوقت جاهلا • ويتبصر فى الطرق التى بها على التدريج نبه من كان خاملا • عسى ان تجتمع للاسلام كلمته • فتعود اليه شوكته وسطوته •

هذا الى ما ضمنه من تعريف الاجانب بحال شريعتنا • المبرأة مما كانـوا ينسبونه اليها من سوء سيرتنا • ولاشك ان هذا الاعتقاد ما دام مركـوزا فى اذهانهم • يحملهم على اهتضامها والمبالغة فى صد من يريد الدخول فيها من اهل اديانهم •

وعلى الجملة فهو كتاب يحق لمؤلفه ان ينشد • من غير ان ينكر عليه منكر او يجحد :

[الطويـــل]

وانـى وان كنت الاخيـر زمانـه   لآت بما لم تستطعه الاوائـل (3)

فلقد تجافى فيه كل التجافى عن بنيات الطريق • وتلطف كل التلطف فى

---

(3) البيت للمعرى .

التفصى عن كل حزن (4) ومضيق·فما رآه منصف الا ارتضاه واجازه·ووصفه بالرفل فى حلل الاجادة والوجازه · فلذا كانت كتائب التقاريظ تترا عليه عشيا وبكورا · تذيع من نشر الثناء عليه فى الآفاق مسكا وكافورا ·

والمامول من كرم الله بصدق نية المؤلف· ان يجمع به شتيت آراء الاسلام على طريقة نافعة ويؤلف ·

هذا وكأنى بمن يجهل احوال الوقت وما يدريها · يقول ما لنا وللبحث عن احوال الاجانب والتداخل فيها ؟

فهذا ان اطلع على ما فى هذا الكتاب ورواه · حتى فهم ما تضمنه منطوقه وفحواه · فليس الكلام معه بعد ذلك صوابا · بل هو عند العقلاء مما يعد عذابا · وان لم يطلع عليه · فجوابه المقنع المسدى اليه · قول أبى الطيب للائم المونب ·

[البسيط]

لا يعرف الشوق الا من يكابده	ولا الصبابة الا من يعانيها

[24] ثم ان الداعى لى ، ايها الهمام المفضال · مع انى لست من فرسان / ولا رجال هذا المجال · الى رقم هاته الاحرف القليلة · الصادرة عن فتور الهمة الكليلة · تكثير سواد (5) الراغبين فيه ولو بمثل العبد الفقير · والا فلست ممن يعد فى العير ولا فى النفير · والله يبقيكم · ومن عامة الاسواء يقيكم ·

وكتبه عبد ودكم · الناهل من صافى وردكم :

احمد الورتتانى

بلغه الله من الخير الامانى

فى 1 صفر الخير سنة 1285 / 24 ماى 1868 ·

---

(4) حزن : الارض الغليظة .

(5) السواد : العامة او الاغلبية من الناس .

12 ـ حمــــودة بـــوسن

ومنها ما جادت به قريحة القدرة البارع ٠ ومن بيده زمام الكتابة بلا منازع ٠ مطلع شموس المعارف ٠ وملمع بروق الاسرار واللطائف ٠ ذى القلم البليغ ٠ والفكر الذى عن مهيع الحق لا يزيغ ٠ المرتجى فضل ذى الجود والمنن ٠ جناب الشيخ الابر سيدى الحاج **حمودة بوسن** (1) ٠ احــد اعيــان كتبــة الــدولة التونسيه ٠ لا زالت برعاية محميه ٠ ونصه :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله ٠

ايها الهمام الفاضل ٠ والنحرير الكامل ٠ ذو اللب القوى المتين ٠ اميــــر الامراء سيدى **خير الدين** ٠ حرس الله كماله ٠ وانمى الى شرف البدر هلاله ٠ آمين ٠

اما بعد اشرف سلام ٠ مود بالوفاء حقوق ذلك المقام ٠ فان تاليفكم البديع المسمى **باقوم المسالك ، فى معرفة احوال الممالك** ٠ قد ورد على ورود المحبوب على العاشق الولهان، او الزلال العذب على كبد الظمآن ٠ يعبق منه شذا الوداد ٠ وحسن الاعتقاد فتمتعت بمنظره ٠ وابتهجت بمعناه ومخبره ٠ وتحققت ـ ايها الفاضل ـ انك قد اطلعته فى سماء المعارف نيرا أعظما ٠ كسفت به من التآليف بدورا وانجما ٠ وسبقت به فى الفضل اجيالا وامما ٠ وخلدته لسالكى سبل العمران منهلا عذبا وعلما ٠ وأشرقت به آفاق الجهل الحوالك ٠ واوضحت بــه احوال الملك والممالك ٠ وبينت به / الطرق والمسالك ٠ مرشدا للمناجى ومحذرا [25] من المهالك ٠ وفتحت به للنجاح والفلاح قلوبا وابصارا ٠ وجعلت له من البراهين القطعية الشرعية والعقلية جنودا وانصارا ٠ فلايسع احدا من الخلق رده وانكاره ٠ كيف وقد أسس على هذين القطبين ابتكاره ٠ وكان فى فلك العدل والعمران مركزه ومداره ٠ وفى افئدة ذوى الالباب وارواحهم مسكنه وقراره ٠

---

(1) حمودة بوسن (م 1869) من اعيان الكتبة فى عصره .
تغلب عليه السذاجة الاسلامية بعيد عن الحضارة المسماة فى عصرنا تمدنا على حد تعبير ابن ابى الضيــاف .
انظر اتحـاف ، VIII ، 173 ـ 174 .

وحينئذ فمن كان من نوع بنى آدم سالكا هذا المنهج فهو فى الدنيا فى حصن منيع • وعيش رغد وغيث مريع • رائق فى دنياه • محصل على غاية قصده منها ومناه • واما حاله فى اخراه • فهو تابع لسيرته وسريرته مع الله •

وحسبنا ـ سيدى ـ فى شكر هذه المكرمة لجنابكم الرفيع • ان نبتهل الى الله سبحانه فى أن يطيل حياتكم فى عز منيع • وقدر شامخ رفيع • وأن يديم بفضله حلولكم فى ودائعه التى لا تخيب ولا تضيع • آمين •

وكتبه المخلص فى حبكم بشهادة قلبكم •

الفقير الى ربه : الحاج

حمـودة بوسن

فى أوائل صفر الخير سنة 1285 /

أواخر ماى 1868 •

13 ـ أحمـــد الأصـــرم

ومنها ما للماجد الاريب • الانجب الاديب • سابى ابكار المعانى بسيوف اقلامه • وساحر الالباب بلطائف موجز كلامه • الفقيه النبيه • الخلاصة النزيه • ذى الراى الارشد • والصنع الاحمد • ابى العباس الشيخ سيدى **أحمد الأصرم** (1) • لا زال بكل خير يجازى ويكرم • ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم •

المقام الذى سلك مسالك التحقيق • وشرح بآرائه السديدة غوامض أحوال الممالك بوجه طليق • وازال عنها براقعها • وساس بنباهته سوابقها • ورصع سماء العدل بكواكب انصافه • واطلع بدر نصيحته / فى أفق هاته الامة [26] المشرقة ليجمع ما تبدد من مصالح العمران واسبابه • لا زال بحول الله من الآمنين • الهمام المفخم أمير الامراء سيدى **خير الدين** • بلغه الله ما يتمناه فى الدارين •

اما بعد سلام انور من اجراء العدل على المظلوم • واسر من سرور الظافر بعد الاياس بما يروم • تعمكم نفحاته • ورحمة الله وبركاته • فقد وصلنى كتابكم النفيس • بل نصائحكم المؤسسة على السياسة باحسن تاسيس • المسمى **بأقوم المسالك ، فى معرفة أحوال الممالك** •

فاجلت جواد فكرى فى ميدان سطوره • والتقطت من بحوره نفائس منثوره • فوجدته محتويا على علوم جمه • وتقارير معقولة ومنقولة مهمه • لو تليت على الحيوانات • لانقادت لبرهان تلك الآيات •

ولقد صادفت فى مرض هذا الزمان محل الالم • وحزت السبق فيما ابديته على ذوى الهمم • وفيه شرحتم احوال الغير باحسن تقرير • يعجز عن الاطلاع عليه الحاذق البصير • وتوجت هذا القطر بصنيعكم هذا بين الامم • لا زالت بالثناء الجميل على رياض محاسنكم تهطل الديم •

---

(1) احمد الاصرم ينتمى الى عائلة الاصرم وقد زودت تونس باعيان الكتاب وهو حفيد الكاتب محمد الاصرم (م 1861) انظر **اتحاف** ، VIII، 115 ـ 117 .

هذا ونرجو من الكريم الجواد ان يجعل صلاح هاته الامة بنصيحتكم فى الازدياد ٠ وربنا يبقيكم ٠ ومن السوء يقيكم ٠ ودمتم كما رمتم ٠

والسلام من ابنكم

احمد بن محمد الأصرم

عفى عنه آمين ٠

وكتب فى 5 صفر الخير سنة 1285 /

28 ماى 1868 ٠

14 ـ عـلى الطـويبـي

ومنها ما شنف به الآذان • وارشف من كؤوسه الاذهان • حجة فضل القلم على السيف • والقاطع بالحجج دابر الانحراف والحيف • من عرى عهده لا تحل • وفكاهة مجلسه لا تمل • كيف لا وله فى رياض الادب المنهل العذيبى • جناب أبى الحسن الشيخ سيدى **على الطويبى** (I) • قاضى جبل المنار وامامه • لا زال مفاض فضل الله وانعامه • ونصه :

[27] / الحمد لله المتفضل على جميع العباد • بما شاء واراد • وما هو نافع لهـم يوم المعاد • الذى جعل العقل اجل خصال بنى آدم • وبه يتوصل الى الكمالات التى لا تعارض ولا تصادم • كالسياسات فى المعاملات والصناعـات والعلـوم النافعة • النافية للجهل المدافعة • التى هى زينة الانسان • وتمييزه عن سائر الحيوان • وانفراده بالعز والسؤدد فى كل وقت واوان • بحيث لو صـور العلم لأضاء معه الليل الداج • ولو صور الجهل لأظلم معه النير الاعظم ونور اضوإ سراج • والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان • الآمر بالعدل والعفو والاحسان وعلى آله واصحابه • السالكين على طريقه ومنهاجه • والمتضافرين على تنوير دينه واذكاء سراجه • القائمين على ساق الجد فى نصيحة الامة • بما يزيحهم عن المهالك المدلهمة ••

وبعد فلما شاع وذاع • وقرع الآذان والاسماع • صيت التاريخ المسمى **باقوم المسالك ، فى معرفة أحوال الممالك** • وتداولته الايدى بالنظر فيه والانتفاع • وعم النفع به فى المحافل ومحال الاجتماع • واجمعت العقلاء على حسنه وابداعه وجلالته فى الحكم واختراعه • وسلمه كل عالم نبيل • وانقاد له بالتقريـر والتفهيم كل جاهل ذليل • واثنوا عليه الثناء الجميل • وقرظـوه التقاريـظ الحسان • ومدحوه بالبنان واللسان • وانه لجدير بذلك • لسلوكه أقوم المسالك • وعلمت به مزية منافع الاقلام • المشاهدة فى كل زمان على الدوام • وانها لأوضح من الشمس فى رابعة النهار • وهى اقتناص الدرر النفيسة من لجج الافكار • وتخليدها فى أصونة الدفاتر للعظة والانتفاع والاعتبار • ولولاه ما علم خبر العالم من مبدئه الى منتهاه • ولقد اجاد من قال :

(I) على الطويبى : قاضى جبل المنار (سيدى أبى سعيد) وامامه .

[البسيط]

ان يخدم القلم السيف الذى خضعت — له الرقاب ودانـت خـوفه الامـم

[28] / بذا قضى الله للاقـلام اذ بـريت — ان السيوف لهـا مذ ارهفت خدم

ولآخـر :

[الطويل]

اذا أقسم الأبطال يومـا بسيفهـم — وعدوه مما يجلب المجـد والكـرم

كفى قلم الكتـاب فخـرا ورفعـة — مدى الدهر أن الله أقسم بالقلـم

واقسم الله بالدواة والقلم لكثرة منافعهما ، وعظم فوائدهما ، فان التفاهم بالنطق والبيان ، انما يكون بين انسان وانسان ، واما بالنسبة لمن غاب وبعد ، او من اهل الزمان الآتى فانما يكون بالكتابة ولا بد ، وقد قالوا البيان اثنان ، بيان لسان وبيان بنان ، ومن فضل بيان البنان ، ان ما تثبته الاقلام باق على الايام ، وبيان اللسان تدرسه الاعدام ، وان قوام امور الدين والدنيا بالسيف والقلم ، والسيف تحت القلم ، ولولا القلم ما قام دين ، ولا صلح عيش جميع العـالمين ،

وقد ثبت هذا التاريخ وانشاؤه لصـاحب القلـم الفصيـح ، والتقـرير المحرر الصريح الصحيح البارع الاجل ، والحجة الحافظ لكل نادرة ومثـل ، تاج الزمان واكليله ، والمقصور عليه سياسته وتاصيله ، الجامع من المحاسن ما تكل عن حصرها الاقلام ، ولا يفى بعدها ذوو العقول والافهام ، مع الاخلاق البهية ، والمكارم الجبلية ، فخر الدولة الحسينية ، ونخبة الحضرة التونسية ، المعتمد فى تقرير نصائحه على مالك يوم الدين ، الهمام الافخم أمير الأمـراء سيدى **خير الدين** ، كان الله له واثابه فيما اسسه وعمله ،

فتاقت النفس الى رؤياه ، والنظر فيما حواه ، من الفوائد الرائقة ومعناه ، فسعيت فى تصليحه جهدى ، وان اجعله وظيفتى ووردى ، واتخذه عـدتى وجنـدى ،

فلما ظفرت به بالاهداء من نجباء احبابى ، وممن اصطفيته وانتخبته من اصحـابى ، واتصلـت بـه اتصـال المحـب بمحبـوبه ، والـراغـب

[29] الطـالب / لمرغـوبه ، انكبيـت على النظـر فيـه ، وامنعت فكـرى فيمـا

يحويه • فاذا هو ذلك التاريخ الذى لاتاريخ يحاكيه • ولا تأليف فى حال الوقت يدانيه • وان شئت قلت فيه هو صوان الحكمة او قوانين التربية والتعليم او خلاصة زبدة السياسة والرئاسة بل ومن اى جهة من المعارف قصدته وجدته فيه بحرا زاخرا ، مدد موج معانيه لا ينتهي • ودرر لجه العميقة لا تنفد ولا تنقضى • كيف لا وهو لب اللباب • حكمة وبلاغة يقصر عن الوصول اليها أولو الالباب • مع النصائح الحكمية • المعضودة بادلة الشرعية • والنصوص الاصلية والفرعية • تتوصل الى ادراكها العقول السليمة • والطباع المستقيمة • بيد انها نصيحة كبرى لاهل الاسلام • وفرض استقل بالقيام به وحده دون سائر الانام • وحق على من ثافنه (2) • ووصل الى تحقيق معناه ومراده • ان يبادر بالعمل بما فيه ليعد من ابناء آدم واولاده • وانه لما يجب العمل به على اهل الاسلام • الخاص منهم والعام • اذ بمثله يعمل العاملون • ويتبصر المتبصرون •

وان من لم يقم بواجب ذلك • ولم يسلكه مسلك **أقوم المسالك** • اما لعجز اعتراه • او جهل بسياسة دنياه واخراه • فليكن عمله الابتهال الى الله • بالدعاء لفارس هذا الميدان • ومن له القدم الراسخ فى هذا الشان • ويقل اللهم اطل لنا بقاءه • واجعل فى سماء السعود ارتقاءه • وافسح له يا رب العالمين فى الاجل • وكن له معينا على اثمار هذه النصائح مع بلوغ الامل • واجعل قطرنا هذا سالما ومبرأ بتحريض امامنا وسيدنا المشير دام عزه ونصره (3) • وبوزيره الاكبر (4) ذى الراى الثاقب والتدبير كمل فخره • واعن جميعنا على العمل بما تضمنه هذا الكتاب • وما حوته مقدمته من الفصول والابواب • والى الله المرجع والمآب • ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الوهاب • [30] / والسلام على ذلكم المقام •

كتبه فقير ربه • واسير ذنبه • عبده :
على بن محمد الطويبي
امام جامع جبل المنار وقاضيه
كان الله له • وختم بالخيرات عمله بمنه آمين
فى 18 صفر الخير عام 1285 / 10 جوان 1868 •

(2) ثافن : لازم الشى حتى عرف دخلته .
(3) المشير الثالث الصادق باى (1859 ـ 1882) .
(4) مصطفى خزندار (1837 ـ 1873) .

15 ـ عبـد اللــه الســـودانـي

ومنها ماازان به الطروس . وازال عن وجه السياسة كل عبوس . حتى كان حريا بان يقال فيه لا عطر بعد عروس . الشيخ انفاضل الاجل . نادرة الزمان والمثل . ابو محمد سيدى **عبد الله السوداني** (1) . بلغه الله وسائر المسلمين الامانى . ونصه :

حمدا لمن اعان ذا الهمة والحماسة . على تقرير ما يحصل به العدل وحسن الرئاسة . بانيا على منهج الشريعة اساسه . ومبديا على منصـة لسـانه . عرائس خدر جنانه . وملتزما النصح والتدبيـر . ليستجلب بـه الصـلاح والتيسير . واستند فى ذلك لما قاله ذوو الفضل . المال بالرعية والرعية بالعدل فنسج على هذا المنوال . واعتبر ما يؤول اليه الحال . الا وهو العلم الشهير . الفذ الكامل الذى ليس له نظير . من طابق اسمه مسماه . وكلت العقول فيما اظهره وابداه . الطود الراسخ المتين . حافظ الدولة الحسينية وهو فى نصحها الامين . امير الامراء سيدى **خير الدين** . لا زال خيره يزيد . واسبابه بربه لا تنقطع ولا تبيد .

اما بعد فقد شرفتنى بكتـابك **أقوم المسالك ، فى معرفة احوال الممالك** . فامعنت نظرى فيه فوجدته للرتق فاتقا . وبمقتضى حال الوقت لائقا . جامعا لموجبات العدل والسياسه . اللذين يستضىء بهما العالم نبراسه . اذ السياسة من علم الشريعة محسوبة . وعليها تصرفات الحكام منصوبة . كما قال خامس الخلفاء المشهور (2) « تحدث للناس اقضية بقدر ما احدثوا من الفجور (2) » وقال بعض ائمة الانام . / لا باس بالحيل (3) المتوصل بها لبلوغ المرام . وتؤخذ السياسة والحيل . من كل عارف من جميع الملل . متضمنا ان التفات الامير [31]

---

(1) عبد الله السودانى : لم نعثر له على ترجمة .

(2) عمر بن عبد العزيز : (682 ـ 720) خليفة أموى اشتهر بتقواه .

(3) الحيل الفقهية هى حلول وقتية لجا اليها الفقهاء عندما تعذر عليهم التوفيق بين نظريات الفقه وتطبيقه ـ انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط . 2 ، III ، 528 ـ 530 .

للرعية • يحصل ما تكون به احوال ايالته مرضية • مفصحا عما عليه الدول العظام • وما حصل للمتاخر منهم من القوة بحسن التدبير والاهتمام •

فمن تامل فى كتابك • وما يعطيه صريح خطابك • وجده من الشوائب خالصا • وعلى ما يحصل به قوة الامير والمامور حارصا • دلت عليه النقول • وشهدت بصحة ما تضمنه رواجح العقول • فلله درك من انسان • مهدت مناهج العدل والاحسان • فاغنيت بعد الفقر • وانتجت بعد العقر • فما انت فى هذه الايام الا شمس ضحاها • وقطب رحاها • وبدر تمامها • وغيث غمامها• مدت عليك السعادة رواقها • وشدت بك السياسة نطاقها • وزانت بمآثرك هذه العمالة اعناقها • فما انت الا رجل العالم • وملاذ الجاهل والعالم •

نسال الله ان يجعل ما الفته نافعا • وعلى موضع الادوٓاء واقعا • باسعاد ولى نعمنا المولى المشير (4) • ومن له الحظ الوافر فى التدبير • لا زال عزه المتزايد • محفوظا من كل خادع وحاسد •

ولو بسطت محاسن كتابك • لضاق الطرس عما حواه من نصحك وآدابك• فلقد فقت الاوائل • بما جمعته من شتيت الفضائل • ورحم الله شمس المعارف فى كل النواحى • العارف بربه سيدى **ابراهيم الرياحى** (5) • حيث رد على من قال فى شيخه انه متاخر كيف يفوق المتقدم بمنظومة منها •

[الخفيف]

ان تقل كيف ذاك وهو أخير	هل يفوق المأموم قدر إمام
قلت فاق النبىء وهو أخير	كل ذى رتبة سمت فى الأنام
ليس للقدرة القديمة عجز	وكذا الفضل لم يزل فى انسجام
خل وصف النبىء فهو محال	والسوى جائز بغير ملام

(4) يعنى المشير الثالث الصادق باى .

(5) الرياحى : انظر اعلاه : تعليق (102) .

[32] / وهذا وما اخرنى عن الجواب • الا ضعفى عن ادراك مواقـع الصـواب •
ومعلومكم ان الهدية على قدر مهديها • والا فاى غريبة لديكم ابديها •

وعليكم ازكى السلام من مخلص ودكم •
وحافظ عهدكم •
الداعى لكم بمزيد التهانى :
عبد الله بن محمد السودانى •
الخطبى عامله الله بلطفه الخفى •
فى صفر الخير من عام
1285 / ماى ـ جوان 1868 •

16 ــ محمــد التطــاونــي

ومنها ما نثر منظومه على بساط الآداب • ونظم منثوره عقـودا لجيد هـذا الكتاب • اللوذعي النقاب • ومبدى لطائف المعارف وما على وجهها نقاب • ذو الفكر الثاقب النقاد • ومن لسواه نواد (*) النوادر لا تنقاد • ومن له المعلى من اعشار الكيس واللسن • ابو عبد الله **الشيخ التطاوني** (I) سيدى محمد بـن الحسن احد اعيان كتبة الانشاء • لازال لكل اطروفة ونصح منشا • ونصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبيء بعده •

[الطويــل]

هو العدل يحيى كل ميت من الارض ... الا هكذا فليقض من رام ان يقضى
هو العدل والاحسان توامـه الـذى ... ينـوء بـه عنـد الاقامـة والنهض
واعطاء كل من ذوى الحق حقــه ... الا ان ثا الاحسان وهو الذى يرضى
بذا تعمـر الدنيا وتحسن لا بمــا ... يجود به النسيان من مـائه الفضى
وليس لعمران البـلاد وخصبهــا ... وجر انتصاب الرفع للعيش بالخفض
سوى امل فى الامن ينمو غراسـه ... واعمال بر لا تؤول الى الدحــض
وهـل امـل ام هـل امان وكلنـا ... يغلب حفظ النفس فى الحب والبغض
فياخـذ مـن هـذا لهـذا مرجحـا ... ولا وجه للترجيح غير الهوى المحض
ويجعل ذا مستهترا فى مكـان ذا ... وهـذا الى اخلا المكانين قـد يفضى
خليـلى ان الحـق يعلـو بنـاؤه ... وليس بنـاء الحق يوما بمنقـض
[33] / وفى الاخذ والاعطاء بالحق معقل ... لتامين ذى خوف وبسطة ذى قبض
وما الحق الا فى اتبـاع شريعــة ... مطـهرة جاءت بحكم لها مـرضى
يروح لها المقضى عليــه مسلمـا ... بلا حـرج فى النفس مما به تقضى

---

*) كذا

(I) محمد التطاونى من اعيان كتاب عصره يذكر له ابن ابى الضياف رحلة الفها عن خروج العادل باى على اخيه المشير الثالث الصادق باى **اتحــاف** ، VI ، 97 .

وفى حسن اخذ بالمداراة رغبـــت   وحضت على تهذيبنـا ايمـا حـض
أمـان وايمـان نتيجـة هديهـا   فعض عليها جاهـدا ايمـا عـض
وليس مراد الشرع غيـر استقامـة   يكون عليها الحق فى العالم الارضى
يقول استقم كما امرت وان لواسـ   ـتقاموا لا سقيناهم غير ذى برض
خليـلى ان الاستقامـة منهـج   قويم لحفظ النفس والمال والعـرض
فثابـر عليهـا واعيا **نصـح حـازم**   عليـم بامـرار العـزائم والنقـض
هدانا مـن اقوم المسالـك مسلكـا   لدى السبق يكفى **فىمداهاعناالركض**
كتـاب **لخيـر الديـن** جـاء محررا   اتانا من التحرير بالنفل والفـرض
دعـانـا الى حـريـة عـز نيلهـا   ومن دونها قلب السماء عـلى الارض
ولكن عساها ان تروض صعابهـا   سياسة رحب الصدر ذى ادب غض
خبيـر بادواء الامـور وطبهـا   فلا نكس مهما جس منها على نبـض
فيا فخـر دنيـانـا ويـا **خير ديننا**   ويا ذخر من يمنى من الدهر بالدحض
كتـابك اجنـانى ثمـارا عرضتهـا   باول شعر قد اجدت له عـرضى
وابرزت ما احرزت منهـا جواهـرا   بسلك نظام عقـده غيـر مـرفضى
وحبرتها تحبيـر واع لنصحكـم   ومبصر ما ابـداه بـرقك من ومض
كتاب حوى سـر التوصـل للعـلى   ونبه جفـن الاغترار مـن الغمـض
تقاضانى التقريظ حقا مرتبـا   على لـه لا كالتعامـل بالقـرض
فجدت بهذا النزر من شكر صنعكم   بحقك فانظـره بعين الـذى يغضى
ثنائى عليك انك اليوم اوحـد الـز   مان فدم واسلم من الهضـم والهض
جزاك عـن الاسلام كافـل نصره   وارضاك عنا بالذى لك قد يـرضى

[34] / سيدى انجح الله مساعيك • واخصب بمنه رياض مراعيك • اتحفنى بعض الاعزة من الاخوان بان رفع الى وانا بحال مرض نسخة مما طبع من كتابكم المرسوم **باقوم المسالك ، فى معرفة أحوال الممالك** •

فلما وقفت عيه اكبرته بعد ما كبرت • واستفدت ما به اتعظت واعتبرت• واستعبرت عينى أولا لما ضاع من ذمام الاسلام واهله • ثم انشرح صـدرى

لما تحققته من توجه همتكم لجمع شملهم وشمله • علما بانك من اساة الدين ولذا دعيت بخيره (2) • ومن سوانح دعاته المهتدين الذى بشر بيمن طيره • فالله تعالى يبقيك علما ويجعل قصدك اما• ويتلافى بك من اهل هذه الملة الحنيفية اما • انه ولى ذلك والملى به •

ولما قرأت فى **رائد** (3) الاسبوع الاول من هذه السنة المباركة جملة ما كتبه فضلاء العصر • واعيان المصر • فى تقريظ هذا الكتاب • رايت من ذلك ما يبهر الافكار ويسحر الالباب • وما منهم الا من اتى فى مدحه باللباب • واظهر من نفثات سحره العجب العجاب • وان كانوا يتفاضلون فى مراتب الترجيح عند ادارة الانتخاب • فحدثتنى نفسى ان ادخل فيهم واكون منهم•وان كنت لست باهل لان اجلس بين ايديهم وآخذ عنهم • فاتيت بما اظنه يستجاد • وجعلته لعاتق كتابك كالنجاد (4) • وهى القصيدة المثبتة فى صدر هذا الرقيم•والامل ان سيدى يقبلها بفضله العميم • ويقابلها بما هو اهله من التبجيل والتكريم • ويتصفحها بعين الناقد البصير•ويصفح عما بها من القصور والتقصير• وان لم يرها من مطامح آماله • ولا من صوادح رياض أعماله • فليتخذهـا تميمـة لكتابه وعوذة لكماله •

والسلام الاتم عليـه • مـا حن قلبى اليـه •

كتب آخر المقرظين املاء • واولهم خلوصا وولاء • عبيـد ربـه

محمد بن الحسن التطاونـي

فى 23 صفر الخير سنة 1285/15 جوان 1868 •

---

(2) تورية عن خير الدين .

(3) **الرائد التونسي** : اول جريدة رسمية بتونس صدر بالعربية اولا من 1860 الى 1882 وفيما بعد باللغتين العربية ـ الفرنسية ، انظر **اطروحتنا** المذكورة أعلاه .

(4) النجاد : حمائل السيف .

17 ـ محمـــد الـريـــاحـى

[35] /ومنها رصع به تاج ذا التاليف • المتحلى من مطـارف المعارف بالتلبـد والطريف • سلالة العلم والعمل • وخلاصة المجد النازح عن الامل • فـرع الدوحة المتارجة بطيب ذكرها سائر النواحى • أبو عبد الله الشيخ سيـدى **محمد الرياحى** (1) • احد اعيان كتبة الدولة التونسية • لا زالت محفـوفة بالطاف الله الخفية • ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم •

الجهبذ الذى انتهت اليه الرئاسة • وألقت اليه مقاليدها السياسة • ودعم بناء قواعد العرفان واحكم اساسه • انسان عين اهل المعالى • وواسطة عقدهم الغالى • وقطب فلكهم اتعالى • الهمام الافخـم امير الامراء سيدى **خير الدين** لا زالت العناية لاحظة عزيز جنابه • والسعادة لاثمة لأعتاب ابوابه •

اما بعد سلام تصاحبه غاية الاحترام • ونهاية التعظيم والاكرام • فقد وصل الى ـ أوصل الله اليكم اسباب العلى ، والبسكم رائق الحلى ـ تاليفكم الخطير • العديم النظير • المسمى **باقوم المسالك فى معرفة احوال الممالك** • واطلعـت عليه فاذا هو كتاب تستوقف بدائعه الناظر•ويخجل بحسنه الروض الناضر• حيث جمع بين حسن الترتيب•والتعريف باحوال السياسة فى اسلوب غريب• وبيان اسباب التقدم فى المعارف • وتحريض ابناء الوطن للتفيؤ تحت ظلها الوارف • الى غير ذلك من الفوائد الجمة • والتحريرات المهمة • التى تتنافس فيها القلوب والعيون « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » (2) •

قد أديت معانيه فى الفاظ • تفعل فى النفوس فعل سحر الالحاظ • فلله درك من مؤلف مجيد • نسخت من صيت ولى الدين ولسانه (3) الطـارف والتليد •

---

(1) محمد الرياحى . لعله من أنجال الشيخ ابراهيم الرياحى . لم نعثر له على ترجمة .

(2) سورة المطففين ، الآية 26 .

(3) تورية عن لسان الدين ابن الخطيب وولى الدين ابن خلدون ، انظر أعلاه ، تقريظ (2) تعليق (4) .

وتفردت بالكمالات الظاهرة دون اضمار • وسابق الحلبة انما يعـرف آخـر المضمار • جزاك الله جزاء من استغرق / بفواضله لمـراتب الاعـداد بما لا يعتريه نفاد • وقرن اعمالك بالنجح والسداد • وبلغـك فى الـدارين نهـاية المـراد • [36]

والسلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته من معظم قدركم • اللاهج بذكركم • المثابر على شكركم

محمد الرياحـي

وفقه اللـه بمنـه •

فـى ربيع الانور سنة 1285/جوان ــ جويلية 1868 •

18 ـ محمد عريف

ومنها ما جادت به قريحة الفاضل العمده ، والمدخر لكل مهم عده ، الاثيل مجده والوارى فى ميادين الآراء زنده ، الثقة الامين المترائى فى مرآة المروءة لكل عين ، الغنى عرفانه عن التعريف ، الاعز المنتخب أبى عبد الله سيدى **محمد عريف** (1) ، لا زال يتفيأ من نعم الله والطافه كل ظل وريف ٠

الحمد لله ، سبحان من احكم احكام الشريعة ٠ وجعلها لمصالح الدارين اقوى باعث وذريعة ٠ وخص من شاء من عبيده ٠ بتوفير العقل وتاييده ٠ ليغوصوا فى بحورها على درر المدارك ٠ ويسلكوا لجلب تلك المصالح **اقوم المسالك** وصان عن النسخ احكامها ٠ وادام الى فناء العالم احترامها ٠ لاقتضاء حكمته ان تكون خاتمة الشرائع ٠ ويوجد بها لمقتضى حال كل جيل مجال واسع ٠ فلذلك اختلفت فروعها باختلاف الانظار والاعصار ٠ وقال تعالى ارشادا لذلك « فاعتبروا يا اولى الابصار » (2) نحمده حمدا يليق بحضرة قدسه ٠ ونثنى عليه بما اثنى به على نفسه ٠ ونصلى على رسوله انسان عين الحكمة والرحمة ٠ صلاة تشمل الصحب والآل وتعود بالنفع على سائر الامة ٠

هذا وان من اهم المهمات ٠ معرفة احوال الوقت وما يناسبها من التصرفات ٠ على وجه يفضى الى نمو العمران ٠ واستجلاب مرضاة الملك الديان ٠ وممن حدا على هذا المقصد المهم ٠ وازاح عن عقول القاصرين عن ادراكه كل / حندس وهم [37] مدلهم ٠ نادرة العصر ٠ ومن جرت به الخضراء ذيول التيه والفخر ٠ الهمام الافخم ٠ والملاذ الاضخم ٠ جناب أمير الامراء سيدى **خير الدين** ٠ بتاليفه الذى سماه **أقوم المسالك ، فى معرفة أحوال الممالك** ٠

فلقد كشف فيه من كنوز السياسة ٠ ما لو رآه مثل ولى الدين فى هذا الوقت لطوى قرطاسه ٠ وقال لسياسته « ليس ذا بعشك فادرجى » (3) ٠ ولسياسات هذا الكتاب تدرجى ٠ وفى حوالك الحوادث الوقتية ادلجى ٠

---

(1) محمد عريف : من اعيان الحاضرة ومن سلالة محمد عريف . انظر عن أجداده : **اتحاف** ، VII ، 21 ـ 22 . و VIII ، 17 .

(2) سورة الحشر ، الآية 2 .

(3) مثل مرسل .

وبالجملة فهو كتاب لم يؤلف مثله ببابه · ولا خاض احد قبله فى تياره وعبابه · كيف لا ومدار امره على اقامة ميزان العدل · وسبر تنزيل النصوص الشرعية بمسبار العقل·وجبر خلل البلاد والعباد·والتعريف بحال الاضداد· ليتيسر القيام بواجب الاستعداد · فاى عاقل خلص عن عوائق العناد·لا يلقى لهذا الكتاب بعد فهمه زمام القبول والانقياد · بل ما له الا الاعتراف لمن دعم على العرفان اساسه · بانه من ارسخ الناس قدما فى النصح والسياسه ·

فالله المسؤول ان يجازيه عن جميل صنعه · باجراء ثواب العمل بالكتاب ونفعه · وعن تشريفى بنسخة مما نجز من طبعه · بمقتضى كمال فضله ووسعه ·

وكتبه

محمد عريف

فى 20 ربيع الانور بمولده صلى الله عليه وسلم
عام 1285/11 جويلية 1868 ·

19 ـ محمد الشريف

ومنها ما رقمته اقلام ذى النسب الطاهر • والحسب الشامخ والكمال الباهر • ليث العرين • ومن ليس له من غير اهل البيت فى الكمال قرين• أبو عبد الله سيدى **محمد بن محمد الشريف** (1) • ابقاه الله مصدرا لكل مكرمة ومنزع لطيف • ونصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

[38] جناب وحيد العصر • ومن جلت مآثره عن الحصر • الهمام امير / الامراء سيدى **خير الدين** • خلد الله مفاخره • ولا عدم الحق منه مؤيده وناصره •

اما بعد السلام • المحفوف بواجب الاحترام • فانى قد اطلعت على ما تم طبعه ووصلنى به ودكم من تاليفكم الموسوم **باقوم المسالك فى معرفة احوال الممالك** • فرأيته قائما للامة بالنصح السديد• صادعا فيهم بالحق الذى لا عنه محيد • معلما لهم بما لو تبعوه لارشدوا • وعلى حسن عواقبه حمدوا •

فجزاك الله المنان • عن بث ما يثمر العدل والعمران • والامر بالمعروف والاحسان • الحاث عليه شرع الايمان • المبلغ صاحبه غاية النصح بقوله : « انما انا النذير العريان » (2) • وهو تعالى المرجو ان يحمد مساعيك • وينجح امانيك •

والسلام من

محمد بن محمد الشريف •

فى 25 ربيع الانور سنة 1285/16 جويلية 1868 •

---

(1) محمد بن محمد الشريف : لم نعثر له على ترجمة .

(2) حديث نبوى شريف .

20 ـ خليـــل الخـــورى

ومنها ما جاب به المهامه الشواسع • وخاض العريض من البحور الواسع • حتى اوصله الى حاضرتنا • وانخرط فى سلك تقاريظ الفضلاء من جماعتنا • مدير المعارف العمومية • ومنفق اسواقها بعد الكساد **بسورية** • الشيخ **خليل الخورى** (I) • ابقاه الله لكل غريبة لنا يورى • ونصه :

الحمد لله حضرة صاحب السعادة مولاى الافخم سيدى **خير الدين** •

لا جرم ان لسان القلم قاصر عن بيان ما ليدكم الغراء من المنـــن • كمـــا ان اللسان عاجز عن تبيان ما لذلك اليراع الجليل من الجميل فى جيد الزمن• فان تاليفكم المفيد المسمى **باقوم المسالك** • جدير بان يكون اكليلا لمجد الممالك • فقد أفاضت به معارفكم الجليلة انوار الفطنة وابكار الرشاد • فجاء من اعظم التصانيف التى اهدتها الحكمة لتهذيب العباد • فآمل ان تجتنى من حســن تاثيره الامة الاسلامية تمام الارب • وارتجى ان يكون مصباحا فى افق العـلى لاعادة تمدن العرب • وان يصبحوا بما ابنتموه فيه من الطريقة / المستقيمـة [39] مقتفين • وبأدوية نصائحه من أدواء الغفلة مشتفين •

ولما سرحت بمطالعته النظر • وبلغت من مراجعته الوطر • بادرت لاشهار ما تبين لى فى **غزتة** (2) **سورية الرسمية** المطبوعة فى دمشق تحت ادارة هــذا العبد • وزينت بما لخصته منه غزتتى **حديقة الاخبار** مع تاديــة بعض ما يجـب للجناب من فروض الحمد • وتجاسرت بارسالها مع هذه البوسطة الفرنساوية لأعتاب مهابتكم • مع بعض نسخ من مؤلفات عبدكم • آملا ان تتشرف بانظار سعادتكم • راجيا التعطف بالعفو عن القصور وحسن القبول • ذلك احسن منة واعظم مامول • سائلا المولى المتعالى • ان يحفظكم غرة فى جبيــن المعالى •

كتبه عبدكم

خليـــل الخـــورى

مدير المعارف العمومية فى ولاية سورية فى I2 صفــر سنـــة I285 / 3 جويليـــة 1868 •

(I) خليل الخورى : مدير المعارف العمومية بسوريا .

(2) غزته : جريدة وهى لفظة دخيلة من الايطالية ، غزيطة أو كازيطة : Gazetta

21 ـ أحمـــد البصـــراوى

ومنها ما للكاتب الابرع • الرزين اليلمع • من لم تزل نفسه الـزكية فى رياض التهذيب سائمة • وفى شواسع مناهج الآداب دائبة غير سائمة • مولعة بجوب البلدان • للاتجار فى اسواق العرفان • المعنعن حديث فضله على لسان كل راوى • أبى العباس الشيخ سيدى **أحمد البصراوى** (1)• **من اهل المدينة** النبوية • على صاحبها افضل الصلاة والتحية • ونصه :

الحمد لله حمد من عرف الفضل لاهله فشكره بين الامم•وتوج منابر ذكره بحسن الثناء فى محافل اولى ارباب السياسة من دول العرب والعجم•والصلاة والسلام على سيدنا محمد القاطع برهانه ما قام فى مخيلة الفكر من شبه الاذهان وعلى آله واصحابه المتمسكين / منه بخير الاديان • فعلموا به حكم كل أمـة حسب ما يحدث فى كافة الازمان •

[40]

وبعد فحيث ان مظهر شرف النوع الانسانى هو نتيجة فكره• وتاج عزه فى سلطان فضله تمسكه بالرفق فى نهيه والعدل فى امره • فلا ريـب ان تسجـد شمس المعرفة لهذا المحقق تحت عرشه • ويدور فلك سماء العقل على فطـب فضله ونبله • ويتميز عن اقرانه برتبة المجدد لهذه الامة امر دينها • ويحـوز تاج فخر من اسس للملوك نظام رعيها بايضاح تنظيمها • وحقيق بان يرتقى الى مقام رفرف مقام مقعد الصدق من لسان كل شاكر • ويترجم فى طبقات العلماء الراسخين الاكابر • اذ ما ابداه فى مؤلفه هذا كشف به قناع الغفلة عن ارباب القلوب • وفتح به اعينا عميا ضلت طريق الانصاف الذى هو لكافة عباد الله غاية المطلوب • وقد ظهر به ينبوع الحكمة النافعة • واشرقت منـه شمس المعرفة فى سماء الفضل السابعة•فصار لاهل الاقتداء حجة يعول عليه• ولأرباب السياسة مركزا تنتهى دائرة العدل اليه • ولم يرتب المنصف عنـد تامل مفرداته وجمله ان يعيه بأذن واعية • وينثر جواهره فى مجالس ارباب المعرفة لتكون ألسنة أهل الخير له داعية •

---

(1) احمد البصراوى : عالم من علماء المدينة المنورة .

وحيث كانت هذه النبذة منه تذكرة وموعظة «لمن ألقى السمع وهو شهيد»(2) وعلم ان المرجع الى الحق طريق ليس عنه محيد . فالواجب حينئذ على من تحلى بحلية الامارة ان يعرف لهذا المحقق هذه النعمة . ويقوم عنه بوظيفة اداء هذه الامانة لرعاة كافة الامة . وما ذلك الا لما تقرر عند ذوى الارشاد . ان الدين النصيحة لله ولرسوله ولكافة المسلمين من العباد . وقد تحقق بما سطر من البراهين قول القائل . لم تبق هذه الحسنة قولا لقائل .

هذا وليعلم الناظر فى هذا المؤلف انه حصن لا يدخله الباهل(3) . وروضة انس / لا يحول حول حماها مكابد ومجادل . [41]

شكر الله صنيع مؤلفه يوم يجزى المحسنين . وأجلسه على منـاص اولى المناقب يوم لا يضيع اجر المؤمنين . وهو تعـالى على ما يشاء قدير . وبالاجابـة جديـــر .

حرره الفقير خديم العلم الشريف

احمـد البصـرى الحنفـى المدنـى .

---

(2) ناظر الى قوله تعالى : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى اسمع وهو شهيد » الآية 37 ، سورة ق .

(3) الباهل : المتردد فى أمره .

22 ـ احمد جمـال الديـن

ومنها ما للنبيه النجيب • اللوذعى الزكى الاديب • الصارف همته لنيـــل العلوم • ذى القريحة الجيدة فى المنثور والمنظوم • السابق اقرانه فى الميادين أبى العباس سيدى **أحمد جمال الدين** (1) من اعيان نجباء الطلبـة بالجـامع الاعظم • وفى سلك الماهرين البارعين ينظم • ونصه :

حمدا لمن قيض لجلب المصالح ودرء المفاسد من شاء من عباده ، وطبعه عـلى نشر عوارف المعارف حتى أهله للتاسي به فى ارضه وبلاده•كما نحمدك اللهم على ما به خصصتنا من اشرف الشرائع المتكفلة على اختلاف الليالى بجميـع المنافع • المبنية على سد الذرائع • ونصلى على نبيك اشرف مبعـوث ابـرزته للعالم متحليا بملابس العدل • ومقحما بملته كل من رام المكابرة أو نـوى الدخل • وعلى آله واصحابه ذوى الفضل الباد (2) • المنادين لطرق شريعته كل حاضر وباد •

هذا وانى صرفت الهمة يوما الى خلو الفكرة • واستجلبت الخواطر لمـا بى من تلهف الحيرة • منتفسا تنفس الصعدا • ومتأوها تأوه الغربا • على الحالة التى آل اليها امر الاسلام • وما احاط به من حوادث الايام•اذ نادانى هاتف لسان الحال • وهو كما قيل أفصح من لسان المقال • يا من توقدت جمراته • وتضاعفت حرقه وحسراته•ألم تر هبوب نسيم البشارة•وتسمع تغنى خطيب النجاح على منابره بافصح عبارة • واضحا كالقمر لاهتداء السالك • معنونـا بكتاب **أقوم المسالك ، فى معرفة / أحوال الممالك** • [42]

فلعمرى لو رآه لارتضاه لزماننا امام الائمة **مالك** • فتصفحت ما اودع فى بطون أوراقه • واستضأت بأنوار اشراقه • فالفيته محشوا بجواهر المعانى •

---

(1) احمد جمال الدين : درس بالزيتونة وتطور امره فيما بعد حيث اصبح من اتباع الشيخ ابى الهدى الصيادى . مستشار السلطان عبد الحميد الثانى وكانت بين احمد جمال الدين ورشيد رضا صاحب المنار عداوة ومعارك صحافية . من تآليفه : **بلوغ الارب فى مآثر الشيخ ذهب** . انظر : المنصف الشنوفى : **علائق رشيد رضا مع التونسيين ، حوليات الجامعة التونسية** ، عـدد 4 ، 1967 ص . 130 .

(2) البـاد : الكثير المتفرق .

مشحونا بلطائف يعترف بها من لعب المكابرة يعاني . وسكن حب مؤلفه صميم الجنان . فقلت مبتهلا : اللهم اسكنه فراديس الجنان . اذ نظم في سلكه علم السياسة وفوائدها . وجمع فيه شتاتها وقيد شوارد عوائدها . ازهار معارفه مختلفة الاجناس . وانهار مشاربه مجلوة كؤوسها على اختلاف الناس. فحقيق كتبه بماء العين . كيف لا وقد أبدعته أفكار من تطابق اسمه والعين . اعنى جناب الواقف بسيفه الباتر في حماية الدين ، الحلاحل الجهبذ سيدى **خير الدين.** فجزاه الله عن الاسلام خيرا . اذ قام على ساق الجد ناصحا ليذود عنه ضيرا . ولا زالت الألسن بالثناء على صنعه لاهجة . وتجارته بحول الله رابحة رايجة .

كتبه عبيد ربه

احمد جمال الدين

في ربيع الثاني سنة 1285 / جويلية ـ اوت 1868 .

23 ــ أحمد ابن الخوجة

ومنها ما زان جيد الكتاب بقلائد عقيانه ، وشاد ببيانه المستطاب مشيد بنيانه ، الهمام النحرير ، كشاف غوامض العلوم بمزيد تحقيق وتحرير ، افاضل الاورع ، والعلامة الابرع ، من لم يزل يدأب في مهامه العرفان جواد جده ، غير قانع بمرتبة الامامين المقدسين والده وجده ، الى ان كسا الطروس بمطارف ، من طريف معارف ، على منوال التهذيب منسوجة ، جناب أبي العباس الشيخ سيدى **أحمد ابن الخوجة** (1) ، ثالث المفاتي الحنفية ، لا زال رافلا في برود الالطاف الخفية ، والنعم الضافية الوفية ، ونصه :

[43] / الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم ،

نحمدك يا من جعلت الشريعة المحمدية عقد واسطة الشرائع ، وابديتها لعمران الدراين **اقوم المسالك** واقوى الذرائع ، ورفعت على اعمدة المصالح سمكها ، ورصعت بزواهر الحكم فلكها ، حتى صلحت تاجا لمفرق كل زمان ، وغرة ميمونة لجبين كل اوان ، ونصلي ونسلم على رسولك محمد الذى بعثته بمكارم الاخلاق ، عند تلاشيها وبلوغها حد الاخلاق ، وايدته بالمعارف المتلالئة الانوار ، وعززته بالمعجزات التى ساجلت الشمس في رابعة النهار ، وننظم في سلك الصلاة والتسليم ، آله واصحابه فرسان الخيل ورهبان الليل وكهف دينه القويم ،

اما بعد فان شريعتنا الغراء قد رصع الله بمصالح العباد تاجها واوضح بها لمكارم الاخلاق منهاجها ، ومن فضله عز اسمه العميم ونائله العتيد ، ان كلياتها اجمالا وتفصيلا تصيب كل غرض قريب وبعيد ، فليس فيها بمنة الله سائبة ، للانظار الصحيحة والافهام الصائبة ، وممن اهتدى بمنارها ، وعشا الى ضوء نارها ، وانتصب لحماية ذمارها (2) ، العالم الفاضل الماجد امير الامراء السيد **خير الدين** ،

---

(1) احمد بن الخوجة (1830 ــ 1896) من اعيان المدرسين ومن اشهر اعضاد الجنرال خير الدين له كتاب مازال مخطوطا في مناقب خير الدين .
انظر عند محمد النيفر ، **عنوان الاديب** ، ج . II ، ص 130 .
المجلة التونسية : Revue Tunisienne ، 484 ، 1896 .

(2) ذمار : كل ما يلزمك حمايتك والدفاع عنه ــ الحرم ــ الاهل ــ العرض .

فهذا كتابه **اقوم المسالك** شاهد عدل له على امتداد الباع وسعة الـذرع ٠ وحسن الاقتدار على ربط السياسة المدنية بالشرع ٠ كتاب ضرب فى الابداع بسهم مصيب٠ونزع ناظم عقوده المتناسقة المنزع الحسن الغريب٠خامر الالباب بسلاف البيان ٠ وطبق المفصل فى تنزيل البرهان على حوادث الزمان ٠ اوضح رسوم الافادة وسبق فى مضمار الاجادة٠وكشفت عن اسارير الحقائق قريحة مؤلفه الوقادة ٠ محض فيه صفو نصحه ٠ وسفر عن محاسن صبحه ٠ وشعشع المعارف بتحريره وروقها ، وبقلائد الذكر الجميل طوقها ٠ اسمت سرح اللحظ فى / مقدماته فاذا هى بديهية الانتاج ٠ صحيحة الاحتجاج ٠ بحيث تتاكد اليه [44] الحاجة لا سيما حين زلت الاحلام ٠ وولت شبيبة الاسلام ٠ بعد ان مـد على مراكز النجوم اطنابه ٠ واناخ بساحة العزة القعساء ركـابه ٠ سكـن اللـه زلزاله ٠ وبلغه فى انصاره آماله ٠ ولا سيما والحـربى اليـوم قـد كاثـرت الحصباء جموعه ٠ وراع القلوب مـرئيه ومسمـوعه ٠ بما ابـداه من الآلات المخترعة ٠ وتنويع المكائد «والحرب خدعة» (3) ٠ فلا جرم ان مكافحته تفتقر الى النسج على منواله٠ومسابقته فى مجال احتياله٠وهذا انما يجتنى٠ من دوحة الغنى٠فتوفير المال٠ظهير لبلوغ الآمال ، وبه تذب عن بيضة الاسلام حماتها٠ وتدافع عن حوزته كماتها (4) ٠ وهو بمزاولة الحرف المباحة على اختلافها ٠ وخوض لجج المعارف وارتضاع اخلافها ٠ حتى يستبحر العمران ٠ حكمة الله فى الايثار على الملائكة للخلافة نوع الانسان ٠ وقد تعاضد العقـل والشرع والتجارب ٠ ان سدل الامان ٠ عنصر هاته الرغائب ٠ ومما صدع به القرآن ٠ « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (5) ٠

وقد بينت السنة ان الاحسان يختلف باختلاف الامور ٠ وانه على صفحة كل شىء مسطور ٠ وفتور العزائم يحذر منه السم الناقع ٠ والخرق الذى يحـار فيه الراقع ٠ والرعاة اذا لم يوردوا سوائمهم المناهل العذبة ٠ وينتجعوا لها

---

(3) حديث نبوى شريف .

(4) كمى ج . كماة : المجج بالسـلاح .

(5) سورة النحل ، الآية 90 .

مساقط الغمائم الخصبة • ويصلحوا خللها • ويعالجوا عللها • ويسعوا لهـا في النماء والتثمير • يعزب لا محالة حصول التعمير • فسبحان من بيده مقاليد التدبير • ولا يسأل عما يفعل واليه المصير •

حرره فقير ربه خادم الشريعة المطهرة

أحمـد ابن الخـوجة

كان الله له •

الحادى عشر من ثانى ربيعى عام 1285/ غـرة اوت 1868

24 ـ محمـــود قـــابـــادو

[45] / ومنها ما كان لها مسك ختام • وبزغ اثر كواكبها بزوغ بدر التمام • وتأخر عنها تأخر ثقال السحب عن الجهام • وليلة القدر من شهر الصيام • من در الآداب البديعة • الذى بدده على بساط سياسة الشريعة • قلـم العيلـم العلامة • والنحرير الجهبذ الفهامة • مطرز مطارف المعارف • بطوارف الطرف واللطائف • من لا يجارى فى ميدان البيان بغير التسليم له والاذعان •

[البسيط]

اذا أقـــر عـــلى رق انامـلـــــه — اقر بالـرق كتاب الأنـــام لـــه

جناب ذى الروض المطور • والثناء المعطـور • الشيـــخ سيـــدى **محمود الشريف** (1) القاضى ببـــاردو المعمور • فسبحـــان من ألان له حديـــد الكلام • فلم يستوعر من اى غرض رامه طريقه • وخصـــه فيه بالنقـض والابـــرام • فاسترق حره وحرر رقيقه ، كما يشاهد ذلك بالعيـــان • من حسن هذا التأبين الذى ليس بعده بيان • حيث يقول • ظفر بنيل المامول :

بسم الله الرحمـــن الرحيـــم

يا من ارسل رسله بالبينات وانزل معهم الكتاب • ليقوم الناس بالقســط وليتذكر أولو الالباب • نحمدك على ان خصصتنا من بين سائر الامم • بالكتاب الذى يهدى الى التى هى اقوم • انزلته من المقام الجامع فارقا بين الرشد والغى • وأوعبته مناهج الدارين فما فرطت فيه من شىء (2) • لا يشب عمر حادثة عن طوق عباراته • ولا يبلغ غواص فكرة غور اشاراته • واستمنح من ديم جودك

---

(1) **محمود قابادو** (1813 ـ 1871) ولد بتونس ، كان منذ نشأته ميالا الى التزهد والتصوف . ارتحل الى استانبول وبقى عشر سنوات ولم يرجع الا سنة 1841 . كان من انصار التجديد لذلك قبل التدريس بالمكتب الحربى واشرف على تعريب عـدد كبير من الكتب الحربية ، ترك ديوانا من الشعر طبعه فى جزئين تلميذه محمد السنوسى سنة 1878 .
انظر محمد الفاضل ابن عاشور ، **اركان النهضة الادبية بتونس** ـ تونس 1965 ، 5ـ10 .
ودراستنا **مصادر** ... ، ص . 72 .

(2) ناظر الى قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » الآية 38 ، سورة الانعام .

الواكفة • وفيوض احسانك المترادفة • ان توالى صلات صلواتك البهيجة • وتهب نفحات تسليماتك الاريجة • على مظهر ذلك الكتاب المكنون • الذى « لا يمسه الا المطهرون » (3) • المستنبط من ظهوره والبطون • علم ما كان وحكم ما يكون • من اخذت له ميثاق / النبيئين قبل بعثته ووجوده اعظاما • [46] وشرفتهم ببيعته وعهوده إكراما • وقررتهم شاهدين على انفسهم وهم الامناء• آخذين اصرك (4) وانت معهم من الشهداء • تنويها بانهم حلفاؤه • فملاذهم فى الدارين ولاؤه ولواؤه • شرعه الاصباح • المغنى عن المصباح • فى العادة والعبادة • والمحجة السمحاء • السابلة الفيحاء • التى هى قصد السعادة • وكتابه القرآن المتلقى من لدن حكيم عليم • روحا من امره يوحى • والفرقان• « الهادى الى صراط مستقيم » (5) نورا يبهر يوحا ونستتبع اسكوب (6) رضوان • فى رياض روح وريحان • لحماته وحزبه • القائمين بسلمه وحربه• الفائزين باعظم قربة • من القربى والصحبة • هداة العباد • وفتحة البلاد • ما اضاء الشرع لقادة الامة كل مدلهمه • فاستبانوا انه تفصيل لكل شيء وهدى ورحمه •

هذا ولما كان العدل نظاما لعقد العمران• وعهدا لخلافة الانسان • وجب ان يتحرى فى تحصين سياجه عن تطرق الظنن • وترصين معقله بتظاهر المنن • ووزع نوازع الاهواء عن استباحته • والاخذ بحجز الاراء الى حماية ساحته • ولغلبة سلطان الهوى بما له من الاصالة• على وزعة الدين والمروءة والحياء المعبر عن مجموعها بالعدالة • تعسر ان يستعصم غير المعصوم عن داعية هواه • الا بالانقياد لسواه • فالرئيس مفتقر فى شد ازره • الى الاشراك فى امره • والمرؤوس مكلف بانشراح صدره • للاذعان فى المنشط والمكره• ومن ثم كانت « يد الله مع الجماعة » (7) • وعصم الاجماع الى قيام الساعة • ولم تزل الشورى فى كل ملمة • ديدن السلف الصالح من قادة هاته الامة • حتى اثنى عليهم بها

---

(3) سورة الواقعة ، الآية 79 .

(4) اصر ، جمع اصار : الحلف والميثاق .

(5) ناظر الى قوله تعالى : «والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم» الآية 213 ، سورة البقرة.

(6) أسكوب : الماء المسكوب .

(7) حديث نبوى شريف .

الكتاب المجيد • اشارة الى انها من سننتهم التى تنكبها ضلال بعيد • ومثل فى الانجيل ما لهم من المؤازرة • بزرع اخرج شطاه (8) فآزره •

[47] / ومن سبر بمسبار الروية اغوار السير • وجس بانامل الالمعية نوابض البدو والحضر • واستشرف على استشراء الممالك الاوربـاوية وتغطـرفها • واستئسادها وتصلفها بما فوفته (9) من ابراد (10) الحضارة • وما اورفته من ظلال العمارة • لا تخامره ريبة فى انها نتائج متناسقة الكعوب (11) ومغارس متضامة الجنوب • سنحها (12) تضافر العزائم والالبب وانعطاف بنات البب (13) على اطراح الاغراض الشخصية • للمصالح الكلية •

ثم اذا عطف اعنة النظر الى الممالك الاسلامية وتقراها • وجاس خلال مدنها وقراها • وتبين ما منيت به من تزايد الغمرات • وتناقص الاموال والانفس والثمرات • لا يتمارى في ان حورها بعد الكور (14) • وارتدادها عن النجد فى حافرة الغور • ليس الا لعدم رعاية الحقوق العامة حق الرعاية • وفشل الحمية بالتنازع المفضى الى ذهاب ريـح الحمـاية • فكانهـا مسـارح جيـاد ركبـت ارسانها (15) • والفت مرحها واستنانها • لا تكاد تسمح لرعاتها • والتخلى عن مالوفاتها • فهى مفتقرة الى تدبير سياسى • فى تاليف ايناسى • يلهب حميتها الى مساعفة الراضة (16) • ويهب اريحيتهـا • الى مسـاهمة الامـة المرتاضة •

---

(8) شطا ج . اشطاء : أوراق الزرع ـ والشطا من الشجر : ما خرج حول أصوله من النبات . وهذا ناظر الى الآية 29 من سورة الفتـح .

(9) ثوب مفوف : فيه خطوط بيض على الطول .

(10) أبراد ج . برد : ثوب مخطط .

(11) كعوب ج كعب : عقدة القصب بين الانبوبتين .

(12) سنح على : وطد على .

(13) البب : الهيئة الشجية ، الطريقة .

(14) الحور بعد الكور : النقصان بعد الزيادة (من حار وكار) .

(15) ارسان ج . رسن : حبل يجعل حول رأس الدابة .

(16) الراضة ج . رائض : من راض يروض : ذلل الصعاب .

وبينا ذلك دين على الايام تماطل بانجازه • وتعلل عن حقيقته بمجازه • اذ انتدب لتوفيته ابن احداها • الخبير بلحمة السياسة وسداها ، المدره (17) الماحل (18) الذى فعله للقبة خدين • الهمام الحلاحل (19) • السيد **خير الدين** • فانه لما قتلها خبرة • وتعمقها سبرة • جلا اناسى عيونها • ومعالم سهولها وحزونها • فى مؤلف مهذب • هو عذيقها المرجب (20) • وسمه **باقوم المسالك ، فى معرفة أحوال الممالك** •

فياله من كتاب اوفى به المجد نذره • وابلغ الحفاظ عذره • ونظرت عيون السياسة قررها • واستنظرت جباه الرئاسة غررها • يأتزر صيته / بالسحب • [48] ويتعمم بمجرة (21) الشهب • اصاب شواكل الرمى • ولين اخادع المعنى الابى • بالفاظ اغض من الزهر الجنى • وابهى من الحلى على صدر الهدى • فما هو الا روضة مفوفة (22) فى حزن (22) • تجودها نطفة مروقة (24) من مزن (25) • تثلج فؤاد الحران • وتنفث فى روعه بسحر من البيان • يسفر عن صفحات حجج بيض • لفرند (26) جوهرها وميض متبرجة المعارف •

---

(17) المدره : السيد وزعيم القوم .

(18) الماحل : الليق والحذق .

(19) الحلاحل : الشجاع .

(20) عذيقها المرجب : اقتباس من مثل : « انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب » : والجذيل تصغير للجذل وهو اصل الشجرة والعذيق تصغير للعذق وهو نخلة والمرجب ما جعل له رجبة وهي دعامة تبنى حولها من الاحجار وذلك اذا كانت النخلة كريمة وطالت فتخوف عليها ان تسقطها الرياح والتصغير هنا بمعنى التعظيم والمثل يطلق على من يستشفى برايه وعقله .

(21) مجرة : منطقة فى السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء قيل لها ذلك لانها كاثر المجر وهو خيط غليظ يطرق به الدولاب ليدور بواسطته .

(22) مفوفة : مخططة .

(23) حزن : ارض غليظة .

(24) مروقة : مصفاة .

(25) مزن : المطر الخفيف .

(26) فرند : جوهر السيف ووشيه وهو ما يرى فيه شبه الغبار لشدة وميضه .

في مضرجة المطارف • ترشف الارية (27) المشورة (28) • من خلايا المشورة • نهضة محتسب لا تسرى التهم بليله • وعزمة منتدب لا يعلق الفتور بذيله • قام بواجب النصح والعزائم قواعد • وشاد بنيان النجح على اوطد القواعد • خاض دونه المكاره • فاردى بعزم فاره • متقحما لقاتم اعماق مصفر • لا تنصبغ فيه الاهواء بعصفر (29) • صنيع لا يغض عنه طرفه • ويثني دونه عطفه • الا الذى هراق ماء حيائه • فلم يبال باتباع أهوائه • وليقدرنه حق قدره • من نزعت السخائم (30) من صدره • غير قائم بمستحق شكره • ولا طاوى كشح دون نشره (31) •

نساله سبحانه بلسان الضراعة • ونرغب اليه بمبلغ الاستطاعة • ان يجعل افئدة من الناس تهوى اليه • ليشهدوا منافع لهم • كما جعل ألسنة من الهداة تثنى عليه• يعزز آخرهم أولهم• وان يبلغ مؤلفه غاية الآمال• ونهاية الكمال• بمنه آمين •

حرره خادم الكتاب والسنة • المستضىء بهما
في كل دجنة • العبد الضعيف

محمود الشريف

احسن الله عواقبه • وجعل التوفيق مصاحبه
في السادس والعشرين من ربيع الثاني سنة
1285 /16 اوت 1868 •

* * *

انتهت التقاريظ النفيسة بحمد الله تعالى وحسن عونه •

---

(27) الارية : العسل ويقال الارى ايضا .

(28) المشورة : المجتنى والمستخرج . يقال عسل مشور وهناك جناس بين المشورة والمشورة من استشار وطلب النصيحة .

(29) عصفر : صبغ اصفر اللون .

(30) السخائم : ج . السخيمة : الضغينة .

(31) طوى كشحه عن الشيء : اعرض عنه والكشح ما بين السرة ووسط الظهر وهنا : غير معرض عن نشره وقيمته التى هى كالعطر والطيب .

قصيدة قبادو

[49] / ثمّ ذيّل الشّيخ سيّدي **محمود الشريف** المذكور تقريظه بقصيدة منوّرة لمقاصد الكتاب . بشمس ليس دونها حجاب . مفصحة عن تاريخ وضعه . بما تقصر صنعاء عن صنعه . فقال : *

[الكامل]

صبْحا بَدَا منْ رَأْيِ خيْرِ الدّينِ ... أغْنَى الْعِيَانُ لَهُ عنِ التّبْيِينِ

أنْحى علَى الظُّلمات منْ ظُلْمٍ ومن ... جهْل فَزَحْزَحهَا بِنُورِ يَقِينِ

بَرَحَ الخَفَاءُ بِهِ فَأبصرَ خَابِطٌ ... فِي جَاهِلِيّةِ ضِلّة وَفُتُونِ

وَارتَاعَ مُتّخِذُ الْجُنُوحِ دَرِيئةً ... وَارْتَاحَ مُرْتَاعٌ إلَى التّأمِينِ

وَسَرَى بِلَيْلِ البرد برد نَسِيمه ... فِي كُلّ دَاءٍ لِلنُّفُوسِ دَفِينِ

وَامْتَدّ ظِلُ عُرَى الأمَانِ وأينعتْ ... وافْتَنّ شَادِي العدْل في التّلْحين

لاَ غَرْوَ أنْ حمد الورَى مَسْرَاهُمُ ... بِصَبَاحِ نُصْحٍ في اللّيالي الجُون (1)

فَالخَلْقُ مرْعِيّ وَرَاعٍ نُظِّمُوا ... نظم الدّلاص(2)وسرْدها الموضون(3)

وَالنُّصْحُ فيهمْ والتّناهي بيْنَهُمْ ... عن منكرٍ كقتيرها(4) المرْضون (5)

---

* ورد النص فى الطبعة الاولى خاليا من الشكل .

(1) الجون : ج . جون : الاسود .

(2) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

(3) سردها الموضون : نسجها المنضد بالجواهر .

(4) قتير الدرع : رؤوس مساميرها .

(5) المرضون : المنضود من الحجارة ونحوها .

عَهْدٌ لَهُمْ وَأَمَانَةٌ يَرْعَوْنَهَا بُقْيَا عَلَى دُنْيَاهُمُ وَالدِّينِ
وَالعَدْلُ سُلْطَانٌ لِكُلِّ مُمَلَّك يَقْضِي بِسُلْطَانٍ عَلَيْهِ مُبِينِ
فَأَعَمُّهُمْ عَدْلا أَعَمَّ وِلاَيَةً وَأَمَدَّ بَاعا فِي سَطا أَوْ لِينِ
وَتَسَاهُلُ الوَالِينَ عَزْلٌ كَامِنٌ وَتَهَاوُنٌ بِأَمَانَةِ التَّمْكِينِ
إِنَّ الأَمَانَةَ أَشْفَقَ السبْعَانُ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وخشِينَ وَهْنَ مُتُونِ
عِلْما بِأَنَّ الاسْتِقَامَةَ وفق أَمْــــرِ اللهِ عِبْءٌ آد (6) كلَّ رَكِينِ
لَكِنَّهُ الإِنْسَانُ نَاءَ (7) بِحملها لِيُمَازَ مَهْدِيَّ مِنَ المفْتُونِ
وَالشَّرْعُ نَهْجُ سَعَادَةٍ فِي عَادَةٍ وَعِبادَةٌ سَمْحٌ بدون حُزُونِ (8)
لَكِنْ عَوَادِ مِنَ دَوَاعٍ دُونَهُ مُنْبَثَّةٌ بِمَفَاوِزٍ وَرُعُونِ (9)
فَتَقَحَّمَ الشُّذَّان (10) في أَخطارهَا غِرَرٌ (11) بِدُونِ مُرافق وقَرِينِ
سِيَما وَأَسبَابُ الهوى المُهوي النُّهى مِنْ كُلِّ جَانِحة (12)أوَتْلِعُطون (13)
[50] /أو ما رأيْتَ الفاردين (14) تنوشهم أيْدي العوادي بالأذى والهُوْنِ

---

(6) آده اودا الامر : اضنكه وثقل عليه ·

(7) ناء : نهض بجهد ومشقـــة ·

(8) حزون : ج · رعن : الجبــل الطويــــل ·

(9) الرعــون : رعــن : الجبل الطويـــل ·

(10) الشذان : من الناس : المتفرقون منهم ، من شــــذ ·

(11) غــرر : جماعــة الذين لا خبــرة لهــم ·

(12) الجانحــة : الجانـــب ·

(13) عطـــون : من عطن عطونا : البعير : اريح بعد شربه ليعرض عليــه الماء ثانيـــة ·

(14) الفاردين : ج · الفارد : الناقــة المنفردة في المرعــى ·

لا أظهرا أبقوا ولا شُقّقا (15) طوَوْا تُنْضي قُواهُمْ حوْما بِوُكُون ِ (16)
ركَدَت حميّتهم وَهَان عليهمُ بيْع الفَخَار ِ بصفقة المغبُون ِ
هَلاَّ وَهمْ أهلُ الكمالِ وَجذُمه (17) سَقَطُوا عَلَيْه بنَاجذ (18) لضَنين ِ
أجْروا إليْه ِ في مَجَارِي سَابِق جلّى وهم صرعى فنون فتون
أفَيَطْمَعُونَ وَلاَ مُجَارَاةَ لَهُمْ بلحاقه أمْنِيَّةَ المَافُون (19)
هَيْهَاتَ لأمٌ في تَفَارِيق ِ العَصَا إذْ بَدّهَا اسْتِبدَادُهَا بِشؤُون
إلاّ بِرُؤْبَة (20) حوْل ذي تُدْرَإ (21) يَذَرُ الضباب (22) أليفة للنُّون ِ (23)
مَرْمَى بِمَرَامِ النَّجْمِ دُونَ مَرَامه لَوْ لَمْ يَكُنْ منْ همَّ خَيرِ الدّين
ذَاكَ الوَزِيرُ الأوْحَد الشَّهم الّذي فَرَعَ الشّوَامخَ شَامخَ العِرْنِين ِ
فهوَ الّذي جاسَ (24) الممالك خبرهُ وَحبَا (25) سياستَها حبا تلهين (26)

---

(15) شقفا : ج • شقة : المسافة التى يشقها المسافر او السائر •

(16) وكون • ج • وكنة : عش الطائـــر •

(17) جذمـــة : بالفتح والكسر : اصل الشيء ومنبتـه •

(18) ناجـذ : واجـد النواجـذ : اى الاضراس •

(19) مافـون : ضعيـف الـراى •

(20) رؤبـة : ما تسد به الثلمـــة •

(21) تـدرأ : ذو العـزة والمنعـــة •

(22) ضباب : ج • ضـب : حيوان شبيـه بالزحافات كان العرب يظنــون انه لا يرد المـــاء •

(23) النـــون : السمـك الضخـــم •

(24) جاس الشـــى : طلبـه بالحرص والاستقصـاء •

(25) حبـاحبـاء : اعطـــى بلا جـزاء •

(26) تلهيـــن : ما يهديـه المسافر عند قدومه ، اللهنة : ما يتعلل به قبـــل الغـــذاء •

أملى مجلّة حكمة سنّى بهــا قيْدَ الطّليق ومُطْلقَ المسجُون
وجلاَ قوانين الحماية برْزة (27) ومسالكَ العُمْرانِ والتّمْدِين
ورَعى ذمام المعلُومات وصانـه وأبانَ وجْهَ النُّصْح غيْرَ مَصُون
روْض بِهِ تأوي النُّهى للوارِفِ المسكُون حوْلَ المشْرع الملزُون (28)
في كلّ سطْرٍ منْهُ لُجّة خضْرم(29) تُلْقي فَريدَ اللُّؤْلُؤ المكْنُون
ما شامهُ (30) النُقّادُ إلاّ أرّخُوا : الأقْومَ الخيْريّ نَقْدَ أمين

[1868 — 1867] / 1284

فلَكٌ يُدِيرُ زَواهِرَ الحِكَم التّي هي هدْيُ مُختبطٍ ورَجم ظنين(31)
طلَعتْ به شمْس الهُدى من مشْــرِقِ الخضْرَاء في ربْع الملا المسكُون
تهْدِي الورَى لِلأقوَم الأممِ الّذي أدنى من الطّلبات كلّ شطون(32)
فلْيَهتدُوا ولْيحْمدُوا ويُؤرّخُوا : صُبْحا بدَا من رأْي خيْر الدّين

---

(27) برزة مؤنث برز : من فاق اصحابه فضلا .
(28) الملزون : المزدحم بالناس .
(29) خضرم : البحر الخضم .
(30) شام : يشم شيما : الشيء : قدره .
(31) رجم ظنين : لعن المعادى لسوء ظنه .
(32) شطون : بعيد

الفهارس

فهـرس الآيـات القـرآنيـة

قال الله تعالى :

ـ (إن الله يأمر **بالعدل** والاحسان) النحل : 16 ، الآية 90 ص 81 .

ـ (واجعل لى **وزيرا** من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى **وأشركه** فى أمرى) طه : 20 ، الآيات : 29 ـ 32 ص 108 .

ـ (ولله عاقبة الامور) الحج : 22 ، الآية : 41 ص 206 .

فهـرس الأحـاديـث النبـويـة

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ (**الحكمة** ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها) ص 90 .

ـ (من قاتل **فليقاتل كما يقاتل**) ص 94 .

ـ (**العدل** عز الدين وبه صلاح **السلطان** وقوة الخاص والعلم وبه **امن الرعية** وغيرهم) ص 98 .

... قال عمـرو بن العـاص ـ رضى الله عنه ـ سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :
(تقوم الساعة والروم أكثر الناس) ، فقال عمرو : أبصر ما تقول ، قال : أقول ما سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال : لئن قلت ذلك ، إن فيهم لخلالا أربعا : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة : (**وأمنعهم من ظلم الملوك**) ص 116 .

ـ (المؤمن للمؤمن **كالبنيان المرصوص** يشد بعضه بعضا) ص 152 .

ـ (المؤمن **كالجسد الواحد** اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد ...) ص 152

فهـرس الأبيـات الشعـريـة

ـ إذا لـم تكـن إلا الأسنـة مركبـا فـلا يسـع المضطـر إلا ركـوبهـا
(من الطويل) ص 114/20

ـ ألقـاب سلطنـة فى غير موضعهـا كالهـر يحكى انتفاخا صولة الأسـد
(من البسيط) ص 136/6

فهرس الكتب الوارد ذكرها فى الكتاب

فهـرس الاعـلام والجمـاعـات

– ب –

فهرس البلدان والأماكن

فهرس الديانات والعقائد والأحزاب

فهرس الألسنة واللغات

فهرس العلوم

جدول فى الألفاظ المرددة

اكثر من ثلاث مرات

ــ ظ ــ

ــ ع ــ

ـ ن ـ

جدول فى الألفاظ المرددة

مرتب حسب أهمية الترداد (*)

ملوك	135	صناعة	22	حكمة	7
سياسة	99	تسلط	21	تدبير	7
معرفة	73	وطن	21	عمال	7
شريعة	72	اختراع	19	انتخاب	7
علوم	64	عمران	15	الأمر بالمعروف ...	6
تنظيمات	62	زراعة	14	ثورة	6
دول	58	المتوظفون	14	حزب	6
قانون	49	اسلام	13	استقامة	6
حرية	48	احتساب	13	ولي	6
حقوق	39	مشورة	13	امان	5
عدل ـ انصاف	39	عامة	13	اطلاق	5
مصالح	34	تاجر	12	اعوان	5
وزير	34	الامامة	11	مشاركة	5
تمدن	33	جهالة	11	الوازع	5
مجلس	32	تراتيب	11	تأخر	4
أمة	31	تقدم	11	أمير	4
استبداد	27	ظلم	10	مسؤولية	4
الدين	27	جنس	9	سلاطين	4
الرعية	27	الوزير المباشر	9	مساواة	4
أحكام	24	مجلس الوكلاء	8	اضطراب	4
عقل	23	فكر	8	طبع	4

(*) الواد الأول يشير للكلمات المرددة والثانى لعدد المرات .

فهرس الكلمات الدخيلة

– س –

ستينوغرافى (sténographie)
16/192 .

سناتو : (sénat)
14/225 . 2/226 .

– غ –

غاز : (gaz)
15،4/192

– ف –

فابور : (vapeur)
16،6/190 . 1/191 .

فبريكة – فبريكات (fabrique)
18،13،11/186 . 1/187 . 192/
11 .

فرقاطة (frégate)
15/190 .

فوتوغرافى (photographie)
4/193 .

فيزيك (physique)
3/134 .

– ك –

كروسة (carosse)
19/192 .

كريتيك (critique)
10/125 .

كريدى (crédit)
21،20/214

كولينز (cavaliers-chevaliers cavaliere)
11/168 .

كومبانية الهند (compagnie des Indes)
5/213 .

كوميديا (comédie)
6،5/179 .

كونستيتوسيون (constitution)
18/210 . 4/220 . 12/222 .

كيمياء (chimie)
3/134

الكينا (quinine)
16/186 .

– م –

ماكينجى (mécanicien)
4/188 . 12،3/189 .

مداليا (médaille)
5/198 . 14/215 .

مسجرى أمبريال (messagerie impériale)
14/212 .

المسكوبية (moscovite)
14/207 .

مكنيك (mécanique)
2/196 .

المنسنقر (mennesenger)
12/135 .

الموزايات (musées)
11/198 .

نوبليس (noblesse)
15/96 . 7/219 .

فهـرس الأعـلام الأعجميـة

— P —

— R —

— S —

— T —

— V —

— W —

فهـرس الطبعـة الأولى (*)

الصفحة

(*) فهرس **مقدمة اقوم المسالك** ــ الطبعة الأولى ــ 1867/1284 . وقد أثبتنـا أرقامه بالطرة من طبعتنا هذه .

فهـرس هـذه الطبعـة

خطبة الكتاب

التمدن الأوروبي

تلخيص المكتشفات والمخترعات

التقاريظ

الفهـــارس

التنفيذ:

الدار العربية للكتاب

تم طبع هذا الكتاب في شهر ديسمبر 1998
بالمطبعة الأساسية ببنعروس

الإنجاز الفني: مخابر الدار العربية للكتاب
4، شارع محيي الدين القليبي - المنار 2 - تونس
الهاتف: 255 888 - الفاكس: 365 888

